أديَان مقارنَة

ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد

دكتورة ليلى حسَن سَعد الدين
مركز اللغات - كلية الآداب - الجامعة الأردنية
عمّان - الأردن

دار الفكر للنشر والتوزيع
عمان - الأردن

دار الفكر للنشر والتوزيع - عمان - الأردن
ص. ب. ١٨٣٥٢٠ - تلفون ٦٢١٩٣٨
ساحة الجامع الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـداء

إلى أبنائي ربى، حمدي، قيس والمنتصر بالله، رمز أجيال شعبنا الفلسطينيّ الحيّ الذي لا يموت وعنوان أجيال أمتنا العربية المساجدة في أعماق الحياة والتاريخ.

وآية أجيال أمتنا الإسلامية المختارة الخالدة إلى يوم يبعثون.

و ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

صدق الله العظيم

المؤلفة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. (ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد)، هو الكتاب الذي لم أكتب فيه ما يسمى التاريخ أو الأدب، ولكني كتبت فيه شيئاً قديماً وجديداً، إنه القديم قدم البشارة بمحمد ﷺ، رسول رحمة إلى العالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين. وهو الجديد الذي لا يخلق مع الأيام والأزمان إلى يوم يبعثون، إنه البشارة ذاتها التي أكدها القرآن الكريم، وأعلن إلى البشرية كافة أن محمداً ﷺ هو من بشّرت به التوراة والإنجيل، ذلك يعني أن السماء قد بشّرت بمحمد منذ خلق آدم فيما روي عن النبي ﷺ. (الذين يتّبعون الرسول النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل).

قوم إسرائيل إذاً عرفوا محمداً ﷺ أو أحمد، كما يسمونه من خلال التوراة التي أُنزلت على موسى عليه السلام. لقد عرفوه باسمه ووصفه، وعرفوه كذلك من خلال توراتهم التي وضعوها بأيديهم بعد أن حرّفوا توراة موسى وزيّفوها، وجهدوا لكي يخفوا البشارة المحمدية، ولكنها النور الذي يأبى الله إلاّ أن يُتمّه ولو كره الكافرون. وما فعل قوم إسرائيل ذلك إلاّ لحسدهم العرب على ختم النبوة فيهم، إذ كانوا يأملون أن يكون خاتم الأنبياء منهم، ولكرههم اسماعيل بن إبراهيم أو بكر إبراهيم الذي حسدوه على بكوريّة أبيه، ورأوا فيه ابن الجارية التي أبت سارة أن تقبلها أمّاً لبكر إبراهيم.

ومضى قوم إسرائيل يحرّفون التوراة التي أنزلها الله هدى ونوراً للقوم، ولكنهم أحالوها بضلالهم ضلالة وظلاماً غرقوا فيه وأغرقوا معهم من أتى بعدهم. وانطلقوا يحيكون الوهم من الوهم الذي خطّته أيديهم، فقالوا: إنهم أبناء الله، وكان ردّ الله عليهم إن كنتم أبناء الله فلم يعذبهم الله بذنوبهم بل هم بشر ممن خلق وقالوا: إنهم شعب الله المختار، فردّ عليهم بأنهم اختيروا في حينهم ذلك البعيد فحسب، وكان اختياراً مشروطاً بالشرط الذي لا يقبل النقض: يا بني إسرائيل أوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم. ولكن القوم ما وفوا؛ بل خانوا وضلّوا وكفروا. وحاقت بهم لعنة الله والملائكة والرسل جميعاً.

وقالوا: الأرض المقدسة هي وعد الله إلى إبراهيم، أو إلى نسل إبراهيم، ونسوا أو تناسوا أن

العرب هم نسل إبراهيم كذلك؛ بل إنهم نسل بكر ابراهيم الذي قرّتْ به عين أبيه بعد أن بلغ من العمر عِتيّاً، وكان من اسماعيل خاتم الأنبياء الذي أرسل إلى العالمين كافةً، وذكرت التوراة ذلك وأكّده الإنجيل بلسان عيسى عليه السلام، فقد كان وعد الله لنسل ابراهيم المؤمن الموحّد، وبطبيعة الأمر، فإن قوم إسرائيل لم يكونوا هم النسّل المؤمن الموحّد كما أكدته توراتهم والإنجيل والقُرآن، وحقَّت عليهم اللعنة والذلّة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله. وانتفى عنهم إنجاز الوعد فبطل الشرط، وبقي الاختيار قائماً من بعدهم على من آمن بعيسى عليه السلام، وكان خطاب الله إلى عيسى والمؤمنين به عبداً من عبيد الله، لا ربّاً أو الهاً أو ابن إله بأنهم الشعب المختار ما دام الشرط قائماً بأركانه. ولكن الإنجاز انتفى مع أولئك المؤمنين بعيسى فانتفى عنهم الاختيار. وبقي هذا قائماً ليتسلمه من يأتي من بعدهم.

وبُعث محمد ﷺ الذي فصّلت التوارة والإنجيل صفاته وعلاماته، وتحدث عنه أنبياء قوم إسرائيل أحاديث مُفصّلة رأوها في رؤى لا يخفى تفسيرها على ذي عقل منصف، وكانت رؤاهم تدور حول فكرة وحيدة تناولها كل منهم بطريقته الملهمة، وهي فكرة المخلّص المُرْتقب من نسل اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ثم لا يفتأ كل نبيّ أن يذكر صفات محمد أو أحمد أو المُخلِّص الآتي، الذي سيعمّ بفضله السلام في العالم وفي القُدس، وسيكون إلى العالم الرحمة التي تنتظرها البشرية.

ويمضي القوم إلى عهد داود عليه السلام، وقد حمل إليهم البشارة ذاتها التي تلقّاها أمانة من ربّه. وحملت مزاميره من هذه الصفات المحمدية ما هيّأ القلوب المؤمنة - وإن كانت قلة - لترقُّب الخلاص الذي أكثر داود من ذكره وترديده عليهم. وكان هو أشد أولئك تلهّفاً للخلاص الذي لا ينجي سواه القومَ من ضلالهم، ولكنه خلاص للأتقياء، وأما الضالون فإلى الفناء والهلاك. وكانت من داود اللّعنة على قومه. و(لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم).

وتمضي الأزمان مع أولئك القوم إلى عهد عيسى وهو يحمل الأمانة السماوية ذاتها - توحيد الله سبحانه والبشارة المحمّدية، ولكنها البشارة المُعْلَنَة إلى القوم دون مواربة أو تمويه، (يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مُصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومُبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد). وذلك لا يبقي للقوم من وسيلة لتمويه البشارة التي حاولوا طمسها وتضييعها. فقد أعلن عيسى لهم مهمّته التي أُرسل لأجلها وهي إكمال ناموس موسى والتبشير بمحمد ﷺ.

ماذا على القوم أن يصنعوا إزاء تصريح عيسى المعلن إليهم، وهو واحد منهم، وأرسل إليهم فحسب؟ لقد كان عيسى في دعوته - التي مضى يُبلغها القوم - يؤكد على البشارة من خلال توحيد الله، وهو توحيد مقترن بأن محمداً رسول الله إلى البشرية كافة، وبهذا فَضَل محمدٌ ﷺ

الأنبياء والرُّسُل. لقد أعلن القومُ على عيسى الحرب التي أعلنوها على كل نبيّ سبقه، ولكنه مضى في الدعوة التي كان عيسى بلا شكّ على يقين من أنها ستكون دعوة قصيرة الزمن في التبليغ، وقد استمرت دعوته طيلة الأعوام الثلاث، ولكن بعد أن اختار من المؤمنين اثني عشر حوارياً هم تلاميذه، فكان منهم من استمرّ على هدى عيسى، ومنهم من ابتعد، وبذا ظهر التباين بين الأناجيل التي كتبوها إذ حمل كل منها صفة كاتبه وليس كلام عيسى الموحى به إليـه. وإن كُنّا نستشفُ من خلالها البشارة التي تسلّموها من عيسى مع ما حاولوا من التبديل فيها حسبما ارتأوه هم أنفسهم.

وكان إنجيل « برنابا » أشد الأناجيل تقارباً من القرآن الكريم، وقد فصّلتُ ذلك تقارنياً في كتابي (مثلُ الذين حُملّوا التوراةَ ثم لم يحملوها كمثلِ الحمار سحمل أسفاراً)، وهذا الأمر هو ما دفع بعض الكنائس إلى إنكار هذا الإنجيل وإتلافه، ولكن نور الله لا يَطْفَأ بأفواه الذين كفروا، فالله متمّ نوره وىو كره الكافرون.

وأمّا مسيحية اليوم فهي امتداد لمسيحية بولس أو شاول اليهودي الذي أعلن تنصّره فجأة من بعد طول عداء للمؤمنين بدعوة عيسى، وذلك يؤكد ما عزم عليه قوم إسرائيل من تحريف الدّين، وتزييف كلام الله؛ فكما حرّفوا التوراة، حرّفوا الإنجيل ومن بعده القرآن، وكما حاولوا طمس البشارة الأحمدية عزموا على تشويه دعوة عيسى المبشّرة صراحة بأحمد، فكان منهم شاول (بولس)، الذي ابتعد عن جوهر دعوة عيسى ابتعاداً لم يبق فيه أيّ أثر لأصل الدّعوة؛ فالتوحيد أصبح تثليثاً، والمخلّص أصبح عيسى وليس أحمد، وكأن عيسى كان يبشّر بنفسهِ مخلّصاً مُرتقباً، والتزم جانب تذويب الدعوة العيسوية بدل الالتزام بها والتشدّد في حملها وتبليغها، مما حمله على السماح لعقائد الوثنيين بالتسرّب إلى دعوته، وباتت تعرف بمسيحية بولسِ وليس بمسيحية عيسى، وهي المسيحية التي يؤمن بها العالم المسيحي اليوم، ويستدلّون بها ويتشدّدون في تطبيقها.

ويقف القرآن الكريم كتاب البشرية الخالد إلى يوم الدين ليُعلن للملأ تبليغ عيسى دعوته الموحدة والمبشّرة بأحمد، ولكن ليدمغ قوم إسرائيل بصفات لم يوصف بها أدنى المخلوقات منزلة، فهم قوم ملعونون إلى يوم الدين بكفرهم وعصيانهم وغلاظة رقابهم وقسوة قلوبهم. وهم كَمَنْ سبقهم من الأقوام البائدة إلى فناء وضياع وتشتّت، وإن الضالين من البشر إلى تبار وانقضاء، وليس قوم عاد وثمود وفرعون غير إنذارات يعلنها القرآن الكريم إلى قوم إسرائيل اليوم وإلى أميركا وحلفائها وروسيا وحلفائها وسواهم وسواهم ممّن أضلهم الله فأعمى أبصارهم، وباتوا بهائم تسيّرها الغريزة والفسق وتفننوا في توليد الرذيلة التي فاقوا بها رذائل مَنْ أبادهم الله كقوم لوط، ولن يَشْفع لهم ما بلغوه من حضارة وعلم، فإن مَنْ سبقوهم قد بلغوا أعظم مما بلغوا إذا ما قيس في مقياس أزمانهم. ولكنها الحضارة التي تُؤْذِن بانهيار القوم حين تصل إلى

القمة، إنها نهاية البداية أو بداية النهاية و (ذرْهم يأكلوا ويتمتّعوا ويلْههم الأمل فسوف يعلمون) .

ويقف محمد ﷺ ليُعلن في سمع الزمان كلام ربه المحفوظ (ومن يبتّغِ غير الإسلام ديناً فلنْ يُقْبَلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين) . (أفمن شَرَحَ اللهُ صدره للإسلام فهو على نور من ربه))وآمنوا بما نزلَ على محمدٍ وهو الحق مِنْ ربّهم) . إنها الدعوة إلى العالمين، مما يؤكد للحياة والأزمان والبشر كافة اقتراب اليوم الذي يصبح فيه الإسلام دين العالمين الواحد، وهو الرحمة إلى البشر كافة (وما أرسلناكَ إلاّ رحمةً للعالمين) .

صدق الله العظيم

دكتورة ليلى حسن سعد الدين
عمان ـ الأردن
١٢/٦/٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ .. الذين يتّبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾

الأعراف ١٥٧

إنّ من يقرأ توراة بني إسرائيل يدرك أن أولئك القوم لم يُؤتوا من المعجزات بيد رسولهم موسى، ولم يعطوا من النعم الربانيّة الكثيرة إلاّ من خلال الميثاق الإلهي الذي لا يتغيّر منذ خلق الله الكون وهو عبادة الله الواحد الأحد. وتلك هي دعوة الرسل والأنبياء جميعاً إلى أقوامهم.

وإن في طلب الرب إلى نسل إبراهيم دخول فلسطين لتكون ميراثاً أبدياً لهم، كان من خلال العهد والميثاق إلى تلك الأمة الموحدة التي ستكون من نسل إبراهيم. وقد تهيأت لهذه الأمة الموحدة الأكوان وامتحنت بها الأمم والأقوام السابقة، لتكون الأمة التي يباهي الله تعالى بها الأمم لأنها خير أمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتؤمن بالله، وتلك هي أركان ميثاق الله إلى الأرض. وإنها لأمة محمد ﷺ.

لقد كان ميثاق الرب إلى إبراهيم كما تحكي التوراة مشروطاً بتنفيذه كما أراده الله تعالى (وأتيتُ بكم إلى الأرض التي أقْسمْتُ لآبائكم وقلتُ لا أنكِثُ عهدي معكم إلى الأبد)[١]. ولكن القوم ما حفظوا العهد بل نقضوا الميثاق (فحمَي غضبُ الربّ على إسرائيل. وقال من أجل أن هذا الشعب قد تعدوا عهدي الذي أوصيتُ به آباءَهم ولم يسمعوا لصوتي فأنا أيضاً لا أعودُ أطردُ إنساناً من أمامهم من الأمم)[٢].

إذن، مَنْ هم أولئك الذين آمنوا بما آمن به إبراهيم من نسله إيماناً مطلقاً لا يشوبه شرك؟ لقد كان اسماعيل واسحق ابني إبراهيم عليهم السلام. ومن اسماعيل البكر كانت أمة العرب التي ختمت فيها رسالات السماء بدين الله الحق الإسلام ورسوله محمد ﷺ، خاتم

---

(١) قضاة ٢ : ١.   (٢) قضاة ٢ : ٢٠.

الرسل والأنبياء. وكان قوم إسرائيل من يعقوب بن إسحق، وبهؤلاء بُدِئت المرحلة الأولى من النبوة بالرسالة المحررة الممهورة بختم الخالق سبحانه، وبأولئك القوم ختمت تلك المرحلة الأولى النبوية.. ولكن لتُفْتَح أولى صفحات المرحلة الثانية والأخيرة في تاريخ الرسالات السماوية المحررة.

لقد تحولت النبوة، أو انتقلت، من نسل إسحق إلى نسل إسماعيل البكر.. وعند محمد ﷺ استقرت رسالة التوحيد كما أرادها الله سبحانه، وبها خُتم دين السماء. وحملت أمة محمد ﷺ راية التوحيد التي أظلت شتى الملل والعقائد والأجناس والأمم والشعوب تحت اسم أمة الإسلام، وبات الإيمان هو النسب الوحيد الذي يصلنا بإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط الذين كان دينهم الإسلام.

نسب الإيمان هو الأصل، وليس نسب اللحم والدم الذي يحتج به قوم إسرائيل، ولو كان الأمر كذلك في ميثاق الله تعالى لكان لنا من الحجة ما يفوق حجتهم، فالعرب هم أبناء إسماعيل بكر إبراهيم، وذلك أحرى بأن يقوّي حجة العرب لو كان هذا النسب حجة؛ ولكن إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً، ولكنه كان حنفياً مسلماً وما كان من المشركين.

ولقد كان في أمة الإسلام الفئة القليلة التي آمنت من بني اسرائيل وأسلمت وحسن إسلامها، وبات الميثاق الإلهي الأبدي يشملها، لا لكونها من قوم إسرائيل بن إسحق، ولكن لأنها جزء في أمة الإسلام الواحدة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. ولم يعد انتسابها إلى إبراهيم انتساب الابن إلى أبيه ولكنه انتساب المؤمن إلى الإيمان الذي جاء به إبراهيم أبو الأنبياء المسلمين. وكانت وصيته إلى أبنائه ﴿فلا تموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾ [٣]. ومن هذا النسب الإيماني يطرد من كفر، وأكد ذلك عيسى ابن مريم فقال (الذين هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن) [٤]. وتوجه بالحديث والتقريع إلى قوم إسرائيل فقال (يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم. والآن قد وضعتُ الفأس على أصل الشجر. فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطع وتُلقى في النار) [٥].

وأعود إلى بني إسرائيل في رحلتهم في التيه الطويلة الشاقّة منذ أخرجهم موسى وهارون من مصر. فلقد صاحبتهم المعجزات والآيات والعجائب، لتكون من الرب ابتلاءً وامتحاناً

(٣) البقرة ١٣٢. (٤) رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣ :٧. (٥) إنجيل متى ٣ :٨ ـ ١٠.

وتدريباً وتهذيباً لهم بيد موسى. وتحقق للقوم ما تمنّوه من مأمن ومأكل ومشرب بشرط الالتزام بالميثاق والعهد. وكان حالهم أشبه بحال طفل يعلمه أبواه السلوك الحسن (فاعلم في قلبك أنه كما يؤدب الإنسان ابنه قد أدّبك الربّ إلهك، واحفظ وصايا الرب إلهك لتسلك في طرقه وتتّقيه)[٦]. ولكن ما إن اشتد عود هذا الابن حتى كان من الفجور والفسق والتمرد ما أخرجه من رحمة الرب وطرده من غفرانه، ووقفوا من موسى موقف الرافض المكابر الذي لا يزداد إلاّ صلفاً مع كل باب رحمة يتفتح له.

ولم يفِ قوم إسرائيل بالعهد، ولم يعملوا بالميثاق، فقد ضيّعوه وكفروا به، ولم يعودوا القادرين على تبليغ رسالة التوحيد كما أرادها الرب في الأرض التي أمروا أن يحطموا أصنامها وينشروا فيها دعوة التوحيد، لأنها الأرض التي هيئت منذ الأزل ليستقر عليها توحيد الله إلى الأبد.

لقد فشلوا في كل امتحان تعرضوا له في رحلتهم الطويلة، كان عليهم أن يمتحنوا في حياة موسى الامتحان الأخير، وهو مدى تقبّلهم فكرة دخول الأرض دخول موحدين لا دخول غزاة محرومين مضطهدين.. فماذا كانت النتيجة؟ لقد قال لهم موسى **﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾**[٧].

فماذا كان رد القوم؟ وهل يستطيعون الإقدام على أمر ما دون أن يُمسك موسى وربه بأيديهم، فهم لا يقومون بأنفسهم ولكن يقومون بغيرهم **﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبّارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها. فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون.. قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾**[٨]

هم إذن القوم الذين طمس الله على قلوبهم فلم يستحقوا أن يكونوا الموحدين والناشرين دعوة التوحيد. وعلى موسى ـ بعد أن أعلن قومه تحديهم لفطرة الله ونكوصهم عما أُمروا به ـ أن يعلن البراءة منهم كما أعلنها الأنبياء السابقون حين وصلوا مع أقوامهم إلى نقطة استحال بعدها إيمانهم.

وتوجه موسى إلى ربه وقال **﴿ربِّ إني لا أملك إلاّ نفسي وأخي فافرقْ بيننا وبين القوم الفاسقين﴾**[٩].

وإنها لدعوة نبي ورسول اتفقت مع إرادة ربه المسبقة بالقوم **﴿قال فإنها محرّمةٌ عليهم﴾**[١٠] ـ الأرض ـ تحريماً أبدياً في هذا الفرع من النسل الإبراهيمي. ولكـن ليمضي الله حكمـه

---

(٦) تثنية ٨:٥.
(٧) المائدة ٢١.
(٨) المائدة ٢٢، ٢٣.
(٩) و١٠ المائدة ٢٦.

الذي لا رادّ له في نسل إبراهيم الإسماعيلي.

ماذا على القوم أن يصنعوا إذن بعد إعلان براءةِ رسولهم منهم؟

لقد تخبطوا في مسيرهم في التيه تخبطاً مع وجود موسى معهم، مما يؤكد عدم رغبتهم في الهداية، ويوضح إصرارهم على الضلالة والعصيان. نسمع موسى يقول في البرية: (ثم تحوّلنا وارتحلنا إلى البريّة على طريق بحر سوف كما كلمني الرب. ودرنا بجبل سعير أياماً كثيرة. ثم كلمني الرب قائلاً: كفاكم دوراناً بهذا الجبل. تحولوا نحو الشمال[11].

وهذا التخبط بغير هدف يشير إلى ما أصاب رسولهم من يأس مطبق منهم وقد عانى منهم في رحلة الخروج ما لا يستطيعه غير موسى نفسه، ومع ذلك فقد خطت أيديهم في التوراة أن الرب غضب على موسى نفسه، وحرم عليه دخول الأرض لأنه خان الرب واحتقره، وأمره بصعود جبل نبو في ناحية جبال موآب ليلقي النظرة الأخيرة على الأرض. وهذا هو نفسه أعظم علامات تأكيد التحريم على دخول القوم الأرض. فإن كان موسى قد حرم الدخول فلكي يكون التحريم قد بدأ بقومه أنفسهم. ودفن موسى في جبل نبو في الأردن مما يعلن طيّ صفحة المعجزات التي رافقت القوم قبل خروجهم من مصر وبعده.

وعند هذه المرحلة التي انتهت بموت الرسول موسى تتوقف المعجزات بل تنتهي، لأنها كانت مشروطة بحفظ الميثاق وتطبيق الشريعة، ولكنهم ما حفظوا الميثاق وما طبقوا الشريعة، فانتفى الشرط بانتفاء أسبابه. وأكدت التوراة بطلان العهد بعد موت موسى إذ (لم يقم بعد نبي في إسرائيل قبل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه في جميع الآيات والعجائب التي ارسله الرب ليعملها في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه وفي كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التي صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل)[12].

على القوم إذن مواجهة حياتهم بأنفسهم بعيداً عن المعجزات. ولكن أنَّى لهم ذلك وهم ما تعودوا أنفسهم إلاّ مرتبطين بسواهم، أو قائمين بمصادر القوى الخارجية؟

نسمع القوم من بعد موسى يقولون **﴿ألم ترَ إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيّ لهم ابْعثْ لنا مُلكاً نقاتلْ في سبيل الله. قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا. قالوا وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا. فلما كُتِبَ عليهم القتالُ تولوا إلاّ قليلاً منهم والله عليهم بالظالمين﴾**[13].

ولقد كذب ذلك النبي ادعاء قومه وهتك سترهم إذ **﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنىّ يكون له الملك علينا ونحن أحقُّ بالملك منه ولم يُؤْتَ سعةً من المال.**

---

(١١) تثنيه ٢: ٢. (١٢) تثنيه ٣٤: ١٠ - ١٢. (١٣) البقرة ٢٨٦.

قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطةً في العلم والجسم. والله يُؤتي ملكه من يشاء ﴾ (١٤).

ذلك مثل القوم وقد دخلوا إلى الأرض دخول غزاة طارئين، لا دخول موحدين أصحاب دعوة؛ فقد دخلوا بالوحشية والقسوة والقتل والذبح، وذلك يتعارض تماماً مع دعوة التوحيد الداعية إلى الرحمة والرفق الصادرة عن الله الواحد الأحد الغفور الرحيم. وساقهم يشوع تلميذ موسى ونشر في الأرض الرعب، وكان الأولى وهو حامل رسالة موسى أن يسع الناس هناك برحمة رسالته، ولكنه حرم كل بلدة دخلها وقتل أهلها أو حرقها كما تذكر التوراة، وإن كانت هذه تذكر بل تؤكد أن قوم إسرائيل عاشوا بين سكان أهل الأرض الذين وصفتهم التوراة بالشجاعة وهم العمالقة الأشداء، مما يعني أن أهل الأرض قد دافعوا عن حقهم في أرضهم ضد الغزاة بالقتال، وقد تعلم قوم إسرائيل منهم القتال في الحروب (فهؤلاء هم الأمم الذين تركهم الرب ليمتحن بهم إسرائيل كل الذين لم يعرفوا جميع حروب كنعان. إنما لمعرفة أجيال بني إسرائيل لتعليمهم الحرب الذين لم يعرفوها قبل قط) (١٥).

إن أسباب الغزو إذن هي الطمع في خير الأرض وزرعها وضرعها، تلك الأرض الفائضة باللبن وبالعسل كما ذكر الجاسوسان اللذان أرسلهما يشوع لتجسس أحوال الأرض. (لأن الرب إلهك آتٍ بك إلى أرض جيدة. أرض أنهار من عيون وغمار تنبع في البقاع والجبال. أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان. أرض زيتون زيت وعسل.. أرض حجارتها حديد ومن جبالها تحفر نحاساً. فمتى أكلْتَ وشبعْتَ تبارك الرب إلهك لأجل الأرض الجيدة التي أعطاك. احترزْ من أن تنسى الربَّ إلهك ولا تحفظ وصاياه وأحكامه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم. لئلا إذا أكلْتَ وشبعْتَ وبنيْت بيوتاً جيدة وسكنْتَ وكثّرت بقرك وغنمك، وكثرت لك الفضة والذهب، وكثر كل مالك، يرتفع قلبك وتنسى الربَّ إلهك الذي أخرجك من مصر من بيت العبودية) (١٦).

لقد نسوا الله فأنساهم الله أنفسهم، نسي القوم العهد والميثاق، وتمثل يشوع وقومه النسيان فيما سلكوه من مسلك الدعوة إلى القتل وإلى الظلم، وكان يشوع - كما تحكي التوراة - هو محرضهم على ذلك ليسهل عليه توزيع الأرض بالقوة وبالقسر على أسباط قومه، وهو يظن أن في سرعة توزيعها تملكاً أبدياً لها. بينما القوم يجبنون عن ذلك لأنهم لم يقابلوا في الأرض إلاّ أشداء أقوياء (لأن لهم مركبات حديد لأنهم أشداء) (١٧). بل إن حثّ يشوع قومه لامتلاك الأرض ما رأى عليه أهل الأرض من قوة وبأس، وما كان عليه قومه من جبن وعدم

(١٤) البقرة ٢٤٧.
(١٥) قضاة ٣: ١ - ٢.
(١٦) تثنية ٨: ٦ - ١٤.
(١٧) يشوع ١٧: ١٨.

استحقاق لهذه الأرض. لقد قال لهم (حتى متى أنتم متراخون عن الدخول لامتلاك الأرض)[١٨].

ولم يجهل يشوع أن الأرض التي يريدون امتلاكها هي ملك شعب امتدت جذوره في بطن أرضه امتداد حضارته في أعماق التاريخ. يقول الربّ لهم: (وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا عليها ومدناً لم تبنوها وتسكنون بها. ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون)[١٩].

واشتعلت الحروب بين أهل الأرض وبين غزاة الأرض كراً وفراً، كان الانتصار أحياناً من نصيب الغزاة حين يرجعون إلى الرب، ولكن ما إن يرتفع البلاء عنهم حتى يعودوا إلى كفرهم وعصيانهم، وذلك يعطي الفرصة لأهل الأرض حتى ينتصروا، لأن الحرب كانت بين إيمان وكفر، أما حين يكفر الغزاة فإن الحرب تضحي بين كفر وكفر، وينتصر أحدهما لتكونِ الهزيمة للطرف الآخر ابتلاءً واختباراً حين سلط عليهم الكفر لقتالهم، وذلك ما كان من أمر قوم إسرائيل حين سلط عليهم الكفر لقتالهم، وذلك ما كان من أمر قوم إسرائيل حين سلط الرب عليهم أقواماً كافرة أعملت فيهم القتل والذبح والأسر والتشريد.

ولم ينجح القوم في ابتلاءات الرب في الأرض التي غزوها، فقد كان الإخفاق يلازمهم مع كل لحظة كفر وخروج على الميثاق وعبادة للأصنام التي عبدوها في الأرض، والتي تفننوا في صنعها. وذلك يعني انحسار ظل الله عن أولئك القوم الذين خذلوا الرب باختيارهم لنشر دعوة التوحيد. وأخذت إنذارات الأنبياء إليهم تترى، وتحمل هذا الإنذارات أو النذر في ثناياها إليهم الوعيد، ولكنها تحمل في الوقت ذاته إلى الفئة القليلة التي آمنت الوعد بالخلاص والبشارة بالمخلص الذي تدين لدينه الشعوب، وتخضع له الأمم.

وامتلأت التوراة بالعلامات على يوم الخلاص، اليوم الذي تصل فيه البشرية إلى نقطة اكتمالها، واستعدادها الذي طالت الإرهاصات إليه لتلقي النور الذي يخرجها من ظلمات الضلال والتخبط والجهالة إلى حياة تستقر فيها إنسانية الإنسان من خلال إيمان لا يشوبه أدنى شرك بإله واحد تطمئن اليه النفوس التي طالت حيرتها وبحثها عنه. وأولى علامات ذلك اليوم تحطيم الأصنام بيد ذلك المخلص، وقد اتخذها أقوامها، ارباباً من دون الله. (فإن لرب الجنود يوماً على كل متعظم وعالٍ وعلى كل مرتفع فيوضع. وعلى كل أرز لبنان العالي المرتفع. وعلى كل بلوط باشان، وعلى كل الجبال العالية وعلى كل التلال المرتفعة. وعلى كل سور منيع وعلى كل سفن ترشيش. وعلى كل الأعلام البهجة. فيُخْفَضُ تشامخ الإنسان وتوضع رفعة الناس وليسمو الرب وحده في ذلك اليوم. وتزول الأوثان بتمامها، ويدخلون في

(١٨) و ١٩ يشوع ١٨ و ٢٤.

مقابر الصخور وفي حفائر التراب من أمام هيبة الرب ومن بهاء عظمته عند قيامه ليرعب الأرض. وفي ذلك اليوم يطرح الإنسان أوثانه الفضية وأوثانه الذهبية التي عملوها له للسجود للجرذان والخفافيش) [٢٠].

أما بهاء الرب وعظمته فتصيب ذلك الإنسان الذي نجا بنفسه من الضلال، وارتفع بها عن مهاوي الكفر، وتلك الفئة القليلة التي نجت من القوم هي نواة تلك الأمة الموحدة الكبيرة التي هيأت لها كتب السماء (في ذلك اليوم يكون غصن الرب بهاء ومجداً وثمر الأرض فخراً وزينة للناجين من إسرائيل، ويكون أن الذي يبقى في صهيون والذي يترك في أورشليم يُسمى قدوساً) [٢١].

وأما الذين سقطوا في حمأة الكفر فكما (يأكل لهيب النار القش ويهبط الحشيش الملتهب يكون أصلهم كالعفونة، ويصعد زهرهم كالغبار لأنهم رذلوا شريعة رب الجنود واستهانوا بكلام قُدوس إسرائيل. من أجل ذلك حمي غضب الرب على شعبه ومد يده عليه وضربه حتى ارتعدت الجبال وصارت جثثهم كالزبل في الأزقّة. مع كل هذا لم يرتد غضبه بل يده ممدودة بعد) [٢٢].

لقد سقط كفرة القوم من حساب اصطفاء الله واختياره. فإن الاصطفاء والاختيار من نصيب أولئك الذين أسهب النبي إشعيا في وصفهم. وكما عرف إشعياء صفات أمة محمد عرفها قومه من قبل ومن بعد، وبقيت هذه الصفات تعلن عن نفسها في التوراة رغم محاولات القوم طمسها أو تحريفها، ومع محاولات الطمس والتحريف راحوا يعلنون للأمة المرتقبة عداوتهم الممتدة بين الماضي والحاضر إلى المستقبل، فإن عدواتهم ـ كما يقول القوم اليوم ـ لا تعود إلى أحمد (أي محمد) ولكنها قديمة تصل إلى إسماعيل. مما يفسر أصل العداوة، إ لولا إسماعيل لما وجد محمد ﷺ ولا دين محمد ـ كما يتوهمون ـ . ولكنه نور الله الذي يأبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾** [٢٣].

لقد سأل عمر بن عبدالعزيز حبراً من أحبار اليهود عن أوصاف محمد كما جاءت في التوراة، فرد الحبر بأن الأوصاف مذكورة في التوراة ويعرفها اليهود ولكنهم يخفونها ويطمسونها حسداً للعرب على كون محمد منهم، وقد كان قوم إسرائيل يأملون أن يكون المخلص المذكور في كتابهم من قوم إسرائيل كما تعودوا.

---

(٢٠) إشعياء ٢ : ١٢ ـ ٢٠.
(٢١ و٢٢) إشعياء ٤ و٥.
(٢٣) التوبة ٣٢.

إن البشارة بمحمد ﷺ لم تنقطع منذ آدم، ولكنها مضت في أنبياء الله ورسله، وقد أرسلوا كلهم مسلمين يهيئون درب البشرية لخاتم الأنبياء والرسل ولدين الإسلام الذي خُتمتْ به رسالات السماء واكتمل به دين الله على الأرض الذي انتصر برجاله الذين تندكُّ تحت سنابك خيلهم الأرض.

أما ذاك المخلص المنقذ (فيرفع رايةً للأمم من بعيد ويصفّر لهم من أقصى الأرض. فإذا هم بالعجلة يأتون سريعاً. ليس فيهم رازح ولا عاثر. لا ينعسون ولا ينامون ولا تنحلّ حزم أحقائهم، ولا تنقطع سيور أحذيتهم. الذين سهامهم مسنونة، وجميع قسيّهم ممدودة. حوافر خيلهم تحسب كالصوان وبكراتهم كالزوبعة. لهم زمجرة كاللبوة، ويزمجرون كالشبل ويهرّون ويمسكون الفريسة ويستخلصونها ولا منقذ. يهرّون عليهم في ذلك اليوم كهدير البحر) (٢٤).

وتمضي التوراة في ذكر علامات الأمل المرتقب القادم من الجنوب حيث جزيرة العرب فهو (وهي من جهة برية البحر في الجنوب عاصفة. يأتي من البرية من أرض مخوفة قد أعلنت لي رؤيا قاسية... وهي من جهة دومة. صرخ إليّ صارخ من سعير يا حارس ما من الليل! يا حارس ما من الليل! قال الحارس: أتى صباح وأيضاً ليل. ارجعوا تعالوا.

وهي من جهة بلاد العرب. في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين هاتوا ماء لملاقاة العطشان. يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه. فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال لي السيد الرب: في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار وبقية عدد قسيّ أبطال بني قيدار تقل..) (٢٥).

إن يوم خلاص الأرض برسول الرحمة ليشرق في أرض فلسطين التي يعيد إليها الإسلام بهاءها بالتوحيد، وإن القدس موصولة بمكة التي أشرق منها نور الإسلام. ففي (ذلك اليوم يُغنى بهذه الأغنية في أرض يهوذا. لنا مدينة قوية قوية يجعل الخلاص أسواراً ومترسة. افتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة الحافظة الأمانة ذو الرأي الممكن تحفظه سالماً سالماً لأنه عليك متوكل. توكلوا على الرب إلى الأبد).

طريق الصديق استقامة. تمهد أيها المستقيم سبيل الصديق. ففي طريق أحكامك يا رب انتظرناك. إلى اسمك وإلى ذكرك شهوة النفس.. لأنه حينما تكون أحكامك في الأرض يتعلم سكان المسكونة العدل) (٢٦).

لقد ازدانت القدس ببهائها وإشراقها يوم دخول عمر بن الخطاب إليها وهو يحمل راية لا

---

(٢٤) و٢٥ و٢٦ إشعياء ٥ و٢١ و٢٦.

إله إلاّ الله محمد رسول الله، ولقد دخلها بسلام الإيمان وعامل أهلها من خلال هذا السلام الذي جاء به الإسلام لمن يرعون عهد الله، وإن علامات التوراة هذه لتؤكد ذلك الدخول الإسلامي العظيم للقدس أو بيت المقدس كما تسمّت في الإسلام، وإن هيبة الإسلام هي التي جعلت منها ثالث الحرمين الشريفين. وكان بدء إكرامها الإلهي أن جعلها أولى القبلتين، ومنها تحولت القبلة إلى مكة الحرام ليكون ذلك امتحاناً لتلك الفئة الضالة العاصية من قوم إسرائيل في موقفها من آخر المرسلين محمد ﷺ. قال تعالى **﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً. وما جعلْنا القبلةَ التي كنْتَ عليها إلاّ لِنَعلَمَ من يتَّبعُ الرسولَ مِمَّنْ ينقلبُ على عقبيه﴾** [٢٧].

والإسلام دين الحق، وهو حجر الزاوية الذي أكمل به الله دينه على الأرض. ولقد طال انتظار إكمال البناء العظيم بهذا الحجر، يمضي دور ويأتي آخر، والأمانة تنتظر من يحملها ويبلغها كما شاء لها ربها.

فقد أخفق قوم إسرائل في حمل الأمانة، ووقفوا من رسلهم وأنبيائهم موقف الرافض والمعاند لما جاؤوا به، وكانوا يقتلون كل نبيٍّ يجيء بما لا تهوى أنفسهم، وضيعوا كل فرض وجعلوا الكذب لهم ملجأ، ذلك لأنهم قد (ضلّوا بالخمر وتاهوا بالمسكر. الكاهن والنبي ترنحا بالمسكر. ابتلعتهما الخمر. تاها من المسكر، ضلاّ في الرؤيا قلقا في القضاء. فإن جميع الموائد امتلأت قيئاً وقذراً. ليس مكان لمن يعلِّم معرفة ولمن يُفهم تعليماً. أللمفطومين عن اللبن، للمفصولين عن الثدي لأنه أمر على أمر. أمر على أمر. فرض على فرض. فرض على فرض. قليل هناك قليل.

إنه بشفة لكناء وبلسان آخر يكلم هذا الشعب الذين قال لهم. هذه هي الراحة.. وهذا هو السكون، ولم يشاؤوا ان يسمعوا. فكان لهم قول الرب أمراً على أمر. أمراً على أمر. فرضاً على فرض. فرضاً على فرض. هنا قليلاً، هناك قليلاً لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء وينكسروا ويصادوا فيؤخذوا.

لذلك اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء ولاة هذا الشعب الذي في أورشليم لأنكم قلتم قد عقدنا عهداً مع الموت. وضعنا ميثاقاً مع الهاوية. السوط الجارف إذا عبر لا يأتينا لأننا جعلنا الكذب ملجأنا، وبالغشّ استترْنا. لذلك هكذا يقول السيد الرب...) [٢٨].

وكان قول الربّ فعلاً وتأسيساً (ها أنذا أؤسس في صهيون حجراً، حجر امتحان، حجر زاوية كريماً أساساً مؤسساً. من آمن لا يهرب. وأجعل الحق خيطاً والعدل مطماراً. فيخطف

---

(٢٧) البقرة ١٤٣. (٢٨) إشعياء ٢٨

البرد ملجأ الكذب ويجرف الماء الستارة. ويُمحى عهدكم مع الموت ولا يثبت ميثاقكم مع الهاوية. السوط الجارف إذا عبر تكونون له للدّوس. كلما عبر يأخذكم) [٢٩].

إن كلمة الله هي الباقية، وإن شريعته على الأرض هي الثابتة الخالدة من خلال الأمم والشعوب التي تمضي ولا يبقى منها غير الثابتين على الإيمان المطلق بالله سبحانه، فإن أولئك الثابتين المؤمنين هم شعب الله، وهم حزبه الذين ينصرون الله فينصرهم، ويعدون للخالق طريق البِرّ والأمانة. فهناك (صوت صارخ في البرية. أعدوا طريق الرب. قوموا في القفر سبيلاً لإلهنا. كل وطاء يرتفع. وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعْوَجّ مستقيماً والعراقيب سهلاً. فيُعلن مجد الرب ويراه كل البشر، لأن فم الرب تكلم.

صوت قائل: نادِ. فقال: بماذا أنادي؟. كل جسـد عشب. وكل جماله كزهر الحقل. يبس العشب، ذبل الزهر لأن نفخة الرب هبّت عليه. حقاً الشعب عشب. يبس العشب، ذبل الزهر. وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد) [٣٠].

لقد ذبل الشعب الذي هو العشب، ولم يبق غير الثابتين على الإيمان وأما مدّعو الاختيار ومتوهمـو الاصطفاء فقد نفخ الرب عليهم فجفّوا، والعاصف كـالعصف يحملهم (ألا تعلمون ألا تسمعون. ألم تختبروا من البداءة؟ ألم تفهموا من أساسات الأرض الجالس على كرة الأرض وسكانها كالجندب الذي ينشر السموات كسرادق، ويبسطها كخيمة للسكن. الذي يجعل العظماء لا شيء، ويصير قضاة الأرض كالباطل لم يُغْرَسوا ولم يُزْرَعوا ولم يتأصل في الأرض ساقهم. فنفخ عليهم فجفّوا. والعاصـف كـالعصـف يحملهـم. فبمـن تشبهـونني فأساويه. يقول القدوس، ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا من خلق هذه.

لماذا تقول يا يعقوب وتتكلم يا إسرائيل: قد اختفت طريقي عن الرب وفات حقي إلهي أما عرفت أم لم تسمع. إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكلّ ولا يعيا. ليس عن فهمه فحص. يعطي المعي قدرة، ولعديم القوة يكثر شدة. الغلمان يعيون ويتعبون، والفتيان يتعثرون تعثراً. وأما منتظرو الرب فيجدون القوة. يرفعون أجنحة كالنسور. يركضون ولا يتعبون، يمشون ولا يعيون..) [٣١].

أليست صفات المؤمنين هذه هي التي اكدها القرآن الكريم، أليس المؤمنون الزرع الذي يتأصل في الأرض ساقه، وأما الكفار فهم الزرع الذي يجتثّ مع أول نفخة تهبّ عليه، لقد قال الخالق سبحانه **﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً. سيمـاهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في**

(٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١) إشعياء ٢٨، ٤٨، ٤٠.

التوراة ومثلُهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شَطْأَهُ فآزره فاستغلظَ فاستوى على سوقِهِ يُعجب الزُرَّاع ليغيظ بهم الكفار. وَعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظياً﴾ (٣٢).

أمّا قوم إسرائيل فلم يعبدوا الله إلهاً واحداً، ولم يطبقوا على الأرض شريعته التي تدعو إلى العدل والبر، فتركهم الرب ليبدلهم بمن هم خير منهم. شعب اختاره الرب من عابديه وموحديه. وذلك هو الإعلان الصريح إلى أولئك القوم. فإن ما مضى من معجزات قد مضى، وإن هناك طريقاً جديداً للموحدين يسيرون فيه (لا تذكروا الأوليات. والقديمات لا تتأملوا بها. هاأنذا صانعٌ أمراً جديداً. الآن ينبت. ألا تعرفونه. أجعلُ في البرية طريقاً. في القفر أنهاراً. يمجدني حيوان الصحراء، الذئاب وبنات النعام، لأني جعلتُ في البرية ماءً أنهاراً في القفر لأسقي شعبي مختاري. هذا الشعب جبلتُهُ لنفسي يحدِّث بتسبيحي.

وأنت لم تدعني يا يعقوب حتى تتعب من أجلي يا إسرائيل. لم تحضر لي شاة محرقتك، وبذبائحك لم تكرمني. لم استخدمك بتقدمة ولا أتعبتك بلبان. لم تشترِ لي بفضة قصباً، وبشحم ذبائحك لم تروني. لكن استخدمتني بخطاياك وأتعبتي بآثامك. أبوك الأول قد أخطأ، ووسطاؤك عصوا عليّ فدنّست رؤساء القدس ودفعت يعقوب إلى اللعن وإسرائيل إلى الشتائم) (٣٣).

الناجون من الكفر من الأمم يجتمعون على طريق الإيمان، وعلى هدف تبليغ رسالة التوحيد (اجتمعوا وهلمّوا تقدموا معاً أيها الناجون من الأمم.. أخبروا قدموا وليتشاوروا معاً. من أعلم بهذه منذ القديم أخبر بها منذ زمان. أليس أنا الرب ولا إله آخر غيري. إله بارّ ومخلص. ليس سواي. التفتوا إليّ وأخلصوا يا جميع اقاصي الأرض، لأني أنا الله وليس آخر. بذاتي أقسمتُ خرج من فمي الصدق كلمة لا ترجع، إنه لي تجثو كلّ ركبة، يحلف كل لسان) (٣٤).

إن الموحدين يخلصون لله ويسجدون له، مسلمين، مخبتين طائعين، أوليس قدوة اولئك المؤمنين من تقول فيه التوراة: (هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سُرّتْ به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم. لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته) (٣٥).

وتزداد إشارات البشارة برسول الهدى وبدينه الحق كلما تعاظم غضب الرب على قوم إسرائيل، بل إن البشارة كانت تتبع كل موقف يصب فيه الرب على القوم لعناته وغضبه،

---

(٣٢) الفتح ٢٩. (٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥) إشعياء ٤٣، ٤٥، ٤٢.

والبشارة هي ما حاول القوم طمسه في توراتهم، ولكنه نور الله الذي لا يُطفأ ولو كره الكافرون.

وإن البشارة بمحمد ﷺ هي الأمر الحديث القديم، هو القديم في غيب الله سبحانه الذي خلق الكون لأجله، وبه بشر الأنبياء والرسل الذين جاؤوا كلهم مسلمين على دين محمد، وهو الحديث الذي يتجدد مع كل رسالة رسول (اسمعوا هذا يا بيت يعقوب المدعوين باسم إسرائيل الذين خرجوا من مياه يهوذا، الحالفين باسم الرب، والذين يذكرون إله اسرائيل ليس بالصدق ولا بالحق. فإنهم يسمون من مدينة القدس، ويسندون إلى إله إسرائيل. بالأوليات منذ زمان أخبرت ومن فمي خرجت وأنبأت بها بغتة. صنعتها فأتت. لمعرفتي أنك قاسٍ وعضلٌ من حديد عنقك، وجبهتك نحاس. أخبرتك منذ زمان قبلما أتت أنبأتك... وقد سمعت فانظر كلها وأنتم لا تخبرون. قد أنبأتك بحديثات منذ الآن وقبل اليوم لم تسمع بها، لئلاّ تقول هاأنذا قد عرفتها. لم تسمع ولم تعرف ومنذ زمان لم تنفتح أذنك. فإني علمت أنك تغدر غدراً ومن البطن سميت عاصياً. هاأنذا قد نقّيتك وليس بفضة. اخترتك في كور المشقة. من أجل نفسي. من أجل نفسي أفعل لأنه كيف يدنس اسمي. وكرامتي لا أعطيها لآخر)[٣٦].

وبقوة هذا الغضب يعلن إلى الناجين الخلاص الأبدي بالشريعة الجديدة المكمّلة ما سبقها: (انصتوا إليّ يا شعبي ويا أمتي، اصغوا إليّ لأن شريعةً من عندي تخرج، وحقي أثبتُهُ نوراً للشعوب. قريب برّي. قد برز خلاصي، وذراعاي يقضيان للشعوب. إيّاي ترجو الجزائر وتنتظر ذراعي... ارفعوا إلى السموات عيونكم، وانظروا إلى الأرض من تحت؛ فإن السموات كالدخان تضمحلّ والأرض كالثوب تبلى، وسكانها كالبعوض يموتون. أما خلاصي فإلى الأبد يكون وبرّي لا ينقض. اسمعوا لي يا عارفي البر. الشعب الذي شريعتي في قلبه. لا تخافوا من تعيير الناس ومن شتائمهم لا ترتاعوا، لأنه كالثوب يأكلهم العث، وكالصوف يأكلهم السوس. أما برّي فإلى الأبد، وخلاصي إلى دور الأدوار)[٣٧].

إن دعوة ذلك المبشّر والهادي لتهيمن على الأرض كلها فما (أجمل على الجبال قدمي المبشّر المخبر بالسلام، المبشر بالخير المخبر بالخلاص.. هوذا عبدي يعقل يتعالى ويرتقي ويتسامى جداً.. من أجله يسدّ ملوك أفواههم لأنهم قد أبصروا ما لم يخبروا به، وما لم يسمعوه فهموه)[٣٨].

وتكاد البشارة التوراتية بمحمد ﷺ وبدينه الحق تعلن نفسها من خلال نسل ابن

(٣٦ - ٣٧ - ٣٨) إشعياء ٤٨، ٥١، ٥٢.

المستوحشة هاجر، وقد ذهب إبراهيم بها وبابنها اسماعيل إلى أرض مكة القفر الموحش آنذاك، وقد هجرت هاجر صبيّة وابنها رضيع.

وقد أهملت بل تعمدت التوراة إهمال ذكر هاجر وإسماعيل لتوهم أهلها أن ذلك يفقد اسماعيل أحقيته في البكورية وفي النبوة، ولكنها عادت إلى ذلك في إشارات ورموز بعد أن أخذ ظل الله ينحسر عن قوم إسرائيل ويتحول إلى فرع إسماعيل، وهو الفرع الذي أورق وامتد من مكة حتى ظلّل العالم كله (أشيدي بالترنّم أيتها التي لم تمخض لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل [سارة] قال الرب أوسعي مكان خيمتك، ولتبسط شقق مساكنك. لا تمسكي. أطيلي أطنابك وشددي أوتارك، لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار، ويرث نسلك أمماً ويعمر مدناً خربة. لا تخافي لأنك لا تخزين.ولا تخجلي لأنك لا تستحين. فإنك تنسين خِزي صباك، وعار ترّملك لا تذكرينه بعد. لأن بعلك هو صانعك رب الجنود اسمه ودليل قدوس إسرائيل إله كل الأرض يُدعى. لأنك كامرأةٍ مهجورة ومحزونة الروح دعاك الرب وكزوجة الصبا إذا رذلت قال إلهك: لحيظة تركتك وبمراحم عظيمة سأجمعك. بفيضان الغضب حجبت وجهي عنك لحظة، وبإحسان أبدي أرحمك، قال وليّك الرب لأنه كمياه نوح هذه لي. كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض، سكذا حلفتُ أن لا أغضب عليك ولا أزجرك. فإن الجبال تزول والآكام تتزعزع أما إحساني فلا يزول عنك، وعهد سلامي لا يتزعزع، قال راحمك الرب)[٣٩].

ويمضي الرب في تعـداد ما هيّأهُ لأمة محمد ﷺ وهو يطمئن هاجر ويعدها بالأمة المؤمنة البارة من ابنها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام (أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية، هاأنذا أبني بالإثمد حجارتك، وبالياقوت الأزرق أؤسسك... وأجعل شُرَفك ياقوتاً، وأبوابك حجارة بهرمانيّة، وكل تخومك حجارة كريمة، وكل بنيك تلاميذ الرب وسلام بنيك كثيراً. بالبر تثبتين بعيدةً عن الظلم، فلا تخافين، وعن الارتعاب فلا يدنو منك. ها إنهم يجتمعون اجتماعاً ليس من عندي. من اجتمع عليك فإليك يسقط.. كل آلة صورت ضدك لا تنجح. وكل لسان يقوم عليك في القضاء تحكمين عليه. هذا هو ميراث عبيد الرب وبرهم من عندي، يقول الرب)[٤٠].

أليست تلك صفات بني إسماعيل، ومنهم الأمة المسلمة الموحدة التي تندك عندها عروش الجبابرة، وتحنو لها جباه الطغاة؟ أليس من هذه الأمة البارة اخوتنا الذين يتصدون لإرهاب صهيون وأميركا وهم عُزْل من السلاح، أليس منهم اخوتنا مجاهدو الأفغان الذين يقاتلون

(٣٩ ـ ٤٠) إشعياء ٥٤، ٥٤.

فوق أرضهم قوى الشكّ والكفر المتمثّل في روسيا بما تقذفه في المعركة من سلاح وعتاد ونيران يتصدّى لها المؤمنون بإيمانهم الذي تنهزم أمامه قوى الإلحاد.

أليس من هذه الأمة البارة كذلك المقاتلون في جنوب لبنان وغيرهم وغيرهم. ولكن الله يدافع عن الذين آمنو ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (٤١)

إنّ صورة الرب الذي حسر الظل عن قوم إسرائيل هي صورة الله العزيز القوي الجبار كما نجدها في القرآن الكريم، وليس ذلك الرب الذي سخره قوم إسرائيل لنزواتهم وشيطانهم وعقوقهم، حين أنزلوه من عليائه إلى تيههم، ولكن حكم الله قد مضى في القوم، ونفذت فيهم كلمته. (اطلبواالرب ما دام يوجد. ادعوه وهو قريب. ليترك الشرير طريقه، ورجل الإثم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران. لأن أفكاري ليست أفكاركم، ولا طرقكم كطرقي يقول الرب. لأنه كما علت السموات عن الأرض، هكذا علت طرقي عن طرقكم، وأفكاري عن أفكاركم. لأنه كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى هناك، بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتنبت وتعطي زرعاً للزارع، وخبزاً للآكل، هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي لا ترجع إليّ فارغة بل تعمل ما سررت به وتنجح في ما أرسلتها له لأنكم بفرح تخرجون وبسلام تُحْضَرون) (٤٢).

وبعد هذا يأتي تأكيد الرب للخلاص الذي يعقب كل تقريع للقوم (هكذا قال الرب: احفظوا الحق وأجروا العدل، لأنه قريب مجيء خلاصي واستعلان بري. طوبى للإنسان الذي يعمل هذا ولابن الإنسان..) (٤٣).

ونمضي مع تقريع الرب القوم ليشفعه ببشرى الخلاص إلى التائبين عن المعصية من نسل يعقوب، وهؤلاء التائبون هم بعض تلك الأمة الموحدة العظيمة. أمّا العاصون المتمردون فقد كثرت آثامهم التي تفنّنوا فيها، لأن (أيديكم قد تنجّست بالدم وأصابعكم بالإثم. شفاهكم تكلمت بالكذب ولسانكم يلهج بالشر. ليس من يدعو بالعدل، وليس من يحاكم بالحق يتكلون على الباطل ويتكلمون بالكذب. قد حبلوا بتعب وولدوا إثماً. فقسوا بيض أفعى ونسجوا خيوط العنكبوت (٤٤) الآكل بيضهم يموت والتي تكسر تخرج أفعى. خيوطهم لا تصير ثوباً ولا يكتسون بأعمالهم. أعمالهم أعمال إثم وفعل الظلم في أيديهم. أرجلهم إلى الشر تجري وتسرع إلى سفك الدم الزكي، أفكارهم أفكار إثم. في طرقهم اغتصاب وسحق. طريق السلام لم يعرفوه وليس في مسالكهم عدل. جعلوا لأنفسهم سبلاً مُعوجّة. كل من يسير فيها

(٤١ الروم ٤٧.

(٤٢ و٤٣) إشعياء ٥٥ و٥٦.

(٤٤) (وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) العنكبوت ٤١.

لا يعرف سلاماً.

من أجل ذلك ابتعد الحق عنّا ولم يدركنا العدل. ننتظر نوراً فإذا ظلام. ضياء فنسير في ظلام دامس. نتلمس الحائط كعمي وكالذي بلا أعين نتجسس قد عثرنا في الظهر كما في العتمة. في الضباب كموتى. نزأر كلنا كدبة وكحمام. هدراً نهدر ننتظر عدلاً وليس هو وخلاصاً فيبتعد عنا. لأن معاصينا كثرت أمامك، وخطايانا تشهد علينا، لأن معاصينا معنا وآثامنا نعرفها. تعدينا كذبنا على الرب وحدْنا من وراء إلهنا... وقد ارتدّ الحق إلى الوراء، والعدل يقف بعيداً..)[٤٥].

وبعد هذا التخبط الذي وصل إليه القوم لم يَعُدْ لهم غير المخلص الذي ينقذ البشرية ممّا كانت فيه من ضلال واختلال للموازين، وتعلن البشرى إلى التائبين المختبرين بالمبشّر الهادي وبدينه الذي يبقى دين السماء والأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومع البشرى العظيمة (لا يسمع بعد ظلم في أرضك، ولا خراب أو سحق في تخومك. بل تسمين أسوارك خلاصاً وأبوابك تسبيحاً. لا تكون لك بعد الشمس نوراً في النهار، ولا القمر ينير لك مضيئاً، بل الرب يكون لك نوراً أبدياً وإلهك زينتك. لا تغيب بعد شمسك، وقمرك لا ينقص لأن الرب يكون لك نوراً أبدياً. وتكمل أيام نومك. وشعبك كلهم أبرار. إلى الأبد يرثون الأرض. غصن غرسي عمل يدي لأتمجد. الصغير يصير ألفاً، والحقير أمة قوية. أنا الرب في وقته أسرع به)[٤٦].

لقد كان إسماعيل بن إبراهيم هو من احتقره قوم إسرائيل، ولا يزالون ينظرون إلى أمة محمد أمة إسماعيل التي يناصبونها العداء الذي لا يفتر والعداء يعرف القوم مصدره الذي يعرفونه في توراتهم، إن إسماعيل هو من تحول إليه ظل إرث النبوة الأبدية التي محت نبوة فرع إسحق وحكمت باللعنة على نسله لأنهم أعداء الله وأعداء رسله وأنبيائه.

إنّ أم إسماعيل هي التي حكت عنها التوراة وقالت إنها التي ستصير أمّة قوية ترث الأرض بدينها الحق. وإسماعيل هو غرس يدي الرب ولا بد لهذا الغرس أن يؤتي أكله وثماره ويظلل الكون كله. لقد كان وعد الرب إبراهيم أن يجعل من ابن الجارية أيضاً أمة عظيمة لأنه[٤٧] نسل إبراهيم الموحّد. ولقد استقر عهد الرب في نسل إسماعيل الذي ارتفعت به راية التوحيد، وهي الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. (لأني أنا الرب محب العدل، مُبْغض المختلس بالظلم. وأجعل أجرتهم أمينة، وأقطع لهم عهداً أبدياً. ويعرف بين الأمم نسلهم وذريتهم في وسط الشعوب. كل الذين يرونهم يعرفونهم. إنهم نسل باركه الرب... فرحاً

(٤٥ و٤٦) إشعياء ٥٩، ٦٠. (٤٧) تكوين ٢١ : ١٣.

أفرح بالرب. تبتهج نفسي بإلهي لأنه قد ألبسني ثياب الخلاص)[٤٨].

وتعم البشرى أرجاء المعمورة، وتبتهج بها النفوس وتهنأ لها القلوب، وتستبشر المدن بخلاصها، وفي طليعتها أرض فلسطين وعينها القدس. أما حراس هذه الأرض التي قدسها الرب وباركها فهم الموحدون المسبّحون آناء الليل وآناء النهار ﴿**يسبحون الليل والنهار لا يفترون**﴾[٤٩]. فعلى (أسوارك يا أورشليم أقمتُ حراساً لا يسكنون كل النهار وكل الليل على الدوام. يا ذاكري الرب لا تسكتوا ولا تدعوه يسكت حتى يثبت ويجعل أورشليم تسبيحة في الأرض. حلف الرب بيمينه وبذراع عزته قائلا: إني لا أدفع بعد قمحك مأكلاً لأعدائك، ولا يشرب بنو الغرباء خمرك التي تعبت فيها. بل يأكله الذين جنوه ويسبحون الرب. ويشربه جامعوه في ديار قدسي)[٥٠].

لقد حلف الرب، وشهد الزمان، وأكد التاريخ أن الأمم الضالة الجاحدة ربها قد غزت أرض فلسطين، وبقيت فيها ما بقيت ولكنها في النهاية طردت كلها، وبقيت فلسطين وبقي اهلها. ولن تشذ عن قاعدة الغزاة غزاة اليوم أعداء الله والإنسانية صهيون وربها أميركا ومن كفر، وهي في النهاية ـ تطبيقاً لتوراتهم في المقام الأول، وما أكّده القرآن الكريم ـ ملعونة مطرودة من أرض الله فلسطين وإن استقرت فيها عشرات السنين.

ويأتي المسبّحون المهيئون طريق الرب لمخلصهم، الذي يزهق الباطل ويدحر الأصنام ويذل أعداء الله والأديان والرسل والأنبياء (اعبروا اعبروا بالأبواب. هيئوا طريق الشعب، أعدوا أعدوا السبيل نقوه من الحجارة. ارفعوا الراية للشعب. هوذا الرب قد أخبر إلى أقصى الأرض. قولوا لابنة صهيون هوذا مخلصك آت. ها أجرته معه وجزاؤه أمامه. ويسمونهم شعباً مقدساً مفديي الرب)[٥١].

وللمخلص المنتظر صفاته التي لا تخفى على مؤمن موحِّد، ولقد أرسل إلى البشرية كافة بمن فيهم التائبون من قوم إسرائيل، ومن هؤلاء من انقلبوا على مخلصهم العربي الإسماعيلي، وأظهروا له من العداوة أضعاف ما أظهروه لأنبيائهم ورسلهم مجتمعين.

لقد كان المخلص الإسماعيلي يتيماً فقيراً وحيداً يصارع الكفر في عشيرته وفي قومه أولاً، ثم كان من ألد أعداء دينه اليهود، الذين جاهروا له بالعداوة، فحق للنبي المخلص قتلهم وقد حكّمه الله فيهم وأمضى لعنته عليهم ولعنة الأنبياء والرسل والملائكة والناس أجمعين، ذلك لأنهم عرفوا محمداً في توراتهم، وقد قالت فيه (هذا البهيّ بملابسه، المتعظم بكثرة قوته. أنا المتكلم بالبر العظيم للخلاص لأن يوم النقمة في قلبي. وسنة مفديّي قد أتت. فنظرت ولم يكن

---

(٤٨) إشعياء ٦١. (٤٩) الأنبياء ٢٠. (٥٠ ـ ٥١) إشعياء ٦٢، ٦٢، ٦٥.

معين وتحيّرت إذ لم يكن عاضد. فخلصَتْ لي ذراعي وغيظي عضدني. فدست شعوباً بغضبي وأسكرتهم بغيظي... ها قد كُتب أمامي، لا أسكت بل أجازي. أجازي في حضنهم آثامكم وآثام آبائكم هكذا قال الرب.

أما أنتم الذين تركوا الرب نسوا جبل قدسي.. فإني أعييكم للسيف وتجثون كلكم للذبح لأني دعوت فلم تجيبوا. تكلمتُ فلم تسمعوا، بل عملتم الشر في عيني واخترتم ما لم أُسرَّ به. لذلك - هكذا قال السيد الرب - هؤلاء يأكلون وأنتم تجوعون. هوذا عبيدي يشربون وأنتم تعطشون. هوذا عبيدي يفرحون وأنتم تحزنون. هوذا عبيدي يترنمون من طيبة القلب وأنتم تصرخون من كآبة القلب ومن انكسار-الروح تولولون وتخلّفون اسمكم لعنة لمختاريّ فيميتك السيد الرب ويسمّي عبيده إسماً آخر)[٥٢] **﴿أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾**[٥٣].

أما صفة عبيد الله من الأمة الموحدة فهم قائمون بأنفسهم، لأن الإيمان زادهم ولأن خالقهم هو المدافع عنهم، ولا يعتمدون على سواه، وهو ناصرهم حين ينصرونه، وهو مجيبهم حين يدعونه، هم أمته التي اختارها لتكون خير أمة أخرجت للناس (لأني هاأنذا خالق سماوات جديدة وأرضاً جديدة. فلا تذكر الأولى ولا تخطر على بال، بل افرحوا وابتهجوا إلى الأبد في ما أنا خالق. لأني هاأنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحاً. فأبتهج بأورشليم وأفرح لشعبي، ولا يسمع بعد فيها صوت بكاء ولا صوت صراخ... يبنون بيوتاً ويسكنون فيها ويغرسون كروماً ويأكلون أثمارها، ولا يبنون وآخر ليسكن، ولا يغرسون وآخر يأكل. لأنه كأيام شجرة أيام شعبي ويستعمل مختاريّ عمل أيديهم. لا يتبعون باطلاً ولا يلدون للرعب، لأنهم نسل مباركي الرب وذريتهم معهم. ويكون أني قبلما يدعون أنا أجيب وفيما هم يتكلمون بعد أنا أسمع)[٥٤].

الأمة الموحِّدة تبني وتسكن فيما بنت، وتغرس وتأكل غرسها، وهي في هذا تختلف عن صورة القوم الذين كفروا، فإن أولئك كما وصفتهم التوراة قد جاؤوا إلى أرض مسكونة لم يعمّروها وإلى ثمر لم يغرسوه، ذلك لأنهم لا يقومون إلاّ بغيرهم ولا يأكلون إلاّ مما يغتصبونه من سواهم، ذلك هو شأنهم في تاريخهم الطويل.

ولا يترك الرب للقوم فرصة للتوبة إلاّ ويأمرهم بها، مع ما في علم الغيب من عدم إيمان تلك الفئة، وأرسل إليهم الأنبياء الكثيرين لاستيفاء تلك الفرص (وقد أرسل الرب إليكم

---

(٥٢) إشعياء ٦٥. (٥٣) النساء ٥٢. (٥٤) إشعياء ٦٥.

كل عبيده الأنبياء مبكراً ومرسلاً فلم تسمعوا لم تميلوا أذنكم للسمع)[55]. ويخاطبهم الرب فيقول لهم: (إن لم تسمعوا لي لتسلكوا في شريعتي التي جعلتها أمامكم لتسمعوا لكلام عبيدي الأنبياء الذين أرسلتهم أنا إليكم مبكراً ومرسلاً إياهم فلم تسمعوا، أجعل هذه المدينة لعنة لكل شعوب الأرض)[56].

وبعد هذه اللعنة يعلن نبيهم إرميا البشرى العظيمة التي تصف صاحبها المرسل من الله يقول إرميا: (إن الأنبياء الذين كانوا قبلي وقبلك منذ القديم وتنبأوا على أراض كثيرة وعلى ممالك عظيمة بالحرب والشر والوباء. النبي الذي تنبأ بالسلام فعند حصول كلمة النبي عرف ذلك النبي أن الرب قد أرسله حقاً)[57].

بعد هذه البشرى يصبح قوم إسرائيل في ميزانها الفئة الملعونة التي جعلها الرب عاراً بين الأمم وخزياً بعد أن يسومهم ألوان العذاب الدنيوي هاأنذا أرسل عليهم السيف والجوع والوباء وأجعلهم كتين رديء لا يؤكل من الرداءة، وألحقهم بالسيف والجوع والوباء. وأجعلهم قلقاً لكل ممالك الأرض حلفاً ودهشاً وصفيراً وعاراً في جميع الأمم الذين طردتهم إليهم. من أجل أنهم لم يسمعوا لكلامي يقول الرب إذ أرسلت إليهم عبيدي الأنبياء مبكراً ومرسلاً ولم تسمعوا؛ يقول الرب)[58].

إن عود إسحاق لم يثمر غير الشوك والعلقم، فكانوا خزي الأمم وعارها الذي لا يتركها (وأجعل عليكم عاراً أبدياً وخزياً لا يُنسى)[59]. وينحسر عنهم ظل الرب الذي تحول إلى سواهم، وبعد ذلك أدرك القوم أن ذلك لا رجعة فيه من الرب الذي سخروه لنزواتهم، فقد أغلقت دونهم السماء، وحجبت عنهم مغفرة الرب ورحمته، فعادوا إلى ما تعودوه في تاريخهم الطويل، فإن الرجوع إلى الرب لم يكن إلاّ بعد غضبه عليهم ولعنته، وتعودوا أن يغفر الرب لهم عقوقهم، وهم بعد انحسار الظل عنهم يجأرون (لنرفع قلوبنا وأيدينا إلى الله في السموات. نحن أذنبنا وعصينا. أنت لم تغفر. التحفْتَ بالغضب وطردتَنا. قتلْتَ ولم تشفق. التحفْت بالسحاب حتى لا تنفذ الصلاة. جعلتنا وسخاً وكرهاً في وسط الشعوب. فتح كل أعدائنا أفواههم علينا. صار علينا خوف ورعب وهلاك وسحق)[60].

ولعل غضب الرب ذلك كان دون ما فعله القوم وارتكبوه من آثام. أما الغضب وعذابه فلم يُصَبْ به قوم آخرون غير قوم إسرائيل، ونقرأ الغضب في التوراة حيث يقول الرب:

(كانت قتلى السيف خيراً من قتلى الجوع. لأن هؤلاء يذوبون مطعونين لعدم أثمار الحقل. أيادي النساء الحنائن طبخت أولادهن. صاروا طعاماً لهن. في سحق بنت شعبي أتم

(٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧ ـ ٥٨ ـ ٥٩) إرميا ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٤٣. (٦٠) مراثي إرميا ٣ : ٤١.

الرب غيظه. سكب حمو غضبه وأشعل ناراً في صهيون فأكلت أسسها. من أجل خطايا أنبيائها وآثام كهنتها السافكين في وسط دم الصديقين تاهوا كعمي في الشوارع، وتلطخوا بالدم، حتى لم يستطع أحد أن يمسَّ ملابسهم. حيدوا؛ نجس ينادون إليهم. حيدوا حيدوا لا تمسوا. إ هربوا تاهوا أيضاً. قالوا بين الأمم إنهم لا يعودون يسكنون. وجه الرب قسمهم. لا يعود ينظر إليهم. لم يرفعوا وجوه الكهنة ولم يترأفوا على الشيوخ. أما نحن فقد كلَّت أعيننا من النظر إلى عوننا الباطل. في برجنا انتظرنا أمةً لا تخلِّص. نصبوا فخاخاً لخطواتنا حتى لا نمشي في ساحاتنا. قربت نهايتنا. كملت أيامنا لأن نهايتنا قد أتت. صار طاردونا أخفّ من نور السماء. على الجبال جَـدّوا في أثرنا. في البرية كمنوا لنا)[٦١].

ولا يعود الرب يستمع إليهم، فقد مدّ لهم حبل الغفران مدّاً وصلوا إلى نهايته، وتجاوزوه عصياناً وكفراً ومروقاً، وأغلقت دونهم السماء، فباتوا يلحّون على الرب ولا مجيب (أنت يا رب.. لماذا تنسانا إلى الأبد وتتركنا طوال الأيام. اردِدنا إليك يا رب فنرتد. جدّدْ أيامنا كالقديم. هل كل الرفض رفضْتنا. هل غضبْتَ علينا جداً)[٦٢].

لقد بات طريق الخلاص مهيأً، وبات انبثاق نور المبشر الهادي وشيكاً في عالم تراكمت فيه خطايا أهله وآثامهم ورذائلهم، وتساوى في الكفر القوم الذين أرسلوا برسالة السماء المكتوبة مع الأقوام التي كفرت وتمادت في كفرها، وباتوا جميعاً بعضهم من بعض، وحتى هذه الأقوام، فلو أرسل إليها ما أرسل إلى قوم إسرائيل من أنبياء كثيرين لاستجابوا لهم. أما قوم إسرائيل فلا يستجيبون.

يقول الرب للنبي حزقيال: (يا ابن آدم، اذهب امض إلى بيت إسرائيل وكلمهم بكلامي، لأنك غير مرسل إلى شعب غامض اللغة وثقيل اللسان بل إلى بيت إسرائيل، لا إلى شعوب كثيرة غامضة اللغة وثقيلة اللسان لست تفهم كلامهم. فلو أرسلتك إلى هؤلاء لسمعوا لك. لكن بيت إسرائيل لا يشاء أن يسمع. لأنهم لا يشاؤون أن يسمعوا لي لأن كل بيت إسرائيل صلاب الجباه وقساة القلوب)[٦٣].

وماذا تجدي شفاعات حزقيال لقومه عند ربه؟

لقد أعلن الرب للقوم في إحدى مراحل حياتهم أنه لن يقبل في القوم الشفاعة، ولو كان الشافع لهم موسى وصموئيل، ذلك لأن عذابه قد مضى في حياتهم، فهم سيضحون عار الأمم ولعنتها، وهم في النهاية إلى الإبادة والتشتت والوباء والجوع، وإن كل تجمع لهم إنْ هو إلاّ بداية التشتت الجديد كما تحكي توراتهم. ولعلّ في رغبتهم المسعورة بتجميع يهود العالم في

(٦١، ٦٢) مراثي إرميا ٤، ٥. (٦٣) حزقيال ٣ : ٤ ـ ٨.

أرضنا فلسطين فأل خير ونور أمل للقضاء عليهم وتشتيت من تكتب له النجاة من سيوف لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، وتبديدهم بين الأمم كما حكم الرب عليهم.

(هكذا قال السيد الرب. هذه أورشليم في وسط الشعوب قد أقمتها وحواليها الأراضي. فخالفت أحكامي بأشرّ من الأمم، وفرائضي بأشر من الأراضي التي حواليها. لأن أحكامي رفضوها، وفرائضي لم يسلكوا فيها. لأجل ذلك - هكذا قال السيد الرب - من أجل أنكم ضججتم أكثر من الأمم التي حواليكم، ولم تسلكوا في فرائضي، ولم تعملوا حسب أحكامي، ولا عملتم حسب أحكام الأمم التي حواليكم. لذلك هكذا قال السيد الرب. ها إني أنا أيضاً عليك وسأجري في وسطك أحكاماً أمام عيون الأمم، وأفعل بك ما لم أفعل وما لن افعل مثله بعد بسبب كل أرجاسك. لأجل ذلك تأكل الآباء الأبناء في وسطك. والأبناء يأكلون آباءهم. وأجري فيك أحكاماً، وأذري بقيتك كلها في كل ريح. من أجل ذلك حيٌّ أنا يقول السيد الرب - من أجل أنك قد نجّسْت مقدسي بكل مكرهاتك، وبكل أرجاسك، فأنا أيضاً أجزي ولا تشفق عيني، وأنا أيضاً لا أعفو. ثلثك يموت بالوباء وبالجوع، يفنون في وسط:. وثلث يسقط بالسيف من حولك، وثلث أذريه في كل ريح، وأستل سيفاً وراءهم. وإذا تمّ غضبي واحللْتُ سخطي عليهم وتشفيت يعلمون أني أنا الرب تكلمت في غيرتي إذا أتممت سخطي فيهم. وأجعلك خراباً وعاراً بين الأمم التي حواليك أمام عيني كل عابر. فتكونين عاراً ولعنة وتأديباً ودهشاً للأمم التي حواليك)[٦٤].

لم يبق شك في انتهاء الدور الذي أوكل إليهم البدء به، وكانت النهاية مسطورة في علم الغيب، ولكنها تعني بداية الدور الآخر الأبدي، دور دين التوحيد الذي يرفع أهله رايته في كل درب، وفوق كل هامة، إنه دين محمد الحق الذي خلقت له البشرية وأرسل فيها الأنبياء والرسل مسلمين يهيئون الطريق لكمال دين الله على الأرض بمحمد ﷺ. وبدينه اكتمل البناء العظيم لتوحيد الله على الأرض وعبادته وتسبيحه آناء الليل والنهار.

وإن عيسى ابن مريم عليه السلام لخير الداعين إلى دين الإسلام، وخير المبشّرين برسول العالمين الذي بشّرت به التوراة والإنجيل. ولقد أُرسل عيسى من قوم إسرائيل إليهم، وجاء بآيات بيّنات ومعجزات تثبت آية التوحيد الذي لا شبهة فيه، وتؤكد للقوم دور عيسى ورسالته على الأرض في إرساء دعائم الوحدانية التي سيأتي بها خاتم الأنبياء ويذل بها الشرك ويحطم بها الأصنام، إنها حرب الإيمان للكفر حرباً لا هوادة فيها ولا مهادنة.

وجاء عيسى وحواريّوه مسلمين يعلنون الإسلام دين الحق، ويشهدون على ذلك (ورسولاً

---

(٦٤) حزقيال ٣:٥.

إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله... ومصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّمَ عليكم وجئتُكم بآيةٍ من ربكم فاتّقوا الله وأطيعوه. إنّ الله ربي وربُّكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم). فلمّا أحسَّ عيسى منهم الكفر، قال من أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصار الله آمنّا بالله واْشهدْ بأنّا مسلمون. **﴿ربّنا آمنَّا بما أنزلْتَ واتَّبعْنا الرسولَ فاكتُبْنا مع الشاهدين﴾** [٦٥].

لقد كان عهد عيسى عليه السلام بالنبوة قصيراً ولكنه كان كافياً لتهيئة النفوس، وتجديد القلوب إلى دين الإسلام، ورد عيسى على القوم كل شرك أشركوه، وحين جعلوا منه ثالث ثلاثة، وأعلن إليهم مهمته التي أُرسل لأجلها **﴿وإذا قال عيسى ابنُ مريمَ يا بني إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومُبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُهُ أحمد﴾** [٦٦].

وذكرت التوراة هذا المبشر بأحمد في آخر أسفارها وهو سفر ملاخي، بل في آخر آيات السفر ورمزت إليه بإيليا الذي يهيء الطريق قبل مجيء يوم الرب العظيم، وذلك ـ فيما أعتقد ـ ينفي أيّ حديث عن الذي ذكرته الأناجيل، ولا يكاد القارىء فيها يجزم بشخصية إيليا الذي تبقى شخصيته مجهولة فيها، ولكن التوراة قد جزمت حين ساقت إيليا في موقف لم يعرف إلاّ في عيسى عليه السلام، وهو الداعي إلى الإسلام دين محمد المرسل به. وسأصل إلى ذلك فيما بعد إن شاء الله.

وأعود إلى حيث ينتهي دور القوم في النبوة وفي الرسالة، حيث يقول حزقيال (وكان إليّ كلام الرب قائلا: وأنتَ يا ابنَ آدم هكذا قال السيد الرب: لأرض إسرائيل نهاية. قد جاءت النهاية على زوايا الأرض الأربع. الآن النهاية عليك وأرسل غضبي عليك، وأحكم عليك كطرقك وأجلب عليك كل رجاساتك. فلا تشفق عليك عيني ولا أعفو، بل أجلب عليك طرقك، وتكون رجاساتك في وسطك فتعلمون أني أنا الرب.

هكذا قال السيد الرب.. نهاية قد جاءت. جاءت النهاية. انتبهتْ إليك. ها هي قد جاءت. انتهى الدور إليك أيّها الساكن في الأرض. بلغ الوقت. اقترب يوم اضطراب لا هتاف الجبال) [٦٧].

وتزهر البشارة من بين غضب الرب على القوم وتزهر العصا، وتدور الدائرة أي تكتمل، وإن في ختم دين السماء بمحمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء والمرسلين ما يشير بوضوح إلى

---

(٦٥) آل عمران ٤٩، ٥٣. (٦٦) الصف ٦. (٦٧) حزقيال ٧.

استدارة الخاتم الذي لا يكتمل إلاّ بهذه الاستدارة المغلقة، ففيه من الدائرة استكمال استدارتها، وفيه من البناء العظيم اكتمال بنائه، وكان محمد ﷺ هو آخر المرسلين والأنبياء، وهو خاتم بناة هذا الدين الموحد الواحد.

(ها هوذا اليوم. ها هوذا قد جاء. دارت الدائرة. أزهرت العصا أفرخت الكبرياء. قام الظلم إلى عصا الشر. لا يبقي منهم ولا من ثروتهم ولا من ضجيجهم ولا نوح عليهم. قد جاء الوقت بلغ اليوم. فلا يفرحَنّ الشاري، ولا يحزننّ البائع، لأن الغضب على كل جمهورهم. لأن البائع لن يعود إلى المبيع وإن كانوا بعد بين الأحياء. لأن الرؤيا على كل جمهورها فلا يعود. والإنسان بإثمه لا يشدّد حياته. قد نفخوا في البوق وأعدّوا الكل ولا ذاهب إلى القتال لأن غضبي على كل جمهورهم)[٦٨].

لن تقبل عند الرب شفاعة حزقيال لقومه، وليس من شفاعة تُرجى ولو كانت شفاعة نوح ودانيال وأيوب، إذ لا شفاعة إلاّ لمؤمن: (يا ابن آدم إنْ أخطأت إليّ أرض، وخانت خيانة، فمددتُ يدي عليها وكسرتُ لها قوام الخبز، وأرسلتُ عليها الجوع وقطعت منها الإنسان والحيوان، وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة نوح ودانيال وأيوب، فإنهم إنما يخلصون لأنفسهم ببرّهم يقول السيد الرب. إن عبرتُ في الأرض وحوشاً رديئة فأثكلوها وصارت خراباً بلا عابر بسبب الوحوش، وفي وسطها هؤلاء الرجال الثلاثة، فحيٌّ أنا، يقول السيد الرب. إنهم لا يخلصون بنين ولا بنات، هم وحدهم يخلصون والأرض تصير خربة. أو إن جلبتُ سيفاً على تلك الأرض، وقلتُ يا سيف اعبر الأرض، وقطعت منها الإنسان والحيوان، وفي وسطها هؤلاء الرجال الثلاثة، فحيٌّ أنا، يقول السيد الرب، إنهم لا يخلصون بنين ولا بنات بل هم وحدهم يخلصون. أو إن أرسلتُ وباءً على تلك الأرض، وسكبت غضبي عليها بالدم لأقطع منها الإنسان والحيوان، وفي وسطها نوح ودانيال وأيوب، فحيٌّ أنا، يقول السيد الرب، إنهم لا يخلصون ابناً ولا ابنة، إنما يخلصون أنفسهم ببرّهم)[٦٩].

وتعلن البشارة التوراتية نفسها، وتزداد هذه وضوحاً من خلال الصورة التي تكاد تنطق بالدين الحق وبخاتم المرسلين، وبتلك الأمة الموحدة المرتقبة التي كانت تجيش في صدر البشرية منذ وجدت إرهاصات استقرت في النهاية في أعظم عملية مخاض. وباتت هذه الإرهاصات أحلاماً مزعجة يراها الكفار الجبابرة في نومهم، وكلها نذر ويلٍ لهم، ولكنها تعلن ولادة جديدة تعيد إلى العالم موازينه التي طال اضطرابها واختلالها.

لقد حلم الملك الكلداني بنوخذ نصّر أحلاماً مزعجة انزعجت لها روحه وطيّرت النوم

(٦٨ - ٦٩) حزقيال ٧، ١٤ و ١٣ - ٢٠.

عنه، فاستدعى الملك المجوس والسحرة والعرّافين والكلدانيين ليفسّروا له الحلم. وتوعّدهم بالقتل إذا هم عجزوا عن تفسيره... وتم فيهم القتل بسبب عجزهم.

وجاء النبي دانيال إلى الملك ليفسّر له الحلم بعد أن كشف الرب الحلم وتفسيره لدانيال، وطلب الملك منه أن يعرفه على الحلم وتعبيره، فأجاب دانيال قدام الملك وقال: السر الذي طلبه الملك لا تقدر الحكماء ولا السحرة ولا المجوس ولا المنجمون على أن يبينوه للملك. لكن يوجد إله في السموات كاشف الأسرار. وقد عرف الملك نبوخذ نصر ما يكون في الأيام الأخيرة. حلمك ورؤيا رأسك على فراشك هو هذا أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم. هذا التمثال العظيم البهي جداً وقف قبالتك ومنظره هائل. رأس هذا التمثال من ذهب جيد. صدره وذراعاه من فضة. بطنه وفخذاه من نحاس. ساقاه من حديد. قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف. كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين. فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما. فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً وصارت كعصافة البيدر في الصيف، فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان. أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً، وملأ الأرض كلها. هذا هو الحلم. فنخبر بتعبيره قدام الملك.

أنت أيها الملك ملك ملوك، لأنّ إله السموات أعطاك مملكة واقتداراً وسلطاناً وفخراً. وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلّطكَ عليها جميعها. فأنت هذا الرأس من ذهب. وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك، ومملكة ثالثة أخرى من نحاس، فتتسلّط على كل الأرض. وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد، لأن الحديد يدمّر ويسحق كل شيء. وكالحديد الذي يكسّر تسحق وتكسر كل هؤلاء. ربما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف الفخار والبعض من حديد، فالمملكة تكون منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف. فبعض المملكة يكون قوياً والبعض ضعيفاً. وبما رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس، ولكن لا يتلاصق هذا بذاك، كما ان الحديد لا يختلط بالخزف. وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لا تنقرض أبداً، وملكها لا يترك لشعب آخر. وتسحق وتُفْني كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد. لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب، الله العظيم قد عرّف الملك ما سيأتي بعد هذا الحلم حق وتعبيره يقين)[٧٠].

---

(٧٠) دانيال ٢.

وتتوالى رؤى دانيال التي تدور حول الدولة الجديدة والأمة المسلمة الموحدة، وكلها تتمثل في صور تزداد وضوحاً رغم كونها رموزاً تفصح عن النبي الجديد خاتم الأنبياء والرسل، وتعلن دينه العظيم الذي يعلو كل دين، وله تدين الأمم والشعوب. وكلها رؤى يراها دانيال وكأنها فلق الصبح ـ يقول دانيال:

كنت أرى في رؤياي ليلاً وإذا بأربع رياح السماء هجمت على البحر الكبير. وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة. هذا مخالف ذاك الأول كالأسد وله جناحا نسر. وكنت أنظر حتى انتَتَفَ جناحاه وانتصب على الأرض، وأوقف على رجليه كإنسان، وأعطي قلب إنسان. وإذا بحيوان آخر ثان شبيه بالدب فارتفع على جنب واحد، وفي فمه ثلاث أضلع بين أسنانه، فقالوا له هكذا: قم كل لحماً كثيراً. وبعد هذا كنت أرى وإذا بآخر مثل النمر وله على ظهره أربعة أجنحة طائر. وكان للحيوان أربعة رؤوس وأعطي سلطاناً. بعد هذا كنت أرى في رؤى الليل وإذا بحيوان رابع هائل وقوي وشديد جداً وله أسنان من حديد كبيرة. أكل وسحق وداس الباقي برجليه. وكان مخالفاً لكل الحيوانات الذين قبله وله عشرة قرون. كنت متأملاً بالقرون وإذا بقرن آخر صغير طلع بينها وقلعت ثلاثة من القرون الأولى من قدامه. وإذا بعيون كعيون الإنسان في هذا القرن وفم متكلم بعظائم. كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام. لباسه أبيض كالثلج، وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة. نهر نار جرى وخرج من قدامه. ألوف ألوف تخدمه، وربوات ربوات وقوف قدامه. فجلس الدين وفتحت الأسفار. كنت أنظر حينئذ من أجل صوت الكلمات العظيمة التي تكلم بها القرن. كنت أرى إلى أن قتل الحيوان وهلك جسمه ودفع لوقيد النار. أما باقي الحيوانات فنزع عنهم سلطانهم ولكن أعطوا طول حياة إلى زمان ووقت[٧١].

ويتضح لدنيال تعبير الرؤيا وتفسير الأمور، أفزعه ما رأى: (أما أنا دانيال فحزنت روحي في وسط جسمي، وافزعتني رؤى رأسي. فاقتربت إلى واحد من الوقوف وطلبت منه الحقيقة في كل هذا وعرفني تفسير الأمور.

هؤلاء الحيوانات العظيمة التي هي أربعة هي أربعة ملوك يقومون على الأرض. أما قديسو العلي فيأخذون المملكة ويمتلكون المملكة إلى الأبد وإلى أبد الآبدين حينئذ رِمْتُ الحقيقة من جهة الحيوان الرابع الذي كان مخالفاً لكلها، وهائلاً جداً، وأسنانه من حديد وأظفاره من نحاس. وقد أكل وسحق وداس الباقي برجليه. وعن القرون العشرة التي برأسه، وعن الآخر الذي طلع فسقطت قدامه ثلاثة. وهذا القرن له عيون وفم متكلم بعظائم، ومنظره

---

(٧١) دانيال ٧.

أشد من رفقائه. وكنت أنظر وإذا هذا القرن يحارب القدّيسين فغلبهم. حتى جاء القديم الأيام وأعطى الدين لقدّيسي العلي. وبلغ الوقت فامتلك القديسون المملكة.

أما الحيوان الرابع فتكون مملكة رابعة على الأرض مخالفة لسائر الممالك فتأكل الأرض كلها وتدوسها وتسحقها والقرون العشرة من هذه المملكة هي عشرة ملوك يقومون ويقوم بعدهم آخر وهو مخالف الأولين، ويذل ثلاثة ملوك ويتكلم بكلام ضدّ العلي ويبلي قديسي العلي ويظن أنه يغير الأوقات والسُّنَّة ويسلّمون ليده إلى زمان وأزمنة ونصف زمان. فيجلس الدين وينزعون عنه سلطانه ليفنوا ويبيدوا إلى المنتهى. والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قدّيسي العلي. ملكوته ملكوت أبدي. وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون. إلى هنا نهاية الأمر) [٧٢].

كل الأمر والنهي بيد مملكة القديسين، وهي الملكوت الأبدي ولها يطيع السلاطين ويخضعون وهي ختام الممالك على الأرض وزمانها أبدي إلى أبد الآبدين. تلك هي دولة الإسلام التي بشرت بها كتب السماء، ولأجلها خلقت البشرية.

ولقد تحدث القسيس الذي أسلم البروفسور ديفيد كلداني وتسمّى بعد إسلامه عبد الأحد داوود عن هذه الرؤيا فقال: (إن المجاهد العظيم الذي دمر القرن الحادي عشر والذي كان يمثل قسطنطين وكنيسة التثليث. لم يكن ابن الله ولكنه ابن الإنسان. وهذا لم يكن غير محمد المصطفى الذي أسس وأقام مملكة الله على الأرض. هذه مملكة الله التي علينا الآن أن نفحصها ونشرحها لا بد أن نتذكر عندها أنه عند مثول سيد الأنبياء بين يدي الله - كما ورد في سفر دانيال صدر الوعد الإلهي التالي:

(إن ملكوت الله وعظمة المملكة الممتدة تحت رقعة السماء كلها سوف تعطى لعباد الله تعالى وأوليائه. وسيكون ملكوتهم هذا مملكة أبدية تخدمها جميع الممالك الأخرى وتعمل بطاعتها) [٧٣].

وإن التعابير التنبؤية في هذه الرسالة لتؤكد أن ملكوت الله سوف يتكون من (عباد الله تعالى وأوليائه) وجميع الممالك أو القوى الأخرى سوف تخدمهم وتطيعهم، وهي تدل بوضوح على أن في الإسلام وحدة لا انفصام لها بين الدين والدولة. فالإسلام ليس دين الله وحسب، ولكنه أيضاً مملكته الدنيوية أو امبراطوريته [٧٤].

وتترى البشارة بين يدي النبي دانيال في رؤاه، وهي بشارة موقوتة بـ بقات آت وباق إلى

(٧٢ - ٧٣) دانيال ٧، ٧ : ٢٢ و٢٧.

(٧٤) محمد في الكتاب المقدس - البروفسور ديفيد بنجامين كلداني (عبد الأحد داوود) ١٣٣، ١٣٤.

يوم المنتهى، ولم تترك هذه لدانيال شكاً في ذلك الهادي العظيم الذي استعدت له البشرية وتهيأتْ له الأكوان ولدينه (وكان لما رأيت أنا دانيال الرؤيا وطلبت المعنى إذا بشبه إنسان واقف قبالتي، وسمعت صوت إنسان بين أولاي وقال: يا جبرائيل فهّم هذا الرجل الرؤيا. فجاء إلى حيث وقفتُ، ولما جاء خفتُ وخررتُ على وجهي. فقال لي: افهمْ يا ابن آدم. إن الرّؤيا لوقت المنتهى) [٧٥].

لم يعد يجدي أن يتضرّع دانيال إلى ربه أو أن يشفع لقومه، فقد قُضِيَ الأمر فيهم، وحقّتْ عليهم لعنة الله والرسل والناس أجمعين وباتت رؤاه بيوم البشارة الآتي حقاً يلازمه. يقول دانيال: (وبينما أنا أتكلم وأصلي وأعترف بخطيّتي وخطية شعبي إسرائيل، وأطرح تضرّعي أمام الرب إلهي عن جعل قدس إلهي، وأنا متكلم بعد بالصلاة، إذا بالرجل جبرائيل الذي رأيته في الرؤيا في الابتداء... لمسني عند وقت تقدمة المساء وفهّمني وتكلم معي وقال: يا دانيال إني خرجت الآن لأعلمك الفهم. في ابتداء تضرعاتك خرج الأمر وأنا جئت لأخبرك لأنك أنت محبوب، فتأمل الكلام وافهم الرؤيا. سبعون أسبوعاً قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الإثم بالبرّ الأبديّ ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القدوسين) [٧٦].

ويقف أولئك القوم الذين كفروا من أصحاب البشارة موقف العداء والكيد والمحاربة ولكنهم يعثرون أمامهم وينهزمون أمام إيمانهم الذي فضّلهم الله به على العالمين، واختارهم به إلى يوم الدين. وهذا يجسّد أمامنا تاريخ بني إسرائيل العدائي الكيدي لأمة محمد ﷺ منذ بعث رسول البشرية الهادي (وبنو العتاة من شعبك يقومون لإثبات الرؤيا ويعثرون) ولكن (بعض الفاهمين يعثرون امتحاناً لهم للتطهير وللتّبييض إلى وقت النهاية، لأنه بعد إلى الميعاد) [٧٧].

ويختم سفر دانيال بل يطوى بختام مناجاته الرب وتشفّعه لقومه الذين لم تقبل فيهم شفاعة، وأما الفئة القليلة التي نجت فتنال الحياة الأبدية بإيمانها فحسب، وانضوائها تحت لواء التوحيد وتشرف بالإسلام إن هي حسن إسلامها وبلاؤها في سبيل إعلاء راية الإسلام.

وفي ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون زمان ضيق، لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت. وفي ذلك الوقت يُنَجّى شعبُك كلُ من يوجد مكتوباً في السفر. وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية. وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد. والذين ردوا كثيرين

(٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧) دانيال ٨ : ١٦ ـ ١٧ و٩ :٢٠ ـ ٢٤ و١١ :٥ ـ ١٤ .

إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور. أما أنت يا دانيال فأخْفِ الكلام، واختم السفر إلى وقت النهاية. كثيرون يتصفّحونه والمعرفة تزداد. فنظرتُ أنا دانيال وإذا باثنين آخرين قد وقفا. واحد من هنا على شاطىء النهر وآخر من هناك على شاطىء النهر. وقال للرجل اللابس الكتان الذي من فوق مياه النهر: إلى متى انتهاء العجائب؟. فسمعت الرجل اللابس الكتان الذي من فوق مياه النهر إذ رفع يمناه ويسراه نحو السموات وحلف بالحي إلى الأبد أنه إلى زمان وزمانين ونصف. فإذا تم تفريق أيدي الشعب المقدس تتم كل هذه.

وأنا سمعتُ وما فهمت. فقلت يا سيدي، ما هي آخر هذه؟ فقال: اذهب يا دانيال لأن الكلمات مخفية ومختومة إلى وقت النهاية. كثيرون يتطهرون ويبيَّضون ويمحَّصون. أما الأشرار فيفعلون شراً ولا يفهم أحد الأشرار. لكن الفاهمين يفهمون... أما أنت فاذهب إلى النهاية فتستريح وتقوم لقرعتك في نهاية الأيّام) (٧٨).

وتمضي في القوم لعنات ولعنات من الرب، ومع تعاظم اللعنات تطل البشرى على الملأ، من كل ركن من أركان المعمورة، من بلاد العرب، من أرض الجلجال القدس، من أرض كلدان العراق وهكذا، فقد طغى على الأرض المقدسة شرّ إسرائيل، وعلى الأرض أن تُطَهَّر منهم بيد قوية بالإيمان العظيم الذي لا تشوبه شائبة، وأمّا قوم إسرائيل الذين ستطهَّرُ الأرض منهم فإن (كل شرهم في الجلجال. إني هناك أبغضتهم، من أجل سوء أفعالهم أطردهم من بيتي. لا أعود أحبهم. جميع رؤسائهم متمردون. أصلهم قد جفّ. لا يصنعون ثمراً. وإن ولدوا أميتُ مُشتهيات بطونهم. يرفضهم إلهي. لأنهم لم يسمعوا له فيكونون تائهين بين الأمم) (٧٩).

الأصل الذي جفّ لا يعود إلى الإزهار، فجفافه يعني موته ليزهر أصل آخر جديد مختلف، أما الذي جف فليس له إلاّ الإحراق كما يحرق الحطب الذي لا يعود له أصل ولا فرع ولا أثر. يقول الرب لنبيه حزقيال عن هذا الأصل الذي لا بد أنْ ينتهي إلى النار مأكلاً لها: (يا آدم ماذا يكون عود الكرم فوق كل عود أو فوق القضيب الذي من شجر الوعر؟ هل يؤخذ منه عود لاصطناع عمل مّا؟ أو يأخذون منه وتداً ليعلّق عليه إناءٌما؟. هوذا يُطرح أكلاً للنار. تأكل النار طرفيه ويُحرق وسطه. فهل يصلح لعمل؟. هوذا حين كان صحيحاً لم يكن يصلح لعمل ما. فكم بالحريّ لا يصلح بعد لعمل إذ أكلته النار فاحترق.

لذلك هكذا قال السيد الرب مثل عود الكرم بين عيدان الوعر التي بذلتها أكلاً للنار، كذلك أبذل سكان أورشليم. وأجعل وجهي ضدهم. يخرجون من نار فتأكلهم نار. فتعلمون

(٧٨) دانيال ١٢:٥ ـ ٣.
(٧٩) هوشع ٩:١٥ ـ ١٧.

أني أنا الرب حين أجعل وجهي ضدّهم. وأجعل الأرض خراباً لأنهم خانوا خيانة يقول السيد الرب) [٨٠].

لذلك فإن زلزلة الكفر ستبدأ في أرض فلسطين كما تحكي التوراة حين تنتفض البشارة ويعلن صاحبها الحرب على الكفر والشرك، وعلى فلسطين أن تهيّأ لذلك الحدث: (اضربوا بالبوق في صهيون، صوّتوا في جبل قدسي. ليرتعد سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب. يوم ظلام وقتام. يوم غيم وضباب مثل الفجر ممتداً على الجبال. شعب كثير وقويّ لم يكن نظيره منذ الأزل. ولا يكون أيضاً بعده إلى سني دورٍ فدور. قدّامه نار تأكل، وخلفه لهيب يحـرق الأرض، قدامه كجنة عدن، وخلفه قفر خرب ولا تكون من نجاة. كمنظر الخيل منظره، ومثل الأفراس يركضون، كصريف المركبات على رؤوس الجبال يثبون. كزفير لهيب نار تأكل قشاً. كقوم أقوياء مصطفين للقتال. منه ترتعد الشعوب... يجرون كأبطال. يصعدون السور كرجال الحرب ويمشون كل واحد في طريقه ولا يغيرون سبلهم ولا يزاحم بعضهم بعضاً... إن عسكره كثير جداً) [٨١].

تلك صورة أصحاب محمد كما عرفها العالم والتاريخ، وهي الصورة التي وصفهم بها القرآن الكريم وأكد ما جاء في التوراة والإنجيل عنهم. يقول سبحانه وتعالى **﴿محمدٌ رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً. سِيماهُم في وجوههم من أثرِ السجود ذلك مثلهُم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شَطْأَهُ فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار. وَعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾** [٨٢].

وبعد كل وقفة توراتية أمام دين الحق يعود الرب ليدعو قوم إسرائيل إلى الإيمان والبر، فلعل منهم من يكون نواة الأمة المسلمة الموحدة الآتية مع الأيام خالدة إلى يوم الحساب (يقول الرب ارجعوا إليّ بكل قلوبكم بالصوم والبكاء والنوح. ومزقوا قلوبكم لاثيابكم، وارجعوا إلى الرب إلهكم. ويكون كل من يدعو باسم الرب ينجو) [٨٣].

وسيغربل الرب قوم إسرائيل فلا تسقط منهم حبة إلاّ بخلاص الإيمان والتوحيد، فإن الناجين هم بعض أمة التوحيد التي تنفي عنهم أصلهم الأول فلا يعودون بقايا بيت يعقوب وإنما مسلمون، وإن الإسلام هو دين الأنبياء والرسل جميعاً، وبه أرسلوا إلى البشرية، وهو وصية إبراهيم إلى بنيه، ووصية يعقوب إلى بنيه، ومنهم قوم إسرائيل.

لقد أعلن الربّ إلى الأنبياء سرّ الدين الخالد (لأن السيد الرب لا يصنع أمراً إلاّ وهو

---

(٨٠) حزقيال ١٥: ١ ـ ٨. (٨١) يوئيل ٢: ١ ـ ٨. (٨٢) الفتح ٢٩. (٨٣) يوئيل ٢: ١٥، ٣٢.

يعلن سره لعبيده الأنبياء)[٨٤] . وأكدت توراة القوم إبادة الرب لهم إلاّ الناجين منهم بخلاص الإيمان (غير أني لا ابيد بيت يعقوب تماماً يقول الرب لأنه هاأنذا آمر فأغربل بيت إسرائيل بين جميع الأمم كما يغربل في الغربال. وحبة لا تقع إلى الأرض. بالسيف يموت كل خاطئي الشعب القائلين لا يقترب الشر ولا يأتي بيننا... ها أيام تأتي ـ يقول الرب ـ يدرك الحارث الحاصد ودائس العنَب باذر الزرع. وتقطر الجبال عصيراً وتسيل جميع التلال)[٨٥] .

(ولا يعود يزرع من اسمك في ما بعد) يا يعقوب. هكذا كان كلام الرب فإن العود الأخضر قد جفّ ويبس واحترق بالنار و (ويلٌ للقائل للعود استيقظ وللحجر الأصم انتبه)[٨٦]. وأوحى الرب إلى نبيه حبقّوق أن (اكتبْ الرؤيا وانقشها على الألواح لكي يركض قارئها، لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد. وفي النهاية تتكلم ولا تكذب. إن توانت فانتظرها لأنها ستأتي إتياناً آخر ولا تتأخر)[٨٧]

ويشتد تحفّز البشرية لاستقبال يوم الخلاص، ويقوى تلهّف أنبياء قوم إسرائيل وشوقهم إليه. وفي انتظار ذلك اليوم يمضي حبقّوق في تسبيح ربه ومناجاته لتعجيل يوم الهدى (الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران. جلاله غطّى السموات والأرض. امتلأت من تسبيحه. وكان لمعان كالنور له من يده شعاع. وهناك استتار قدرته، قدامه ذهب الوباء. وعند رجليه خرجت الحمى. وقف وقاس الأرض. نظر فرجف الأمم ودُكّتْ الجبال الدهرية وخُسفتْ آكام القدم. مسالك الأزل له)[٨٨] .

وأذهلت صرخة الخلاص العقول وحيّرتْ الألباب، فهي صرخة تغلغلت في أعماق القلوب ونخرت في العظام واجتثت منها ما فسد، فهي قد (خرجت.. وسحقت رأس بيت الشرير معرياً الأساس حتى العنق. سمعت فارتعدت أحشائي من الصوت. رجفت شفتاي دخل النخر في عظامي. وارتعدت في مكاني لأستريح في يوم الضيق عند صعود الشعب الذي يزحمنا. فمع أنه لا يزهر التين ولا يكون حمل في الكروم، يكذب عمل الزيتونة والحقول لا تصنع طعاماً. ينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر في المذاود. فإني أبتهج بالرب وأفرح بإله خلاصي)[٨٩] .

وانتظر كل نبي من أنبياء القوم مخلص البشرية، وتمنى كل واحد أن يأتي المخلص في زمانه، ويتهيأ لاستقباله بإيمانه وبره إلى الرب، وأما القوم فمع قوة انتظارهم للمخلص كان كفرهم به حين جاء، لأنه جاء على خلاف ما تمنوه وأمّلوه وأبت قلوبهم التي فاقت قسوتها

---

(٨٤) عاموس ٣ :٧ . (٨٥) عاموس ٩ .

(٨٦ ـ ٨٧ ـ ٨٨ ـ ٨٩) حبقوق ٢ :١٩ و٢ :٢ و٣ :٢ ـ ٦ و٣ :١٣ ـ ١٨ .

الحجارة أن يؤمنوا بالهادي المبشر الذي عرفوه في توراتهم اسما وصفات، ومضوا في غيّهم وتمادوا في عنادهم حين أبوا تصديق الرب لهم بانتهاء النبوة فيهم لتنتقل إلى الفرع الإبراهيمي في ابنه إسماعيل البكر، وهم إلى يومنا هذا لا يزالون ينتظرون المخلّص الذي يريدونه من قوم اسرائيل.

وأين قوم إسرائيل بعد حكم الرب عليهم بالفناء والتبَدّد والمذلّة؟ إنهم بلا شك ماضون في ضلالهم الذي كتب الرب عليهم. ولينتظروا مخلصهم وليمضوا في مكرهم وفي كيدهم لأمة الإسلام، ولكن حكم الله ماضٍ فيهم. وحكمه في أمة محمد الانتصار إلى الأبد. ولو انتصر القوم في غفلة من الزمن فإنه البرق الذي يمضي بلا أثر (لذلك فانتظروني ـ يقول الرب ـ إلى يوم أقوم إلى السلب لأن حكمي هو بجمع الأمم وحشر الممالك لأصبّ عليهم سخطي. كل حمو غضبي. لأنه بنار غيرتي تؤكل كل الأرض. لأني حينئذ أحوّل الشعوب إلى شفة نقية ليدعوا كلهم باسم الرب ليعبدوه بكتف واحدة)[٩٠].

الأمة المرتقبة التي بشّرتْ بها التوراة هي الأمة المسلمة التي يتساوى أبناؤها أمام الله بالإيمان والتقوى ويعبدونه بكتف واحدة، ورسول البشرية فيها محمد بن عبد الله ﷺ العربي الإسماعيلي، ولقد أرسل ليبشرَ بهذا النبي العربي الأمي عيسى ابن مريم، وأرسل من قوم إسرائيل إليهم، ولم يؤمنوا به بل ما وجدوا فيه المخلص المنتظر، لأنهم لم يروا فيه الصفات التي ذكرتها توراتهم عن المخلص للبشرية جمعاء.. وبُعث محمدﷺ، وكان كفر القوم به أكبر من كفرهم بمن سبقه من أنبياء ورسل، ومصدر كفرهم به أنه من توافرت فيه صفات التوراة، وتحققت فيه البشرى التي حاولوا طمسها، ولكنها نور الله الذي أبى الله إلا أن يتمه ولو كرهوا، وشاب كفرَهم حسد وحقد قالوا فيه منذ ذلك الوقت، ويقولون في كل وقت إن حقدهم لا يعود إلى أيام أحمد فحسب، ولكنه يعود إلى إسماعيل الذي رأوا فيه البكر الإبراهيمي الذي كرمه الله في التوراة وجعل منه خاتم النبيّين وخاتم الرسالات.

ولا بدّ لإيمان المؤمن الكامل أن ينضوي تحت لوا دين محمد ﷺ، وإن إيمان المؤمن لا يكتمل إلاّ بالإيمان بمحمد رسولاً ونبياً وهادياً ومبشراً ونذيراً إلى البشرية جمعاء. فهل آمن قوم إسرائيل؟ لم يؤمنوا ولم يعد لهم بعد قضاء الله فيهم من يؤمن، ولا بد حكم الله ماضٍ فيهم في حياتهم وتاريخهم مهما حاول الجبابرة مدّهم بأسباب القوة المادية التي تتهاوى أمام سيف الإيمان يطيح بمعاقل الكفر والضلال والجبروت والفسق. وبسيوف أهل الله تبتهج أرض فلسطين المهيأة لنور الله منذ الأزل وإلى الأبد. ففي ذلك (اليوم يقال لأورشليم لا تخافي يا

---

(٩٠) صفنيا ٣: ٨ ـ ٩.

صهيون. لا ترتخي يداك. الرب إلهك في وسطك جبار. يخلص يبتهج بك فرحاً. يسكت في محبته. يبتهج بك بترنم. أجمع المحزونين على الموسم.. هاأنذا في ذلك اليوم أعامل كل مذلّليك وأخلص الظالعة وأجمع المنفية وأجعلهم تسبيحة واسماً في كل أرض خزيهم) [٩١].

وإن أمة التوحيد التي يشرق نورها في أرض فلسطين ستعيد بناء بيت الله الذي يعبد فيه، ويسبح له فيه بالغدو والآصال، ومنه يرتفع صوت الله المتمثل في أذانه، وبهذا البيت الجديد تندثر كل معالم البيت القديم الذي طلب الرب من القوم بناءه ليعبدوه فيه بإخلاص، ولكن ذلك البيت أو الهيكل قد أصبح وكراً للصوص والفسق والكفر، وكان تقريع أنبيائهم وعلى رأسهم عيسى عليهم السلام لهم شديداً لاتخاذهم بيت الرب مكاناً لكفرهم وتجارتهم وملذّاتهم. فحكم الرب على هذا البيت أن ينقض حجراً حجراً، ولا تقوم له بعد قائمة، رغم محاولات اعادة بنائه، ولكن الله إذ قضى أمراً فإنما هو القضاء المبين ولا راد لقضائه.

(قال رب الجنود: هي مرة بعد قليل فأزلزل السموات والأرض والبحر واليابسة، وأزلزل كل الأمم ويأتي مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجدا. قال رب الجنود... مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول ـ قال رب الجنود. وفي هذا المكان أعطي السلام ـ يقول رب الجنود) [٩٢].

إن البشرى التوراتية لتنبثق من بين يدي الرب التي تزلزل السموات والأرض فينتج عنها أنصار الرب الذين هيأهم منذ الأزل لعبادته وتسبيحه. يقول الرب: (إني أزلزل السموات والأرض وأقلب كرسي الممالك وأبيد قوة ممالك الأمم وأقلب المركبات والراكبين فيها وينحطّ الخيل وراكبوها كل منها بسيف أخيه. في ذلك اليوم يقول رب الجنود: آخذك يا زربّابل عبدي... يقول الرب وأجعلك كخاتَم لأني قد اخترتك يقول رب الجنود) [٩٣].

إنها رؤى ورؤى يراها الأنبياء في صور عدّة، وفي رموز مختلفة، وكلها تحمل في ثناياها العلامات البيّنات على صاحب البشرى. وإحدى هذه الرؤى ما رآه النبي زكريا بن برخيا، لقد رأى رجلاً راكباً على فرس أحمر (بين الآس الذي في الظل، وخلفه خيل حمر وشقر وشهب. فقلتَ: يا سيدي ما هؤلاء؟ فقال لي الملاك الذي كلمني: أنا أريك ما هؤلاء. فأجاب الرجل الواقف بين الآس وقال: هؤلاء هم الذين أرسلهم الرب للجولان في الأرض) [٩٤].

إنهم جنود الله الذين يسبحونه وينصرونه ويعلون رايته في الأرض كلها، ويجاهدون في

---

(٩١) صفنيا ٣: ١٤. (٩٢ و٩٣) حجي ٢: ٦ ـ ٨ و٢٢ ـ ٢٣.
(٩٤) زكريا ١: ٧ ـ ١٠.

سبيله لنصرة دينه. هم أهل العمائم الطاهرة الذين أرادهم الله أن يكونوا ألسنة صدق وحق وهداية وإرشاد.

يقول زكريا في رؤياه: (وأراني يهوشع الكاهن العظيم قائماً قدام ملاك الرب، والشيطان قائم عن يمينه ليقاومه. فقال الرب للشيطان: لينتهرك الرب يا شيطان. لينتهرك الرب الذي اختار أورشليم.... وكان يهوشع لابساً ثياباً قذرة وواقفاً قدام الملاك. فأجاب وكلم الواقفين قدامه قائلا: انزعوا عنه الثياب القذرة. وقال له: انظر. قد أذهبْتُ عنك إثمك وألبسك ثيابا مزخرفة. فقلت ليضعوا على رأسه عمامة طاهرة. فوضعوا على رأسه العمامة الطاهرة وألبسوه ثياباً - وملاك الرب واقف. فأشهد ملاك الرب على يهوشع قائلا: هكذا رب الجنود، إن سلكت في طرقي وإن حفظت شعائري فأنت أيضاً تدين بيتي، وتحافظ أيضاً على دياري، وأعطيك مسالك بين هؤلاء الواقفين فاسمع يا يهوشع الكاهن العظيم أنت ورفقاؤك الجالسون أمامك لأنهم رجال آية. لأني هاأنذا آتي بعبدي الغصن. فهوذا الحجر الذي وضعته قدّام يهوشع على حجر واحد سبع أعين. هاأنذا ناقش نقشة - يقول رب الجنود - وأزيل إثم تلك الأرض في يوم واحد... هكذا قال رب الجنود قائلا: هوذا الرجل الغصن اسمه ومن مكانه ينبت ويبني هيكل الرب. فهو يبني هيكل الرب وهو يحمل الجلال)[٩٥].

الغصن اسمه الذي اخضر بعد يبس وأورق وأزهر ونبت من مكانه في أرض مكة الحرام، ومن هناك بنى هيكل الرب في قدس فلسطين، وفي ذلك إشارة واضحة إلى ارتباط بيت الله الحرام في مكة بالأقصى في القدس في رحلة إسرائه ﷺ، ولقد أُسري به من أرضه إلى الأقصى وصلى في النبيين إماماً وكان عليهم شاهداً فيما أدوه من رسالة على الأرض، وجاء هو ليكملها وليضع للبناء العظيم حجر الزاوية التي اكتمل به بناء دين الله على الأرض وبهذه الرحلة ابتهجت القدس برافع الراية التوحيدية فوقها، ولتضحي هي الأرض المباركة بل التي تجددت مباركتها. وتجدد عهد التوحيد لها بتشريف الرسول ﷺ لها.

لقد كان قوم إسرائيل هم من بُدئت بهم النبوة، وذلك يلقي على كواهل المؤمنين الموحدين منهم تهيئة الدرب، وتسوية الأرض التي يشاد عليها بناء دين الله على الأرض، ولكن القوم لم يرتقوا إلى مستوى هذه المهمة العظيمة والرسالة المقدسة التي هُيِّئوا لتبليغها، فانحطَّتْ بهم قساوة قلوبهم، وغلاظة رقابهم وإصرارهم على الضلال والكفر، فكان عليهم من ابتلاءات الله الكثير، ومن عذابه ما قضى عليهم وغربلهم وأبقى على الفئة القليلة منهم، لأنها بقيت على شيء من الإيمان، ولكن (يكون في كل الأرض - يقول الرب - أن ثلثين

---

(٩٥) زكريا ٦ :١٢.

منها يقطعان ويموتان، والثلث يبقى فيها. وأُدخل الثلث في النار وأمْحصُهم كمحص الفضة وأمتحنهم امتحان الذهب. هو يدعو باسمي وأنا أجيبه. أقول هو شعبي وهو يقول الرب الهي) [٩٦].

إن الموحدين هم شعب الله، وإن المسبّحين العابدين هم جنود الله على الأرض - أولئك الذين شعارهم (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله). وذلك هو فداؤهم ودعوتهم وتسبيحهم، فالله ربّهم وهم جنوده، وقد عُبِّد طريقهم بأنبياء الله ورسله وبكتبه السماوية، يقول رب الجنود في التوراة (هاأنذا أرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي ويأتي بغتةً إلى هيكله السيّد الذي تُسَرّون بـه هوذا يأتي - قال رب الجنود. ومن يحتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره. لأنه مثل نار الممحّص ومثل أشنان القصّار. فيجلس ممحّصاً ومنقّياً للفضة) [٩٧].

أما من اجتاز التحميص والتدقيق والاختبار، وعُدّوا من المتّقين من القوم فهؤلاء (يكونون لي كما قال رب الجنود في اليوم الذي أنا صانع وأشفق عليهم كما يشفق الإنسان على ابنه يخدمه فتعودون وتميِّزون بين الصدِّيق والشرير، بين من يعبد الله ومن لا يعبده. فهوذا يأتي اليوم المتقد كالتنور وكل المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشاً ويحرقهم اليوم الآتي - قال رب الجنود - فلا يبقي لهم أصلاً ولا فرعاً... ولكم أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها وتدوسون الأشرار لأنهم يكونون رماداً تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا قال رب الجنود) [٩٨].

ويوم الخلاص العظيم آت في ميعاد مسطور في علم الكتاب، وإلى أن يأتي ميعاده فإن الرب سيرسل إلى القوم ومن بين هؤلاء القوم من يعلنها صريحة مدوية بلا ألغاز وبلا غموض، إنها البشارة بمحمد ﷺ، ويرسل بها عيسى ابن مريم أو إيليا إلى قوم إسرائيل أنفسهم وقد حاولوا طمس البشارة أو تحريفها في كتابهم، وأصرّوا على تحديهم للمخلّص المرتقب الذي سيرسل لخلاص البشرية كافة (وما أرسلناك إلاّ كافةً للناس بشيراً ونذيراً) سبأ ٢٨ وإن في هذا المخلص ما يشفع للبشريّة من لعنات الرب وضرباته بعد أن غرقت كلها في حمأة الضلال والشرك رغم كثرة عدد من ارسل إليهم من أنبياء ورسل.

ولقد التبس أمر إيليا على الكثيريـن وبخاصة في الأناجيل، حيث جعلوا منه نبياً منفصلا عن عيسى. وأمّا التوراة فقد ذكرته في آخر سفر من أسفار التوراة وفي آخر آية منه وجعلته المبشر بيوم الرب العظيم المخوف.

ولعل سر تناقض روايات الأناجيل حول تحديد شخصية إيليا ما نسب إلى المسيح عليه

---

(٩٦) زكريا ٦:٩

(٩٧ و٩٨) ملاخي ٣ و٤.

السلام في ذلك. إذ يُروى أنه أعلن أن يوحنّا المعمدان كان تجسّداً للنبي إيليا[٩٩] بينما قال يوحنا للوفد اليهودي إنه لم يكن إيليا ولا ذلك النبي[١٠٠].

ومع ذلك فلا أرى في حديث المسيح غموضاً حين أقصده في نطاق إيليا التوراتي، وهو المسيح نفسه، فإن يوحنا كما يقول المسيح هو تجسد لإيليا أي تجسدٌ للمسيح نفسه، فكما أن إيليا (المسيح) جاء ليبشرّ بمحمد ﷺ، فإن يوحنا جاء بالمهمة نفسها، وهي مهمة التبشير بعيسى وتمهيد الطريق له ليسهل عليه إعلان البشارة في قوم إسرائيل حتى يتقبلها عناد قلوبهم وإصرارهم على رفض كل مخلص لا يأتي من نبي إسرائيل، ويبقى الفرق بسيطاً بين إيليا التوراتي (المسيح) وبين إيليا (يوحنا)، وهو أن المسيح جاء ليبشر بخاتم الأنبياء المرتقب، وأمّا يوحنا فبشّر بعيسى الذي يعاصره زمناً ويضاهيه سناً وإلاّ فبم نفسّر قول عيسى إن يوحنا هو إيليا؟ ويرد يوحنا فيقول (أنا لست إيليا). إلاّ من قبيل إطلاق اسم إيليا صفة لمبشرين، ولكن أحدهما هو عيسى المبشر بمحمد ﷺ، وثانيهما هو يوحنا المبشّر بعيسى والداعي إلى تقبّل دعوته والتسليم ببشارته إلى خير الخلق، فكلاهما بشّرا بمحمد، ولكن يوحنا جاء مبشّراً بالمبشر بمحمد، والمسيح هو المسلم المبشر بالإسلام وبرسول الإسلام /﴿ **فلما أحسّ عيسى منهم الكفر قال مَنْ أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصار الله آمنّا واشهدْ بأنّا مسلمون** ﴾[١٠١].

لم يبق لدي القوم شك في أنّ المخلّص العربي الإسماعيلي آتٍ، وهم إن لم يؤمنوا به إيماناً مطلقاً ليكتمل به إيمانهم فلن يُبقيَ الله منهم الأصل ولا الفرع. وتمت فيهم مشيئة الله تعالى ﴿ **أولئك جزاؤُهم أنّ عليهم لعنة الله والملائكةِ والناسِ أجمعين خالدين فيها لا يخفّفُ عنهم العذابُ ولا هم يُنْظَرون** ﴾[١٠٢].

صدق الله العظيم

---

(٩٩) متّى ١١ :١٤ و١٧ :١٢ ولوقا ١ :١٧.

(١٠٠) يوحنّا ١. (١٠١) آل عمران ٥٢. (١٠٢) آل عمران ٨٧، ٨٨.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم﴾

المائدة ٧٨

لقد كانت البشارة بمحمد ﷺ هي أمانة الله تعالى إلى عبيده الأنبياء والرسل، وقد بدأت هذه العلامات المحمدية إشارات ولمحات تارة وإعلاناً بها تارة أخرى. ولقد أشار داوود عليه السلام إلى علامات هذه البشارة في مزاميره التي خلا بها إلى ربه عبادة وتعبداً واستغفاراً وتوبةً وترقباً للخلاص مما تعيشه البشرية على وجه العموم، ومما كان عليه قومه غلاظ الرقاب على وجه الخصوص.

وإن العلامات البيّنات التي أومأ داوود إليها لتستقيم مع ما كان عليه قومه، فإن طبيعتهم آنئذٍ لم تكن لتقبل الإعلان بالبشارة في عهودهم الأولى، التي كان على أنبيائهم فيها أن يمحوا من نفوس القوم آثار المذلة والجبن الذي جبلوا عليه في حياتهم، حتى تكون تلك النفوس مستعدة لتقبل الأمانة التي لا يقدرون على حملها مع تلك الطبيعة الغريبة فيهم، ولكن حملها وتبليغها لا يتأتّيان إلاّ لمن أوتي الإيمان العظيم بالخالق سبحانه والقوة النفسية واليقين المطلق بنصرة الله.

ولم يكن القوم على مثلِ ذلك أو شيء منه، وكان حالهم مع داوود من العناد والضلال والشرك ما كان لهم مع موسى من قبل، بل إن غلاظة رقابهم قد بلغت حدها مع داوود، مما حمله على ما حمل أنبياءهم من قبل ومن بعد من صب اللعنة والغضب عليهم، فكان فيهم قوله سبحانه **﴿لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** [1]. وقد اتّضحتْ في مزامير داوود طريق الله التي أعلن عنها، وتقابل هذه الطريق طريق الشيطان الذي كان درب القوم في تاريخهم الطويل، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. أمّا طريق الله فأهلها يحيون المسرة الدائمة.

(وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً فيكون كشجرة مغروسة عند مجاري المياه التي تعطي ثمرها في أوانه. وورقها لا يذبل، وكل ما يصنعه ينجح... ليس كذلك الأشرار، لكنهم كالعصافة التي تذريها الريح. لذلك لا تقوم الأشرار في الدين، ولا الخطاة في جماعة الأبرار

---

(١) المائدة ٧٨

لأن الرب يعلم طريق الأبرار . أما طريق الأشرار فتهلك)[٢] .

وأعلن داوود البشارة أو أشار إليها ، وقد أرسل داوود نبياً على طريق الوصيّة التي أوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ، وهي الوصية التي لا تحتمل غير معناها الذي جاءت به **﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بَنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾**[٣]

وقال داوود للقوم (إني أخبر من جهة قضاء الرب قال لي أنت ابني. أنا اليوم ولدتُكَ. اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك، وأقاصي الأرض ملكاً لك، تحطمهم بقضيب من حديد. مثل إناء خزف تكسرهم)[٤] ولا يخفي داوود فرحه بالمخلص الآتي وإن كان يتمنى أن يكون الخلاص من بيت إسرائيل كما أمَّلَ القوم جميعهم (ليت من صهيون خلاص اسرائيل. عند رد الرب سبي شعبه يهتف يعقوب ويفرح إسرائيل)[٥] .

ويلوح داوود بعلامات المخلص وأصحابه وهم من سيملكون الأرض ويطهرونْ الكون كله من رجس الشرك والوثن (يا رب من ينزل في مسكنك، من يسكن في جبل قدسك السالك بالكمال والعامل الحق، والمتكلم بالصدق في قلبه، الذي لا يشي بلسانه، ولا يصنع شراً بصاحبه. ولا يحمل تعييراً على قريبه، والرذيل محتقر في عينيه ويكرم خائفي الرب.. فضتّه لا يعطيها بالربا، ولا يأخذ الرشوة على البريء. الذي يصنع هذا لا يتزعزع إلى الدهر)[٦] .

ويؤكد داوود على ورثة جبل الربّ في أرض فلسطين، إذ لا إرث إلاّ للأمة البارّة الطاهرة اليد، النقية القلب. فالأرض لله يرثها عباده الصالحون (للرب الأرض وملؤها. المسكونة وكل الساكنين فيها.. من يصعد إلى جبل الرب ومن يقوم في موضع قدسه. الطاهر اليدين، النقي القلب الذي لم يحمل نفسه إلى الباطل ولا حلف كذباً. يحمل بركة من عند الرب وبرّاً من إله خلاصه)[٧] .

وإن الأمة التي كتب الله لها منذ الأزل أن تكون أمة الله هي المتسلّحة بإيمانها ، والمتوّجة بتقواها ، وبهذا وحده يكون خلاصها وبرّها (طوبى للأمة التي الرب إلهها. الشعب الذي اختاره ميراثاً لنفسه من السموات. نظر الرب، رأى جميع البشر، من مكان سكناه، تطلع إلى جميع سكان الأرض، المصور قلوبهم جميعاً، المنتبه إلى كل أعمالهم. لن يخلص الملك بكثرة الجيش. الجبار لا ينقذ بعظم القوة. باطل هو الفرس لأجل الخلاص. وبشدة قوته لا ينجي هوذا عين الرب على خائفيه الراجين رحمته)[٨] .

---

(٢) المزمور الأول. (٤) المزمور ٢ . (٦) المزمور ١٥ . (٨) المزمور ٣٣ .
(٣) البقرة ١٣٢ (٥) المزمور ١٤ (٧) المزمور ٢٤ .

فالجبار لا ينقذ بعظم القوة، ولن تغني عنه قوته وفرسه من الله شيئاً، كما لم تغنِ عن القوم حصونهم، وفيهم ذكر الله تعالى حالهم فقال (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهلِ الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مـانعتهم حصونُهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار) [٩].

وأنّى للقوم أن يعتبروا وهم ما هم من أولي الأبصار، ومضوا يتسلحون بجديد أمريكا البغي، ويتحصّنون بحصونها التي لا تغني عنهم من غضب الله وسخطه شيئاً، وإن طال أمدهم فوق أرض الطهر والإيمان والإسراء والمعراج. وإن الله غني عن قوة الطغاة، وعن جبروت الجبابرة، (وطوبى للرجل المتوكل عليه. اتقوا الرب يا قديسيه لأنه ليس عوز لمتقيه. الأشبال احتاجت وجاعت. وأما طالبو الرب فلا يعوزهم شيء من الخير) [١٠].

وأنعم الله تعالى على خائفيه حب الحياة الآخرة، والموت في سبيله، وهي نعمة لم ينعمها الله على غير أمة التوحيد التي عزت بحب الموت والشهادة، وإن كثر أعداؤها والمتربصون بها والكائدون لها.

(هلمّ أيها البنون استمعوا إليّ فأعلمكم مخافة الرب. من هو الإنسان الذي يهوى الحياة ويحب كثرة الأيام ليرى خيراً.. عينا الرب نحو الصديقين وأذناه إلى صراخهم. وجه الرب ضدّ عاملي الشر ليقطع من الأرض ذكرهم. أولئك صرخوا والرب سمع ومن كل شدائدهم أنقذهم. قريب هو الرب من منكسري القلوب ويخلص المنسحقي الروح. كثيرة هي بلايا الصديق، ومن جميعها ينجيه الرب.. الشر يميث الشرير، ومبغضو الصديق يعاقبون. الرب فادي نفوس عبيده وكل من اتكل عليه لا يعاقب) [١١].

﴿ومن يتّقِ الله يجعلّ له مخرجاً ويرزقْهُ من حيث لا يحتسب ومن يتوكلْ على الله فهو حسبُهُ﴾ [١٢]. وذلك هو إيمان المؤمن ويقينه الذي لا يتزعزع برحمة الله واصطفائه لأمته، أمة الإسلام والتوحيد، وإن داوود في أمة الإسلام مسلم على وصيّة إبراهيم، وهو واحد في أمة محمد التي بشر بها وارتقبها خلاصاً للأمم (أحمدك في الجماعة الكثيرة في شعب عظيم أسبحك. لا يشمت بي الذين هم أعدائي باطلاً ولا يتغامز. بالعين الذين يبغضونني بلا سبب. لأنهم لا يتكلمون بالسلام وعلى الهادئين في الأرض يتفكرون بكلام مكر. فغـروا عليّ أفواههم.. نأمة معصية الشرير في داخل قلبي أن ليس خوف الله أمام عينيه... كلام فمه إثم وغش. كف

(٩) الحشر ٢.
(١٠) المزمور ٣٤: ٧
(١١) المزمور ٣٤: ١١ - ٢٢
(١٢) الطلاق ٢.

عن التعقّل عن عمل الخير. يتفكر بالإثم على مضجعه. يقف في طريق غير صالح لا يرفض الشر)[١٣].

والأشرار مثل الحشيش سريعاً ما يقطعون، ومثل العشب يذبلـون، أمـا المتـوكلـون على الرب فهم الفائزون. إذ (لا تَغَرْ من الأشرار، ولا تحسدْ عمال الإثم. فإنهم مثل الحشيش سريعاً يقطعون. ومثل العشب الأخضر يذبلون. اتكلْ على الرب وافعْل الخير. اسكن الأرض وارعَ الأمانة. وتلذذ بالرب فيعطيك سؤال قلبك. سلم للرب طريقك واتكلْ عليه وهو يُجري. ويخرج مثل النور برك وحقك مثل الظهيرة... كف عن الغضب واترك السخط ولا تغْر لفعل الشر، لأن عاملي الشر يُقطعون، والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض. بعد قليل لا يكون الشرير. أما الودعاء فيرثون الأرض ويتلذذون في كثرة السلامة. الشرير يتفكّر ضد الصديق، ويحرق عليه أسنانه، الرب يضحك به لأنه رأى أن يومه آت. الأشرار قد سلوا السيف ومدوا قوسهم لرمي المسكين والفقير لقتل المستقيم طريقهم. سَيْفُهُم يدخل في قلبهم وقسيّهمْ تنكسر)[١٤].

إن ثروة المؤمن إيمانه، وهي خير ثروة يرثون بها النبوة إلى الأبد (القليل الذي للصديق خير من ثروة أشرار كثيرين. لأن سواعد الأشرار تنكسر، وعاضد الصديقين الرب. الربّ عارف أيام الكملة وميراثهم إلى الأبد يكون. لا يُخْزون في زمن السوء وفي أيام الجوع يشبعون. لأن الأشرار يهلكون وأعداء الرب كبهاء المراعي. فنوا كالدخان فنوا. الشرير يستقرض ولا يفي، أما الصديق فيترأف ويعطي، لأن المباركين منه يرثون الأرض والملعونين منه يُقْطَعون... حد عن الشر وافعل الخير واسكن إلى الأبد، لأن الرب يحب الحق ولا يتخلى عن أتقيائه. إلى الأبد يُحفظون. أما نسل الأشرار فينقطع. الصديقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد. فم الصديق يلهج بالحكمة ولسانه ينطق بالحق، شريعة إلهه في قلبه. لا تتقلقل خطواته. الشرير يراقب الصديق محاولاً أن يميته. الرب لا يتركه في يده ولا يحكم عليه عند محاكمته. انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض. إلى انقراض الأشرار تنظر)[١٥]

ويتحدث داوود عليه السلام بمثل هذه الرموز التي أدار حولها مزاميره، فهو يرى بعين النبي المسلم شجرة الشر الوارفة العاتية التي تمثل قومه، وهي إلى زوال سريع وكأن لم تكن، وأما العاقبة فهي للصديقين المتقين الموحدين (قد رأيت الشرير عاتياً وارفاً مثل شجرة شارقة ناضرة. عبر فإذا هو ليس بموجود والتمسته فلم يوجد. لاحظ الكامل وانظر المستقيم فإن

---

(١٣) المزمور ٣٥، ٣٦ (١٤) المزمور ٣٧ (١٥) المزمور ٣٧.

العقب لإنسان السلامة. أما الأشرار فيبادون جميعاً. عقب الأشرار ينقطع. أما خلاص الصديقين فمن قبل الرب حصنهم في زمان الضيق. ويعينهم الرب وينجيهم ينقذهم من الأشرار ويخلصهم لأنهم احتموا به)[١٦].

قال تعالى **﴿ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء تُؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثالَ للناس لعلّهم يتذكرون. ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار. يُثبّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويُضلُّ الله الظالمين ويفعلُ الله ما يشاء﴾**[١٧].

وكثيرا ما يردد داوود عليه السلام العون والخلاص الذي يحمد الله تعالى عليه، وليس من شك في أنه الخلاص المرتقب الذي لم يتهيأ له من القوم إلاّ داوود (لماذا أنتِ منحنية يا نفسي ولماذا تئنين فيّ. ترجي الله لأني بعد أحمده خلاص وجهي وإلهي)[١٨]، ودعاء داوود ربّه بالخلاص لا يكون إلاّ حين تشتد الظلمات من حوله، وتتعاظم معاصي قومه وآثامهم، وبهذا يأخذ داوود في سؤال الله الفصل بينه وبين قومه كما كان من موسى مع ربه حين دعاه أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين (اقضِ لي يا الله وخاصم مخاصمتي مع أمة غير راحمة ومن إنسان غش وظلم نجّني لأنك أنت إله حصني. لماذا رفضتني. لماذا أتمشّى حزيناً من مضايقة العدو. أرسل نورك وحقك هما يهديانني ويأتيان إلى جبل قدسك وإلى مساكنك. فآتي إلى مذبح الله إلى الله بهجة فرحي، وأحمدك بالعود يا الله إلهي. لماذا أنت منحنية يا نفسي، ولماذا تئنين فيّ. ترجّي الله لأني بعد أحمده خلاص وجهي وإلهي)[١٩].

ولعن الله القوم كما لعنهم الأنبياء والرسل والناس جميعاً، وكانت اللعنة أبدية، وكان غضبه ماضياً في الأعقاب وأعقابهم إلى أبد الآبدين (اللهم بآذاننا قد سمعنا. آباؤنا أخبرونا بعمل عملته في أيامهم في أيام القدم. أنت بيدك استأصلت الأمم وغرستهم. حطمتَ شعوباً ومددتهم. لأنه ليس بسيفهم امتلكوا الأرض، ولا ذراعُهم خلّصَتْهُم. لكن يمينك وذراعك ونور وجهك لأنك رضيت عنهم.. لكنك قد رفضتنا وأخجلتنا ولا تخرج مع جنودنا. ترجعنا إلى الوراء عن العدو.. جعلتنا كالضأن أكلاً. ذرّيتنا بين الأمم. بعتَ شعبك بغير مال وما ربحتَ بثمنهم. تجعلنا عاراً عند جيراننا. هزأةً وسخرة للذين حولنا. تجعلنا مثلاً بين الشعوب لانخفاض الرأس بين الأمم. اليوم كله خجلي أمامي وخزي وجهي قد غطاني من صوت المعير والشاتم من وجه عدو منتقم.

---

(١٦) السابق ٣٧
(١٧) إبراهيم ٢٤.
(١٨) المزمور ٤٢: ١١ والمزمور ٤٣: ٥
(١٩) المزمور ٤٣.

استيقظ. لماذا تتغافى يا رب. انتبه. لا ترفض إلى الأبد. لماذا تحجب وجهك وتنسى مذلّتنا وضيقنا لأن أنفسنا منحنية إلى التراب. لصقت في الأرض بطوننا. قم عوناً لنا وافدنا من أجل رحمتك) [٢٠].

ويهتف داوود بنصرة شعب إله إبراهيم، وهذا الشعب ليس قوم إسرائيل، لأنهم ليسوا شعب إله إبراهيم الواحد الأحد الفرد الصمد ولكنهم شعب العجل الذهب الذي صنعوه فقالوا هذا إلهنا، فإله إبراهيم هو إله موسى وداوود وعيسى ومحمد وعبيده الأنبياء والرسل. ألم يقل القوم لموسى ﴿**يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون**﴾ [٢١].

أما شعب إله إبراهيم فهم محصلة شرفاء الشعوب جميعها الذين أرسل إليهم الإسلام ديناً عاما شاملاً، فآمن به من هدى الله وكان من الأمة المسلمة المصطفاة التي تزلزلت لها صروح الجبابرة وعروشهم. (رَنِّموا الله رَنِّموا. رَنِّموا لملكنا رَنِّموا. لأن الله ملك الأرض كلها. رنموا قصيدة. ملك الله على الأمم. الله جلس على كرسي قدسه. شرفاء الشعوب اجتمعوا. شعب إله إبراهيم لأن الله مَجانّ الأرض. هو متعال جداً) [٢٢].

ويملك الله الأرض بدينه الإسلام، ويكون المخاض العظيم الذي بهت له الجميع وارتاعوا، فعظيم (هو الرب وحميد جداً في مدينة إلهنا جبل قدسه. جميل الارتفاع فرح كل الأرض جبل صهيون. فرحُ أقاصي الشمال مدينة الملك العظيم. الله في قصورها يعرف ملجأ. لأنه هوذا الملوك اجتمعوا. مضوا جميعاً. لما رأوا بهتوا ارتاعوا فرّوا. أخذتهم الرعدة هناك والمخاض كوالدة. بريح شرقية تكسر سفن ترشيش. كما سمعنا هكذا رأينا في مدينة رب الجنود في مدينة إلهنا. الله يثبتها إلى الأبد) [٢٣]

الله يثبتها إلى الأبد مدينة الله الجديدة النازلة من السماء، هي القدس الجديدة في مكة الحرام، وقد تحولت إليها قبلة الله بعد أن كانت القدس قبلته في مبدأ نزول دين السماء. وأخذ داوود نبي الله يهتف بالدين الحق الذي ساوى بين أفراده وأهله، إذ لا فرق بين غني وفقير، وبين عال ودون. (اسمعوا هذا يا جميع الشعوب. اصغوا يا جميع سكان الدنيا. عالٍ ودون أغنياء وفقراء سواء. فمي يتكلم بالحكم ولهج قلبي فهم. أميل أذني إلى مثل وأوضح بعود لغزي... الموت يرعاهم، ويسودهم المستقيمون. غداة وصورتهم تبلى. الهاوية مسكن لهم) [٢٤].

---

(٢٠) المزمور ٤٤
(٢١) المائدة ٢٤
(٢٢) المزمور ٤٧.
(٢٣) المزمور ٤٨
(٢٤) المزمور ٤٩: ١.

الهاوية مسكن أولئك العصاة ربهم من القوم، وأما المتّقون فهم الذين يخلصون، لأنهم لم يوافقوا السارق جريمته، ولا الزاني زناه (اسمع يا شعبي فأتكلم. يا إسرائيل فأشهد عليك. الله إلهك أنا... وللشرير قال الله مالك تحدث بفرائضي وتحمل عهدي على فمك، وأنت قد أبغضت التأديب، وألقيت كلامي خلفك. إذا رأيت سارقاً وافقته ومع الزناة نصيبك. أطلقتَ فمك بالشر ولسانك يخترع غشاً. تجلس تتكلم على أخيك. لابن أمك تصنع معثرة. هذه صنعت وسكتُ. ظننت أني مثلك. أوبخك وأصف خطاياك أمام عينيك. افهموا هذا أيها الناسون الله لئلاّ أفترسكم ولا منقذ. ذابح الحمد يمجدني والمقوّم طريقه أريه خلاص الله) [٢٥].

إن الذين نسوا الله قد أنساهم الله أنفسهم، بل إنه قد هدمهم إلى الأبد وقلعهم من مسكنهم الذي لم يحفظ له حرمة ولا قداسة بعد إذ أحالوه إلى وكر لصوص ومجتمع أثَمَة، وافتخروا بذلك كله (لماذا تفتخر بالشر أيها الجبار. رحمة لله في كل يوم. لسانك يخترع مفاسد كموسى مسنونة يعمل بالغش. أحببتَ الشر أكثر من الخير. الكذب أكثر من التكلم بالصدق. سلاه. أحببتَ كل كلام مهلك ولسان غش. أيضاً يهدمك الله إلى الأبد. يخطفك ويقلعك من مسكنك ويستأصلك من أرض الأحياء. سلاه. هوذا الإنسان الذي لم يجعل الله حصنه بل اتكل على كثرة غناه اعتزّ بفساده) [٢٦].

ويبقى داوود وحيداً ينتظر الخلاص فهو (مثل زيتونة خضراء في بيت الله. توكلت على رحمة الله إلى الدهر والأبد. أحمدك إلى الدهر لأنك فعلت وأنتظر اسمك فإنه صالح قدام أتقيائك) [٢٧]. والخلاص ليس في بيت صهيون كما تمنّى داوود النبي و(ليت من بني صهيون خلاص إسرائيل) [٢٨].

ويصرخ داوود إلى الله بالخلاص، فهو وحيد في وسط قومه الذين طغوا وبغوا بمفاسدهم وآثامهم، وأخذ يدعو عليهم بالهلاك والفناء وتبلبل الألسنة وتفرقها، وتلك هي لعنة داوود. و ﴿**لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾ [٢٩]، ولعل لعنة داوود وعيسى ابن مريم وموسى وسواهم قد نفذت في القوم الذين تفرقوا في شتى المعمورة حتى لا يكاد الواحد منهم يعرف لغة الآخر، ونراهم يجتمعون في كيانهم المزعوم اليوم فوق أرض فلسطين اجتماعاً في الظاهرة ولكنهم ﴿**تحسبهم جميعاً وقلوبُهم شتّى**﴾ [٣٠].

---

(٢٥) المزمور ٥١.
(٢٦) المزمور ٥٢.
(٢٧) المزمور ٥٢
(٢٨) المزمور ٥٣: ٦.
(٢٩) المائدة ٧٨
(٣٠) الحشر ١٤.

(اصغ يا الله إلى صلاتي، ولا تتغاض عن تضرّعي. استمع لي واستجب لي أتحيّر في كربتي وأضطرب من صوت العدو من قبل ظلم الشرير. لأنهم يحيلون عليّ إثماً وبغضب يضطهدونني... أهلك يا رب فرق ألسنتهم لأني قد رأيت ظلماً وخصاماً في المدينة. نهاراً وليلاً يحيطون بها على أسوارها، وإثم ومشقة في وسطها. مفاسد في وسطها، ولا يبرح من ساحتها ظلم وغش. لأنه ليس عدو يعيّرني فأحتمل... ليبغتهم الموت. لينحدروا إلى الهاوية أحياء لأن في مساكنهم وفي وسطهم شروراً. أمّا أنا فإلى الله أصرخ والرب يخلصني. مساء وصباحاً وظهراً أشكو وأنوح فيسمع صوتي.. ألقِ على الرب همّك فهو يعولك لا يدع الصديق يتزعزع إلى الأبد. وأنت يا الله تحدّرهم إلى جبِّ الهلاك. رجال الدماء والغش لا ينصفون أيامهم. أما أنا فأتكل عليك)[٣١].

ووصف داوود قومه بما وصفهم به أنبياؤهم جميعاً، فهم أشرار قد ضلّوا وهم في الرحم، وأولئك لا يرجى منهم البر الخير، وهم لا يرجون خلاصاً لأنهم الشوك الذي لا يثمر، وأما المتقون فهم الثمر الذي ينتج ثمراً. ويبقى داوود وحيداً يترقّب الخلاص الذي جاء ليبشّر به، ويتمادى القوم في ضلالهم وتيههم، وبهذا يصبحون عبرة الأمم ضلالاً وتيهاً وتبديداً بين الأمم لأنه حُكْمُ الله الذي لا رادّ له، ولا تنفع معه شفاعة، لأنهم إلى فناء.

(وأنت يا رب الجنود إله إسرائيل انتبه لتطالب كل الأمم. كل غادر أثيم لا ترحم. سلاه. يعودون عند المساء يهرّون مثل الكلب ويدورون في المدينة. هوذا يُبقّون بأفواههم. سيوف في شفاههم. لأنهم يقولون مَن سامع. أما أنت يا رب فتضحك بهم. تستهزىء بجميع الأمم. من قوته إليك ألتجىء لأن الله ملجأي.

إلهي رحمته تتقدمني. الله يريني بأعدائي. لا تقتلهم لئلاّ ينسى شعبي. تيههم بقوتك وأهبطهم يا رب ترسنا. خطية أفواههم هي كرم شفاههم. وليؤخذوا بكبريائهم ومن اللعنة ومن الكذب الذي يحدثون به. أفن بحنق افنِ ولا يكونوا وليعلموا أن الله متسلط في يعقوب إلى أقاصي الأرض سلاهْ ويعودون عند المساء يهرون مثل الكلب ويدورون في المدينة. هم يتيهون للأكل. إن لم يشبعوا ويبيتوا.

أما أنا فأغني بقوتك وأرنم بالغداة برحمتك لأنك كنت ملجأ لي ومناصاً في يوم حنقي يا قوتي لك أرنم لأن الله ملجأي، إله رحمتي)[٣٢].

لقد قضي الأمر في قوم إسرائيل، ومضت معجزات الله التي زادتهم كفراً، وبدا خلاصهم باطلاً، وحق ميراث خائفي اسم الله والعاملين بمحبته وبرّه. وماذا يجدي توسل

---

(٣١) المزمور ٥٥. (٣٢) المزمور ٥٩.

داوود إلى الله وابتهالاته؟ إنها استغفار داوود ربه في نفسه وليس في فو ه، فقومه إلى بوار (يا الله رفضتنا اقتحمتنا سخطت. أرجعنا. زلزلتَ الأرض فصمتها. اجبر كسرها لأنها مترعرعة. أريت شعبك عسراً. سقيتنا خمر الترنّح. أعطيت خائفيك راية ترفع لأجل الحق سلاه. لكي ينجـو أحباؤك. خلص بيمينك واستجب لي...

.. من يقودني إلى المدينة المحصنة. من يهديني إلى أدوم؟ أليس أنت يا الله الذي رفضتنا ولا تخرج يا الله مع جيوشنا. وأعطنا عوناً في الضيق، فباطل هو خلاص الإنسان.

.. اسمع يا الله صراخي واصغ إلى صلاتي. من أقصى الأرض أدعوك إذا غشي على قلبي. إلى صخرة أرفع مني تهديني. لأنك كنت ملجأ لي. لأسكن في مسكنك إلى الدهور. أحتمي بستر جناحيك سلاه. لأنك أنت يا الله استمعتَ نذوري. أعطيت ميراث خائفي اسمك) (٣٣).

العزة لله، وله الرحمة والتسبيح، وطوبى للمختار المنقذ الذي يملأ الأرض كلّها عدلاً ورحمة، والكون كله يسبّح لله ويرفع اسمه وصوته آناء الليل وأطراف النهار. (طوبى للذي تختاره وتقربه ليسكن في ديارك. لنشبعنّ من خير بيتك قدس هيكلك.

بمخاوف في العدل تسبيحنا يا إله خلاصنا يا متكَلَ يا جميع أقاصي الأرض والبحر البعيدة... ..اف سكان الأقاصي من آياتك. تجعل مطالع الصباح والمساء تبتهج تعهدت الأرض وجعلتها تفيض. تغنيها جداً...

اهتفي لله يا كل الأرض. رنّموا بمجد اسمه. اجعلوا تسبيحه ممجداً. كل الأرض تسجد لك ترنّم لك. ترنّم لاسمك سلاه... يحمدك الشعوب يا الله يحمدك الشعوب كلهم. تفرح وتبتهج الأمم لأنك تدين لشعوب بالاستقامة وأمم الأرض تهديهم. سلاه. يحمدك الشعوب يا الله. يحمدك الشعوب كلهم) (٣٤).

ويغني داوود للخلاص، ويدعو المؤمنين إلى إعداد طريق المخلص الراكب في القفار، وقد تفجر نوره من أعماق صحراء الحجاز، ذلك النور الذي أباد الأشرار وأفرح الصّدّيقين (رَنموا اللهَ رَنموا لاسمه. أعدّوا طريقاً للراكب في القفار باسمه ياهْ واهتفوا أمامه أبو اليتامى وقاضي الأرامل. الله في مسكن قدسه. الله مسكن المتوحدين في بيت. مخرج الأسرى إلى فرح. إنما المتمردون يسكنون الرمضاء.

.. ميراثك وهو معي أنت أصلحته. قطيعك سكن فيه. هيأت بجودك للمساكين يا الله. الرب يعطي كلمة. المبشرات بها جند كثير.

---

(٣٣) المزمور ٦٠ ـ ٦١.   (٣٤) المزمور ٦٦ ـ ٦٧.

مبارك الرب يوماً فيوماً. يحملنا إله خلاصنا. سلاه. الله لنا إله خلاص وعند الرب السيد للموت مخارج... يا ممالك الأرض رَنِّموا لله رنموا للسيد سلاهْ. للراكب على سماء السموات القديمة. هوذا يعطي صوته صوت قوة. أعطوا عزاً لله)[٣٥].

والخلاص من داوود قريب بعيد، فهو يتلهّف إليه، ويترقبه بعين النبي الذي جاء يبشر بالخلاص، وكل ما حوله يشهد بما آل إليه حال القوم من شحناء وبغضاء. ولكن متى الخلاص؟

(خلّصني يا الله لأن المياه قد دخلت إلى نفسي. غرقت في حمأة عميقة وليس مقر. دخلت إلى أعماق المياه والسيل غمرني. تعبتُ من صراخي. يبس حلقي. كلت عيناي من انتظار إلهي. أكثر من شعر رأسي الذين يبغضونني بلا سبب.

... أما أنا فلك صلاتي يا رب في وقت رضى يا الله. بكثرة رحمتك استجب لي بحق خلاصك. نجني من الطين فلا أغرق. نجني من مبغضيّ ومن أعماق المياه. لا يغمرَنّي سيل المياه ولا يبتلعنّي العمق ولا تطبق الهاوية عليّ فاها. استجب لي يا رب لأن رحمتك صالحة. ككثرة مراحمك، التفتْ إليّ. ولا تحجبْ وجهك عن عبدك. لأن لي ضيقاً. استجب لي سريعاً. اقترب إلى نفسي. فكّها. بسبب أعدائي افدني.

لتصر مائدتهم قدّامهم فخاً وللآمنين شركاً. لتظلم عيونهم عن البصر وقلقل متونهم دائماً. صبَّ عليهم سخطك وليدركهم حمو غضبك. لتصر دارهم خراباً وفي خيامهم لا يكن ساكن... اجعل إثماً على إثمهم ولا يدخلوا في برِّك. ليمحوا من سفر الأحياء ومع الصديقين لا يُكتَبوا.

أما أنا فمسكين وكئيب. خلاصك يا الله فليرفعني. أسبّح اسم الله بتسبيح وأعظمه بحمد. فيستطاب عند الرب أكثر مِنْ ثور بقرٍ ذي قرون وأظلاف. يرى ذلك الودعاء فيفرحون وتحيا قلوبكم يا طالبي الله. لأنّ الرب سامع للمساكين ولا يحتقر أسراه... لأن الله يخلص صهيون ويبني مدن يهوذا فيسكنون هناك ويرثونها، ونسل عبيده يملكونها ومحبو اسمه يسكنون فيها)[٣٦].

إن محبي خلاص الرب هم من يسبحونه ويعظمونه، وبهذا كان داوود يذكّر قومه ويدعوهم إلى تعظيم الله وتسبيحه الذي به خلاصهم، وبهذه الدعوة إلى الخلاص بالمخلص الآتي أرسل داوود، وقدر له وهو في رحم أمه أن يكون من عبيده الأنبياء المبشرين بمخلص البشرية وهاديها، وكلهم بشّروا بأحمد، وكلهم مهّدوا طريقه، وترقبوا مقدمه الذي جعله الله

---

(٣٥) المزمور ٦٨. (٣٦) المزمور ٦٩.

سبحانه خاتماً لهم ومكملا طريقهم (اللهمّ إلى تنجيتي يا رب إلى معونتي أسرع. ليُخز ويخجل طالبو نفسي. ليرتد إلى خلف ويخجل المشتهون لي شراً. ليرجع من أجل خزيهم القائلون هه هه. وليبتهج ويفرح بك كل طالبيك وليقل دائماً محبو خلاصك ليتعظم الرب. أما أنا فمسكين وفقير اللهم أسرع إليّ. معيني ومنقذي أنت. يا رب لا تبطؤ... عليك استندت من البطن وأنت مخرجي من أحشاء أمي. بك تسبيحي دائماً. صرت كآية للكثيرين. أما أنت فملجأي القوي. يمتلىء فمي من تسبيحك اليوم كله من مجدك) (٣٧).

ويصرخ داوود إلى ربه ويستغيث به للخلاص، ولكن الخلاص للخائفين الله (لأن خلاصه قريب من خائفيه ليسكن المجد في أرضنا) (٣٨). في أرض قدس فلسطين الموصولة بأرض الحجاز، وفوق ثراهما كانت خطوات إبراهيم الحنيفة المسلمة. وبالإسلام وصّى إبراهيم بنيه ويعقوب، وبالخلاص بشّر أولئك جميعاً بخاتم الأنبياء محمد ﷺ (أساسه في الجبال المقدسة. الرب أحب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب. قد قيل بك أمجاد يا مدينة الله. سلاه) (٣٩).

قوم إسرائيل يعرفون الخلاص بأحمد، فتوراتهم قد أنبأتهم، وأنبياؤهم قد بلغوهم أمانة الله تلميحاً وتصريحاً ولغزاً ومثلاً وصورة، وهذا داوود يعلن لنا ذلك، ويعلن لقومه أمراً لا يخفي عليهم، فيقول:

(اصغ يا شعبي إلى شريعتي. أميلوا آذانكم إلى كلام فمي. أفتح بمثل فمي. أذيع ألغازاً منذ القدم. التي سمعناها وعرفناها وآباؤنا أخبرونا. لا نخفي عن بنيهم إلى الجيل الآخر مخبرين بتسابيح الرب وقوته وعجائبه التي صنع. أقام شهادة في يعقوب ووضع شريعة في إسرائيل التي أوصى آباءنا أن يعرفوا بها أبناءهم، لكي يعلم الجيل الآخر. بنون يولدون فيقومون ويخبرون أبناءهم فيجعلون على الله اعتمادهم، ولا ينسون أعمال الله بل يحفظون وصاياه. ولا يكونون مثل آبائهم جيلاً زائغاً ومارداً. جيلاً لم يثبت قلبه ولم تكن روحه أمينة لله.

بنو أفرايم النازعون في القوس، الرامون، انقلبوا في يوم الحرب. لم يحفظوا عهد الله وأبوا السلوك في شريعته ونسوا أفعاله وعجائبه التي أراهم. قدام آبائهم صنع أعجوبة في أرض مصر بلاد صوعن. شق البحر فعبّرهم ونصب المياه كندٍّ. وهداهم بالسحاب نهاراً والليل كله بنور نار. شق صخوراً في البرية، وسقاهم كأنه من لجج عظيمة. أخرج مجاري من صخرة وأجرى مياهاً كالأنهار. ثم عادوا أيضاً ليخطئوا إليه لعصيان العليّ في الأرض

---

(٣٧) المزمور ٧٠ - ٧١. (٣٨) المزمور ٨٥:٩. (٣٩) المزمور ٨٧:١ - ٣.

الناشفة. وجربوا الله في قلوبهم بسؤالهم طعاماً لشهوتهم. فوقعوا في الله. قالوا هل يقدر الله أن يرتب مائدة في البرية. هوذا ضرب الصخرة فجرت المياه وفاضت الأودية. هل يقدر أيضاً أن يعطي خيراً أو يهيىء لحماً لشعبه. لذلك سمع الرب فغضب واشتعلت نار في يعقوب وسخط أيضاً صعد على إسرائيل. لأنهم لم يؤمنوا بالله ولم يتكلوا على خلاصه. فأمر السحاب من فوق وفتح مصاريع السموات. وأمطر عليهم مناً للأكل، وبر السماء أعطاهم. أكل الإنسان خبز الملائكة. أرسل عليهم زاداً للشّبع. أهاج شرقية في السماء وساق بقوته جنوبية. وأمطر عليهم لحماً مثل التراب وكرمل البحر طيوراً ذوات أجنحة. وأسقطها في وسط محلتهم حوالي مساكنهم. فأكلوا وشبعوا جداً وأتاهم بشهوتهم. لم يزوغوا عن شهوتهم طعامهم، بعد في أفواههم. فصعد عليهم غضب الله وقتل من أسمنهم. وصرع مختاري إسرائيل. في هذا كله أخطأوا بعد ولم يؤمنوا بعجائبه.

فأفنى أيامهم بالباطل وسنيّهم بالرعب. إذ قتلهم طلبوه ورجعوا وبكروا إلى الله. ذكروا أن الله صخرتهم والله العلي وليّهم. فخادعوه بأفواههم وكذبوا عليه بألسنتهم. أما قلوبهم فلم تثبت معه ولم يكونوا أمناء في عهده)[٤٠].

الخلاص الخلاص يا رب، وتلك دعوة داوود والأنبياء من قبل ومن بعد، إنه الخلاص للأرض التي أسسها منذ الأزل وإلى الأبد. أرض فلسطين، وعليها يسكن المجد، ويلتقي البرّ والسلام (أرنا يا رب رحمتك، وأعطنا خلاصك. إني أسمع ما يتكلم به الله الرب. لأنه يتكلم بالسلام لشعبه ولأتقيائه، فلا يرجعنّ إلى الحماقة. لأن خلاصه قريب من خائفيه ليسكن المجد في أرضنا. الرحمة والحق التقيا. البر والسلام تلاثما. الحق من الأرض ينبت والبرُّ من السماء يطلع أيضاً. الرب يعطي الخير وأرضنا تعطي غلّتها. البر قدامه يسلك ويطأ في طريق خطواته)[٤١].

وتنتظر البشرية الرحمة والخلاص، ويغني داوود بها لأنها رحمة نسله المحمدي المختار (لأني قلت إنَّ الرحمة إلى الدهر تُبنى. السموات تثبت فيها حقك. قطعت عهداً مع مختاري. حلفتُ لداوود عبدي. إلى الدهر أثبت نسلك وأبني إلى دور فدور كرسيك. سلاه)[٤٢]..

ويتأكد لداوود الخلاص في رؤى يتحدث الله فيها إليه، عن المختار المنتظر إلى العالمين (حينئذ كلمتَ برؤيا تقيك وقلت جعلت عوناً على قوي. رفعت مختاراً من بين الشعب. وجدت داوود عبدي. بدهن قدسي مسحته الذي تثبت يدي معه. أيضاً ذراعي تشدده. لا يرغمه عدو وابن الإثم لا يذلله. وأسحق أعداءه أمام وجهه وأضرب مبغضيه. أما أمانتي

---

(٤٠) المزمور ٧٨. (٤١) المزمور ٨٥. (٤٢) المزمور ٨٩.

ورحمتي فمعه وباسمه ينتصب قرنه. وأجعل على البحر يده وعلى الأنهار يمينه. هو أبي أنت. إلهي وصخرة خلاصي. أنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من ملوك الأرض. إلى الدهر أحفظ له رحمتي وعهدي يثبت له وأجعل إلى الأبد نسله وكرسيه مثل أيام السموات.. مثل القمر يثبت إلى الدهر والشاهد في السماء أمين سلاه)(٤٣).

ويرى داوود بقلب النبي المسلم الخلاص، ويرى أمامه الخير والأخيار، والشر والأشرار، فالصديقون يثمرون إلى الأبد، ونواتهم تزهر في الأرض، وأما الأشرار فيبادون. ولكن من يفهم هذه الصور (الرجل البليد لا يعرف، والجاهل لا يفهم هذا، إذا زها الأشرار كالعشب وأزهر كل فاعلي الإثم، فلكي يبادوا إلى الدهر. أما أنت يا رب فمتعالٍ إلى الأبد... يتبدد كل فاعلي الإثم.

الصديق كالنخلة يزهو كالأرز في لبنان ينمـو مغروسين في بيت الرب في ديار إلهنا يزهرون أيضاً. يثمرون في الشيبة يكونون دِساماً وخضراً ببيتك تليق القداسة يا رب إلى طول الأيام)(٤٤). (هلم نرنّم للرب نهتف لصخرة خلاصنا. رنموا للرب ترنيمة جديدة. رنمي للرب يا كل الأرض. رنّموا للرب باركوا اسمه بشروا من يوم إلى يوم بخلاصه. حدثوا بين الأمم بمجده بين جميع الشعوب بعجائبه. العز والجمال في مقدسه. نور قد زرع للصديق وفرح للمستقيمي القلب. افرحوا أيها الصديقون بالرب واحمد واذكر مقدسه. باكراً أبيد جميع أشرار الأرض لأقطع من مدينة الرب كل فاعلي الإثم)(٤٥).

والمخلص هو من سينتصر على غلاظ الرقاب، قساة القلوب من قوم إسرائيل. فلا موسى ولا داوود أو عيسى ومن بينهم استطاع كبح جماح أولئك. أما خاتم الأنبياء فقد تمكن منهم تمكن المقتدر الذي بعث بشيراً لمن آمن ونذيراً لمن كفر وعصى (أما أنت يا رب فإلى الدهر جالس، وذكرك إلى دور فدور. أنت تقوم وترحم صهيون لأنه وقت الرأفة لأنه جاء الميعاد.. إذا بنى الرب صهيون يرى بمجده. التفت إلى صلاة المضطر ولم يرذل دعاءهم. يكتب هذا للدور الآخر. وشعب سوف يخلق ليسبح للرب. لأنه أشرف من علو قدسه. الرب من السماء إلى الأرض نظر ليسمع أنين الأسير ليطلق بني الموت. لكي يحدث في صهيون باسم الرب وبتسبيحه في أورشليم عند اجتماع الشعوب معاً والممالك لعبادة الرب. أبناء عبيدك يسكنون وذريتهم تثبت أمامك)(٤٦).

إن التوحيد الذي سينشر محمد ظلاله على العالمين هو مملكة الله الأبدية الخالدة على الأرض، وإن رحمة الله وعدله لحافظي عهده وذاكري وصاياه والعاملين بها (أما رحمة الرب

(٤٣) المزمور ٨٩:١٩. (٤٤) المزمور ٩٢، ٩٣. (٤٥) المزمور ٩٦، ٩٧. (٤٦) المزمور ١٠٢.

فإلى الدهر والأبد على خائفيه وعدله على بني البنين لحافظي عهده وذاكري وصاياه ليعملوها. الرب في السموات ثبت كرسيه ومملكة على الكل تسود)[٤٧].

ومحمد ﷺ هو سيد الأنبياء والشهيد عليهم على ما أدّوه من رسالة التوحيد على الأرض، وبهذه السيادة يعترف داوود ويُقر. يقول داوود: (قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك، **يرسل الرب قضيب عزّك من صهيون**)[٤٨]. أو القدس التي شرفت بإسراء النبي ﷺ وبمعراجه الذي لم يكرم به سوى محمد حبيب الله سبحانه، وليكون على رأس مملكة الله الموحدة الخالدة على الأرض ورعاياها هم المؤمنون الموحدون المتقون و(طوبى للرجل المتقي الرب المسرور جداً بوصاياه. نسله يكون قوياً في الأرض. جيل المستقيمين يبارَكْ. رغد وغنى في بيته. وبرّه قائم إلى الأبد. نور أشرق في الظلمة للمستقيمين هو حنان ورحيم وصديق.

سعيد هو الرجل الذي يترأف ويقرض. يدبر أموره بالحق لأنه لا يتزعزع إلى الدهر. الصديق يكون لذكر أبدي. لا يخشى من خبر سوء. قلبه ثابت متكلاً على الرب. قلبه ممكّن فلا يخاف حتى يرى بمضايقيه. فرّق أعطى المساكين بره كحاكم إلى الأبد. قرنه ينتصب بالمجد)[٤٩].

المؤمنون الصديقون هم المتصدقون وفيهم المتصدقات (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم)[٥٠]. أولئك هم المؤمنون في أمة محمد و **﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو مُعرضون والذين هم للزكاةِ فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدِهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوسَ هم فيها خالدون﴾**[٥١].

ويتمنى داوود كما تمنى موسى من قبل أن يكون في أمة محمد ﷺ ومنها، فبمحمد اكتمل بناء الدين فكان محمد رأس الزاوية الذي رفضه البناؤون، ومجدت قلوبهم القاسية محمداً، وأبتْ الإقرار به نبياً فكادت له. لا لشيء إلاّ لأنه من نسْل إسماعيل بكر إبراهيم لا من نسل إسحق، فزَيفت توراة موسى المبنية على البشارة بأحمد وحرّفتها وضيّعتها لتضيع فيها البشارة، ولكنها نور الله الذي لا يطفأ. وبهذا النور مضى داوود يهتف (افتحوا لي أبواب البحر أدخل فيها وأحمد الرب. هذا الباب للرب. الصديقون يدخلون فيه. أحمدك لانك

---

(٤٧) المزمور ١٠٣.
(٤٨) المزمور ١١٠.
(٤٩) المزمور ١١٢.
(٥٠) الحديد ١٨.
(٥١) المؤمنون ١ ـ ١١.

استجبت لي خلاصاً. الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية. من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا. هذا هو اليوم الذي صنعه الرب. نبتهج ونفرح فيه. آه يا رب خلّص آه يا رب أنقذ. مبارك الآتي باسم الرب. باركناكم من بيت الرب)[٥٢].

طوبى للكاملين طريقاً السالكين في شريعة الرب. طوبى لحافظي شهاداته. من كل قلوبهم يطلبونه. أيضاً لا يرتكبون إثماً. في طرق يسلكون. أنت أوصيتَ بوصاياك أن تُحفظ تماماً. ليت طرقي تثبت في حفظ فرائضك، حينئذ لا أُخزى إذا نظرتُ إلى كل وصاياك. أحمدك باستقامة قلب عند تعلمي أحكام عدلك. وصاياك أحفظ. لا تتركني إلى الغاية)[٥٣].

وصايا الرب هي ما حفظه داوود ولم يفرط بها، إنها وصية الله إلى أنبيائه ورسله، وهي **الوصيّة التي بلّغها إبراهيم بنيه، وصية الإسلام التي كانت على الأرض منذ خلقت البشرية**، ولأجل رسول الإسلام الأمي ودينه خُلقت الأكوان، وبه سبّحتْ إلى خالقها ومبدعها (منذ زمان عرفت من شهاداتك أنك إلى الدهر أسّستَها رأس كلامك حق وإلى الدهر كل أحكام عدلك رجوتُ خلاصك يا رب ووصاياك عملت)[٥٤].

ودين محمد ﷺ هو دين السماء إلى الأرض إلى يوم البعث، ومحمد هو خلاص هذه البشرية التي غرقت في حمأة الضلال والشرك والحيوانية، ولكنه خلاص المؤمنين بمحمد إيماناً مُنَزّهاً عن كل شرك، وداوود النبي المسلم يصرخ إلى الرب ويستجير به للخلاص لأنه مؤمن بشريعته، عامل بوصيته، وأما الأشرار فلا خلاص لهم لأنهم حادوا عن الشريعة ورفضوها (صرخت من كل قلبي. استجب لي يا رب. فرائضك أحفظ. دعوتك خلصني فأحفظ شهاداتك. تقدمت في الصبح وصرخت. كلامك انتظرت. صوتي استمع حسب رحمتك. يا رب حسب أحكامك أحيني. اقترب التابعون الرذيلة. عن شريعتك بعدوا. قريب أنت يا رب وكل وصاياك حق. منذ زمان عرفتُ من شهاداتك أنك إلى الدهر أسستها... حسب كلمتك أحيني. الخلاص بعيد عن الأشرار لأنهم لم يلتمسوا فرائضك... رأس كلامك حق وإلى الدهر كل أحكام عدلك... عدلاً أمرت بشهاداتك وحقاً إلى الغاية. أهلكتني غيرتي لأن أعدائي نسوا كلامك. كلمتك ممحّصة جداً، وعبدك أحبها. صغيرٌ أنا وحقير. أما وصاياك فلم أنسها. عدلك عدل إلى الدهر، وشريعتك حق. عادلة شهاداتك إلى الدهر فهمني فأحيا)[٥٥].

والقدس حيث بيت الرب ليعبد فيه لا يشرك به هي مهوى أفئدة الأنبياء والرسل، إنها المدينة المتصلة الموصولة بأرض انبثاق نور محمد وتفجر نور الإسلام، وهي أول قبلة فرصتها

(٥٢) المزمور ١١٨. (٥٣) المزمور ١١٩. (٥٤) السابق. (٥٥) المزمور ١١٩.

السماء على الأرض، ومن ثم باتت ثالث الحرمين الشريفين، ليستقر على أرضها إلى الأبد كما استقر على أرض مكة والمدينة ديـن الله الحق، مهما عـدت على القـدس العـوادي. وليكـون مسجدها الأقصى المبارك وما حوله في عين الله إلى الأبد، وفيه يرفع أذان الله يسمع صوته الذي يهيب بأمة محمد أن (الله أكبر) فوق كل كبير، فلا قوي سواه، ولا جبار غيره، ولا منتقم إلاّ هو سبحانه من أعدائه وأعداء دينه الذي يمدّ لهم من الطغيان مداً، ولكن إلى حين. ومن ثم يستقر السلام والإسلام فوقها، وفي صدور أمة محمد ﷺ وأمة الله (فرحت بالقائلين لي الى بيت الرب نذهب. تقف أرجلنا في أبوابك يا أورشليم. أورشليم المبنية كمدينة متصلة كلها... اسألوا سلامة أورشليم. ليسترح محبوك. ليكن سلام في أبراجك، راحة في قصورك. من أجل إخوتي وأصحابي لأقولن سلام بك. من أجل بيت الرب إلهنا ألتمس لك خيراً.

المتوكلون على الرب مثل جبل صهيون الذي لا يتزعزع، بل يسكن إلى الدهر. أورشليم الجبال حولها والرب حول شعبه من الآن وإلى الدهر. لأنه لا تستقر عصا الأشرار على نصيب الصديقين لكيلا يمد الصديقون أيديهم إلى الإثم. أحسن يا رب إلى الصالحين وإلى المستقيمي القلوب. أما العادلون إلى طرق معوجة فيذهبهم الرب مع فَعَلَةِ الإثم)[٥٦].

إن بيت الله الذي يتحدث عنه داوود واحد في رسالات الأنبياء، حيث يعبد فيه الله عبادة خاصة له سبحانه، وعلى أساس هذه العبادة الخالصة يُسمى بيت الله، وإلاّ فهو وكر للصوص من قوم إسرائيل كما قال لهم عيسى عليه السلام، وقد أحالوه إلى وكر وسوق يبيعون فيه ويشترون، ولا يتورّعون عن تدنيسه برذائلهم وفسقهم، إن مثل هذا البيت لا يعتده الله بيتاً له، فكل بيت لا يعبد فيه الخالق الواحد الأحد هو باطل، تعب في بنائه بناؤوه (إن لم يبن الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون. إن لم يحفظ الرب المدينة فباطلاً يسهر الحارس)[٥٧].

وكان تعب البنائين باطلاً حين هدموا البيت بكفرهم، وقوضوا أركانه بآثامهم، ولم يعد يجدي توسل داوود وابتهاله إلى الرب لمغفرة خطايا قومه والوفاء لهم بوعده سبحانه. فقد كان الوعد مشروطاً بشرط الإيمان والتوحيد المطلق إلى الأبد. فانتفى الشرط بانتفاء إنجازه من قوم إسرائيل، ولكنه بقي قائماً ليتسلمه سواهم ممن هم لله أمة، ولتكون بعض هذه الأمة حارسة أرض القدس وفلسطين بكلمة الله إلى أبد الآبدين (أقسم الرب لداوود بالحق لا يرجع عنه. من ثمرة بطنك أجعل على كرسيك إن حفظ بنوك عهدي وشهاداتي التي أعلمهم إياها فبنوهم أيضاً إلى الأبد يجلسون على كرسيك. لأن الرب قد اختار صهيون اشتهاها

(٥٦) المزمور ١٢٢.   (٥٧) المزمور ١٢٧.

مسكناً له. هذه هي راحتي إلى الأبد. ههنا أسكن لأني اشتهيتها. طعامها أبارك بركة. مساكينها أشبع خبزاً. كهنتها ألبس خلاصاً وأتقياؤها يهتفون هتافاً. هناك أنبت قرناً لداوود. رتبت سراجاً لمسيحي. أعداءه ألبس خزياً وعليه يزهر إكليله) (٥٨).

وفوق أرض القدس وثرى فلسطين يكون التقاء المؤمنين المسلمين من نسل إبراهيم الإسماعيلي والاسحاقي، ويكونون فوقها إخوة بالإيمان قبل أخوة النسب. فإن حكم الله أن تكون القدس للإيمان مقراً، وللمؤمنين مسكناً وإقامة. أما حين ينتصر كفار قوم إسرائيل على أمة الله وأمة محمد فهو الابتلاء العظيم لأمته ولحزبه، وهو الاختبار الذي يخرج منه المؤمنون أشد إيماناً وأعظم تمسكاً بشرع الله ومنهاجه، وأشد تماسكاً وتلاحماً فيكونون عند قوله ﷺ (مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) وبابتلاء الله وامتحانه ينصهر المؤمنون انصهار الذهب لإبريز، فيعلو المؤمنون حقاً وينهزم سواهم من منافقين وانهزاميين ومشركين وضالين، وتبقى الأرض أرض الله وأهله المسلمين، الذين تمنى الأنبياء والرسل أن يكونوا منهم في أمة محمد ﷺ. ألم يدع سليمان بن داوود عليه السلام ربه بقوله **﴿ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلحْ لي في ذريتي إنّي تبتُ إليك وإني من المسلمين. أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون﴾** (٥٩).

عندئذ فحسب تضحي أرض فلسطين مكان اجتماع المسلمين من نسلي إسماعيل وإسحق، ومقرّ إقامتهم إلى الأبد، أمة مسلمة موحدة واحدة، وليست فرعين: عرباً ويهود. وإذا اجتمع الفرعان في حقبة من حقب التاريخ فهو اجتماع الأصيل والغريب، والغريب إلى انتهاء مهما طال الزمان فإن الأرض لله يرثها عباده الصالحون.

وبمنطق الأمة الإسلامية الواحدة المؤمنة قال داوود (هوذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الأخوة معاً. مثل الدهن الطيب على الرأس النازل على اللحية، لحية هارون إلى طرف ثيابه. مثل ندى حرمون النازل على جبل صهيون. لأنه هناك أمر الرب بالبركة حياة إلى الأبد.. ارفعوا أيديكم نحو القدس وباركوا الرب. يبارك الرب من صهيون الصانعُ السموات والأرض) (٦٠).

ارفعوا أيديكم نحو القدس، وباركوا الله يا أمة محمد، يا خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وذلك كله بنود شرط الله مع أمته الموحّدة المختارة،

---

(٥٨) المزمور ١٣٢. (٥٩) الأحقاف ١٥ ـ ١٦. (٦٠) المزمور ١٣٣.

وتحت هذه البنود تندرج آيات الرحمة والمحبة والتعاطف والتكافل والإنسانية في أعظم معانيها، لتكون الأمة النبراس للعالمين، والرحمة الى البشرية وهي تأتمّ بمحمد ﷺ إماماً وتقتدي به قدوة حسنة وأسوة فذّة، وهو البشير والنذير للبشرية كافة، فلا أبيض ولا أسود، ولا عربي ولا أعجمي، ولكنها أمة إسلامية رسولها محمد بن عبد الله من نسل إسماعيل بكر إبراهيم.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سار حتى أتى بيت المقدس في رحلة الإسراء والمعراج، فنزل فربط فرسه إلى صخرة ثم دخل فصلى مع الملائكة. فلما قضيت قالوا: يا جبريل، من هذا معك؟ قال محمد رسول الله وخاتم النبيين. قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا حيّاه الله من أخ وخليفة. فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء. قال ثم أتى أرواح الأنبياء فاثنوا على ربهم، قال: فقال إبراهيم عليه السلام: الحمدلله الذي اتخذ إبراهيم خليلاً وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً لله يؤتم به. وأنقذني من النار وجعلها عليّ برداً وسلاماً.

ثم إن موسى أثنى على ربه فقال: الحمدلله الذي كلمني تكليماً واصطفاني برسالته وكلماته وقرّبني إليه نجيّاً، وأنزل عليّ التوراة، وجعل هلاك آل فرعون على يدي، ونجّى بني إسرائيل على يدي.

ثم إن داوود أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي خوّلني ملكاً، وأنزل عليّ الزبور وألان لي الحديد وسخّر لي الطير والجبال وآتاني الحكمة وفصْلَ الخطاب.

ثم إن سليمان أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي سخّر لي الرياح والجن والإنس، وسخّر لي الشياطين يعملون ما شئتُ من محاريب وتماثيل إلى آخر الآية، وعلمني منطق الطير وكل شيء، وأسال لي عين القطر وأعطاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي.

ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي علمني التوراة والإنجيل، وجعلني أبرىء الأكمة والأبرص، وأحيي الموتى بإذنه، ورفعني وطهرني من الذين كفروا، وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم. فلم يكن للشيطان عليهما سبيل.

ثم إن محمداً أثنى على ربه فقال: كلكم قد أثنى على ربه وإني مثنٍ على ربي فقال: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل عليّ الفرقان فيه تبيان كل شيء. وجعل أمتي خير أمة للناس. وجعل أمتي أمة وسطاً، وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون، وشرح صدري ووضع عني وزري ورفع لي ذكري وجعلني فاتحاً وخاتماً.

فقال إبراهيم: بهذا فَضَلَكم محمد [٦١].

هو الفاتح وهو الخاتم، هو البداية وهو النهاية، وهو الألف وهو الياء. محمد ﷺ، حبيب الله، وقد شاء له ربه أن يقترن اسمه باسمه آناء الليل وأطراف النهار في أذان الحق والتوحيد (أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله). وكانت رحمة الله سبحانه لمن أطاع الله ورسوله (وأطيعوا الله والرسولَ لعلكم تُرحمون) [٦٢].

﴿وإنْ من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [٦٣]. وهو التسبيح الذي لا يفتر **﴿وسبّحوه بُكْرةً وأصيلاً﴾** [٦٤]. وكانت هذه دعوة داوود إلى قومه، بل إلى عبيد الله من قومه الذين يخافون الله ويرجون ثوابه ويخشون عقابه (هللويا. سبحوا اسم الرب. سبحوا يا عبيد الرب. الواقفين في ديار بيت إلهنا. سبحوا الرب لأن الرب صالح. رنّموا لاسمه لأن ذاك حلو..) [٦٥].

هو إله أمة التوحيد الرحيم الذي لا إله سواه، هو الله الواحد الأحد الذي دعا إليه أنبياء الله ورسله، وهو الغفور الذي يجيب الداعي إذا دعاه **﴿وقال ربكم ادعوني استجبْ لكم﴾** [٦٦]، هو إلَه من لا إلَه لهم سواه.

ويبشّر داوود أتقياء قومه بالخلاص، فإن ا لمتّقين هم أولياء الله سبحانه، **﴿إنْ أولياؤه إلاّ المتَّقون﴾** [٦٧]. وخلاصهم بمن بشّر به أنبياء الله ورسله، وعرفه أهل التوراة وأهل الإنجيل باسمه ووصفه. أولئك المتقون هو نواة دين التوحيد الذي اكتمل بمحمد صلوات الله عليه، وكانت العاقبة لهم، ووراثة الأرض لهم مسلمينِ موحدين **﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبةُ للمتقين﴾** [٦٨].

(هلّلويا، غنوا للرب ترنيمة جديدة تسبيحته في جماعة الأتقياء. ليفرح إسرائيل بخالقه... ليسبحوا اسمه برقص. بدفٍّ وعود ليرنموا له... يجمل الودعاء بالخلاص. ليبتهج الأتقياء بمجد ليرنموا على مضاجعهم. تنويهات الله في أفواههم وسيف ذو حدين في يدهم... كرامة هذا لجميع أتقيائه هللويا.

هللويا. سبّحوا الله في قدسه. سبّحوه في فلك قوته، سبحوه على قواته. سبّحوه حسب كثرة عظمته، سبّحوه بصوت الصور. سبّحوه برباب وعود. سبّحوه بدفّ ورقص. سبحوه

---

(٦١) دلائل النبوة ٢ : ٤٠٠. لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

(٦٢) آل عمران ١٣٢. (٦٤) الأحزاب ٤٢. (٦٦) غافر ٦٠.

(٦٣) الإسراء ٤٤. (٦٥) المزمور ١٣٥. (٦٧) الأنفال ٣٤. (٦٨) الأعراف ١٢٨.

بأوتار ومزمار. سبحوه بصنوج التصويت. سبحوه بصنوج الهتاف. كل نسمة فلتسبّح الرب هللويا)[٦٩].

وختم الدين الموحد بمحمد ﷺ، وكان التسبيح أمر الله إليه (كما كان أمره سبحانه إلى الانبياء والرسل، **﴿وسبّحْ بحمد ربك قبل طلوعِ الشمسِ وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبّحْ وأطرافَ النهار لعلّك ترضى﴾**[٧٠].

صدق الله العظيم

---

(٦٩) المزمور ١٤٩ - ١٥٠.
(٧٠) طه ١٣٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا بني إسرائيلَ إنّي رسولُ الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراةِ ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمُهُ أحمد﴾

الصف ٦

لقد بشر الإنجيل بمحمد ﷺ، كما بشرت به التوراة، وأقصد بالإنجيل هنا إنجيل عيسى عليه السلام رغم تحريفه وتشعيبه إلى أناجيل كثيرة هي المتداولة بين ايدي المسيحيين اليوم، ولعله تحريف مقصود لذاته على يد شاؤول اليهودي الذي تنصر باسم بولس. ولهذا من المعاني الخطيرة ما يجعلنا ننظر إلى هذه الأناجيل نظرة فيها من الشك الكثير بما نسب إلى المسيح عليه السلام، لأن ما يدين به المسيحيون اليوم هي تعاليم بولس وليست تعاليم عيسى.

إن أناجيل اليوم مع ما هي عليه تكشف عن رموز البشارة الأحمدية، بل إن لفظة إنجيل تعني البشارة التي تحمل صفات خاتم الأنبياء وعلامات أمته الموحدة، وهذه علامات فصلها إنجيل برنابا الذي لا تعترف به مسيحية اليوم، لأنه يقوم على أساس هذه البشارة التي أرسل بها عيسى بخاصة، والأنبياء جميعاً والرسل على وجه العموم، حتى إن البشرية خلقت منذ خلقت لأجل التهيؤ والاستعداد لاستقبال محمد الذي يُختم به دين الله على الأرض.

وأرسل عيسى من قوم إسرائيل إليهم، وهو من أعتقد فيه من خلال التوراة والإنجيل والقرآن أول تلميذ من تلاميذ محمد ﷺ، وأعظم الداعين إلى الإيمان به. وقد حمل إلى قومه إسرائيل خلاصة مهمته التي أُرسل بها إليهم إذ قال لهم: (يا بني إسرائيلَ إني رسولُ الله إليكم مصدِّقاً لما بين يديَّ من التوراةِ ومبشّراً برسولٍ من بعدي اسمه أحمد. فلما جاءَهم بالبيّناتِ قالوا هذا سحرٌ مبين)[١].

وجاء عيسى إلى القوم بدعوته التي تنزع إلى تغليب الروح على المادة التي طغت على قومه، فلعلّ في ذلك ما يكبح من جماحهم، ويكسر في نفوسهم حدة الغلظة والحقد الذي ران على قلوبهم، ويقضي على قساوة قلوبهم التي هي كالحجارة أو أشد قسوة، ويلين من غلاظة رقابهم، فيكسب قومه بعض التوازن النفسي والاعتدال بين الروح والمادة، وبهذا يستقبلون خاتم الأنبياء، الذي كتب اسمه منذ الأزل خاتماً لدين الله على الأرض.

---

(١) الصف ٦.

ولم يبعث عيسى نبياً مستقلاً عما قبله بكتاب ناسخ لما سبقه، فقد جاء ليكمل ناموس موسى لا لينقضه. وإكمال هذا الناموس الموسوي لا بد أن يؤتي ثماره عند القوم ولو كان الأمر بالقوة، فإن عيسى كما قال لهم ما جاء ليلقي سلاماً على الأرض ولكن سيفاً. وإن تاريخ القوم مع الأنبياء والرسل لم يكن ليبشّر بالخير وإنجاز وعد الله، فقد قتلوا الأنبياء أو رجموهم أو طردوهم فكان أن انحسر ظل الله عنهم.

ولم يبق غير الاستعداد الكبير، والتهيؤ العظيم لاستقبال من لا ينوء بحمل ما عجز عنه رسل الله السابقون، ليس إزاء القوم فحسب، وإنما إزاء العالم كله على اختلاف أممه وشعوبه ولغاته وملله ودياناته. فجاء عيسى ليرسي القديم الموسوي، ولكن ليبعث منه الجديد المتصل الذي به يكتمل بناء الرسل والأنبياء. وكان عيسى بذلك آخر الأنبياء العظماء من اليهود ليمد سراج موسى بنور وروح جديدين. وأعطيت له الصلاحية لإبلاغ اليهود أن خلاصهم يتوقف على الخضوع لابن إسماعيل العظيم[٢].

وآزر عيسى عليه السلام في دعوته بعض أهله وهو يوحنا المعمدان أو يحيي بن زكريا كما ذكره القرآن الكريم، ولم يتقبل القوم عيسى ويوحنا بأفضل مما تقبلوا به موسى وهرون ومن تلاهما من انبيائهم. فإن عناد قلوبهم كان لا يزال يهيىء لهم أنهم مختارو الرب حتى بعد أن تحولت عنهم صفة الاختيار تلقائياً إلى أولئك المؤمنين بعيسى إيماناً مرده أنه عبد الله ورسوله الداعي إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وما كان انتساب القوم إلى ابراهيم شافعاً لهم ما توهموه من وعد واختيار، فإن الانتساب في دين الله هو نسب الإيمان لا نسب اللحم والدم، وقد أكد لهم إبراهيم ذلك في كتاب الله العزيز حين أعلن الله سبحانه فقال: ﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**﴾[٣].

وأكد لهم يوحنا هذه الحقيقة، بل إنها كانت أولى الحقائق التي جبههم بها وجعلها لهم أساساً يتعامل به عيسى معهم (فلما رأى (يوحنا) كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معموديته قال لهم: يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر. وكل

(٢) محمد في الكتاب المقدس - البروفسور عبد الأحد داوود ١٨٧ - ط: ١ سنة ١٩٨٥ قطر.
(٣) آل عمران ٦٧

شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار. وأنا أعمدكم بماء للتوبة. ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحلَّ حذاءه. هو سيعمدكم بالروح القدس ونار الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن، وأمّا التبن فيحرقه بنار لا تُطفأ) (٤)

وأترك القسيس المسلم عبد الأحد داوود يفسّر أقوال يوحنا حول الغضب الآتي وما سيأتي به، فيقول: (إن نبي التوبة والبشارة لا يتحدث عن الغضب البعيد وغير المحدود الذي لا شك في أنه ينتظر الكفرة والفاسقين، ولكن يتحدث عن الكارثة القريبة للأمة اليهودية، وقد هدد بغضب الله الذي ينتظر الناس إذا ما استمروا في خطاياهم ورفضهم لرسالته ورسالة أخيه يسوع المسيح. وكانت المصيبة القادمة دمار القدس وتشتّت بني إسرائيل نهائياً، والذي حدث بعد ثلاثين سنة وخلال حياة كثيرين من الذين حضروا واستمعوا إليه. وأعلن هو وعيسى عن قدوم رسول الله العظيم الذي أعلن عنه يعقوب بن إسحق تحت لقب (شيلوها) أي المرسل بالعبرية. وأنه عند قدومه سوف تنتزع جميع الامتيازات النبوية والملكية من اليهود. وقد تحقق ذلك بالفعل بعد حوالي ستة قرون عندما سُويت آخر معاقلهم بالأرض. وقام محمد ﷺ بتدمير تحصيناتهم. وكانت سيطرة روما المتزايدة في سوريا وفلسطين تهدد الاستقلال شبه المحلي لليهود. كما أن مغادرة اليهود تلك الديار كانت قد بدأت. وحول هذا الأمر بالذات كان الواعظ يوحنا يستفسر قائلاً: (من الذي أخبركم أن تهربوا من الغضب الآتي). لقد جرى إنذارهم ونصحهم من أجل ثمار طيبة تليق بالتوبة والاعتقاد برسل الله الصادقين ولا سيّما رسول الله الذي كان القائد الحقيقي وآخر القادة الأقوياء.

ويمضي البروفسور قائلاً: وعندما أتخيّل صورة المعمدان الزاهد وهو يعظ بصوت عالٍ في البرية أو على ضفاف الأردن إلى جماهير اليهود، ووراءهم حوالي أربعة آلاف عام من التاريخ الديني واللاهوتي، ثم استعرض باختصار الأسلوب الهادىء المنظم الرزين الذي كان يعلن فيه محمد الآيات السماوية من القرآن على العرب الجاهليين، ثم عندما أتفحص وأشاهد تأثير كلٍّ من تلكما الدعوتين على السامعين في ضوء النتيجة النهائية، حينئذ أتفهّم ضخامة البون الشاسع بينهما، وأدرك أهمية الكلمات القائلة (إنه أقوى مني) (٥).

إن عيسى ويوحنا داعيان بارّان بخاتم الأنبياء، وهما ـ مجتمعين ـ يكمل واحدهما الآخر، لأجل المهمة العظيمة التي أرسلا بها. فكما أن الله تعالى قوّى موسى بأخيه هرون. فكذلك قوى عيسى بيوحنا وهما ابنا الخالة. وكما قال موسى لربه: ﴿وأخي هرون هو أفصح مني لساناً

---

(٤) متّى ٣: ٧ ـ ١٢. (٥) محمد في الكتاب المقدس ١٨٣، ١٨٢

فأرسلة معي ردءاً يصدقني إني أخافُ أن يكذبون. قال سنشدُّ عضدك بأخيك ونجعلُ لكما سلطاناً﴾ [٦] كذلك عبّر عيسى عن ذلك حين (جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه، ولكن يوحنّا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأن تأتي إليّ، فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر. حينئذ سمح له) [٧].

ويجرب إبليسُ عيسى ويعرض عليه جميع ممالك العالم ومجدها إذا هو سجد لإبليس، ولكن يسوع يثبت عند جوهر دعوتة المرسل بها وهي توحيد الله الواحد الأحد (حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإيّاه تعبد) [٨].

ويمضي عيسى في مهمته التبشيرية بعد أن يقرن كل إعلان لها بنبوءة التوراة التي فاق علمه بها علم أحبار قومه وكهنتهم (ولما سمع يسوع أن يوحنا أُسْلِم انصرف إلى الجليل وترك الناصرة، وأتى فسكن في كفر ناحوم التي عند البحر في تخوم زبولون ونفتاليم لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل.. الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً. والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور. من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات) [٩].

قد اقترب ملكوت السموات، إنها مملكة الله الموحدة على الأرض ودينها الإسلام، وقد مضى عيسى يكرز بها، ويبشر خراف بني إسرائيل الضالّة، ويأتي لهم من المعجزات والآيات ما يلين الصخر، ولكن قلوب القوم كانت أشد قساوة من الصخر إزاء المعجزات التي اختص الله بها عيسى عليه السلام ليفحم بها القوم **﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم أني أخلقُ لكم من الطين كهيئةِ الطير فأنفخُ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىءُ الأكمهَ والأبرصَ وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ولأحلَّ لكم بعض الذي حُرِّمَ عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إنّ الله ربي وربّكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم﴾** [١٠].

وكان يسوع يطوف كل الجليل، يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب، فذاع خبره في جميع سورية فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة والمجانين والمصروعين والمفلوجين فشفاهم فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن [١١].

---

(٦) القصص ٣٤، ٣٥.
(٧) متّى ٤: ٣: ٣ - ١٥.
(٨) متّى ٤: ٥ - ١٠.
(٩) متّى ٤: ٥ - ١٣ - ١٧.
(١٠) آل عمران - ٤٩ - ٥٠.
(١١) متّى ٤: - ٢٣ - ٢٥.

وكان عيسى طوافاً بين الشعب يغتنم كلَّ اجتماع فيه ليعلن إليهم البشارة كما جعل من تلاميذه مبشرين في أنحاء فلسطين، وكانت وصيته إلى تلاميذه قوله (طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات. طوبى للحزانى لأنهم يتعزّون طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشْبعَون. طوبى للرحماء لأنهم يُرْحَمون. طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعي السلام. طوبى للمطرودين من أجل البرّ لأن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات) (١٢).

إن الفئة القليلة التي ستؤمن بدعوة عيسى إيماناً لا يشوبه شرك هي من ستكون نواة أمة التوحيد الخالص الشامل، ونوراً يهتدي به المهتدون. أما إذا فسدت هذه الفئة وانحرفت عن إيمانها بالله إلى الإيمان بعيسى رباً فذلك يعني أن تُحسب في عداد الكفار الذين ينتظرهم العذاب الأليم.

لقد قال عيسى لقومه (أنتم ملح الأرض، ولكن إن فسد الملح فبماذا يملح؟. لايصلح بعد لشيء إلاّ لأن يُطرح جانباً ويُداس من الناس. أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت. فليضيء نوركم هكذا قدّام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة) (١٣)

ويتوالى إعلان البشارة في صور ورموز تغلب عليها الروحانية التي دعا إليها عيسى بعد أن طغت مادية القوم على الحياة كلها، وكان يعلن لهم أن دعوته ليست إلاّ استمراراً لما جاء به موسى وهي مكملة لها ولا تنقضها (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السموات. وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماًفي ملكوت السموات) (١٤).

ماجاء عيسى لينقض الناموس ولكن ليكمل، فكيف يكسر في نفوسهم حدّة الصلف والعناد، وكيف يكبح جماح قلوبهم العاصية التي فاقت الصخر قساوة؟، وكيف يعيد في نفوسهم وعقولهم تشكيل مبادىء دعوة موسى التي لم تعد لتصلح في أيام عيسى، لقد بدا بالوصايا العشر التي لا تزال الحلف العظيم الغليظ إلى أيامنا هذه رغم أنهم قد ضيّعوها إلاّ في صفحات توراة سبيهم (سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ومن قتل يكون مستوجب الحكم.

---

(١٢) متّى ١: ١، ١٢. (١٣) متّى ٥: ١٣ - ١٦. (١٤) متى ٥: ١٧ - ١٩.

وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومن قال لأخيه رقاً يكون مستوجب المجمع. ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم. فإن قدمت قربانك إلى المذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فاتركْ هناك قربانَك قدام المذبح واذهبْ أولاً اصطلح مع أخيك. وحينئذٍ تعال وقدم قربانك. كن راضياً لخصمك سريعاً ما دمت معه في الطريق لئلاّ يسلمك الخصم إلى القاضي ويسلمك القاضي إلى الشرطي فتُلقى في السجن. الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفي الفلسَ الأخير)[15].

إنها شريعة تكمل ماسبقها حتى تتناسب مع تدرج عقلية القوم إلى أن يشاء الله فيختم دين السماء بمحمد ﷺ وبدين الإسلام. فقال سبحانه: **﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أوفساد في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلُنا ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾**[16]. فالقتل المتعمد لا رحمة فيه في شرع السماء والأرض **﴿ومن يقتلْ مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾**[17].

ويقول عيسى: (قد سمعتم أنه قيل للقوماء لاتزنِ، وأمّا أنا فأقول لكم إنّ كل من ينظر إلى امرأة يشتهيها فقد زنى في قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلْقَى جسدك كله في جهنم)[18].

أما شرع الله فقد حكم في هذه الفاحشة فقال: **﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلاً﴾**[19]. ثم فصل في أمر أولئك المتفحشين حتى يقطع دابرهم من الأمة الموحدة، لتبقى أمة مختارة مصطفاة بنقاء قلوبها ونقاء أنسابها وصفاء إيمانها وتقواها لتبقى الأمة القوية الجانب العزيزة المكانة، وهذا لا يتأتى إلاّ لمن آمن بالله ثم اتقى.. **﴿الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جلدةٍ ولا تأخذكم بهما رأفةٌ في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين. الزاني لا ينكح إلاّ زانيةً أو مشركةً، والزانيةُ لا ينكحها إلاّ زانٍ أو مشركٌ وحرم ذلك على المؤمنين﴾**[20].

ويقول عيسى لقد (قيل من طلق امرأته فليعطِها كتابَ طلاق. وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني. ومن يتزوجْ مطلقةً فإنه يزني)[21]. ولكن بقيت

(١٥) متّى ٥: ١٧ ـ ٢٦.
(١٦) المائدة: ٣٢.
(١٧) النساء: ٩٣.
(١٨) متّى ٥: ٢٧ ـ ٣٠.
(١٩) الإسراء: ٣٢.
(٢٠) النور: ٢ ـ ٣.
(٢١) متّى ٥: ٣١ ـ ٣٢.

حاجة البشرية ملحة إلى ما يملأ فراغ روحها وحياتها وشؤونها، وكان الإسلام رحمة البشرية حين جعل لكل داءٍ دواء، وجعل من الحلال نوعاً هو أبغض الحلال إلى الله، إنه الطلاق إذ بعد وقوع الشقاق بين الزوجين وبعد استنفاد كل وسائل التوفيق بينهما، بحيث يصبح التفريق أخفّ الضررين على الأسرة والأطفال، يكون الطلاق، على أن للزوج كذلك الحق في استرجاع زوجه بعد كل طلقة، ولكنها تُحرم عليه بعد الطلقة الثالثة إلاّ أن تتزوج غيره زواجا صحيحاً قبل الرجوع إليه، وذلك ليكون ذلك تأديباً للزوج وتضييقاً عليه لأنه جعل من الزواج لعبة يتسلى بها كيفما شاء، وهو يعلم تماما شرط الحياة الزوجية. فإمّا إمساكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان. يقول تعالى: **﴿وإن عزموا الطلاقَ فإنّ الله سميعٌ عليم. والمطلقاتُ يتربصْن بأنفسهنّ ثلاثة قروء ولا يحلّ لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ إنْ كن يؤمِنّ بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهنّ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذي عليهنّ بالمعروفِ وللرجالِ عليهن درجةٌ والله عزيزٌ حكيم. الطلاق مرتان فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلاّ أن يخافا ألاّ يقيما حدودَ الله. فإن خفتم ألاّ يقيما حدودَ الله فلا جناح عليهما فيما افتدتْ به. تلك حدودُ الله فلا تعتدوها. ومن يتعدَّ حدودَ الله فأولئك هم الظالمون. فإن طلّقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جُناحَ عليهما أن يتراجعا إن ظنا أنْ يقيما حدودَ الله وتلك حدودُ الله لقوم يعملون. وإذا طلقتم النساء فبلغْن أجلهن فأمسكوهن بمعروفٍ أو سرحوهن بمعروفٍ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا. ومن يفعلْ ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً. واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم. وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف. ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** [٢٢].

وفي وصيّة أخرى من وصايا موسى العشر يقول عيسى: (أيضاً سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوفِ للرب أقسامك. وأمّا أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتّة لا بالسماء لأنها كرسي الله، ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء. بل ليكن كلامكم نعم نعم. لا لا. ومازاد على ذلك فهو الشرير) [٢٣].

وترك الأمر يستوفيه الدين الحق، فلا حلف ولا يمين، لا بالله ولا بغيره. وإن الكفارة

---

(٢٢) البقرة: ٢٢٧ - ٢٣٢. (٢٣) متّى ٥: ٣٣ - ٣٧.

على من حلف بالله حلفاً معقوداً له في قلبه. فالله سبحانه لا يؤاخذ المسلمين بأيمان اللغو التي ينطق بها اللسان دون نية القلب والقصد، مع الحض على عدم ابتذال الأيمان بالإكثار من اللغو، إذ ينبغي أن تكون لليمين بالله حرمتها وقداستها.

أما اليمين المعقودة بالقصد والنية فإن الحنث بها يقتضي الكفارة التي تقيد المسلم وتحول دون الاستهانة بها، وهي عقود أمرنا الله تعالى الوفاء بها. فإذا عقد الإنسان يمينه وكان هناك ما هو أبر، فعل الأبرّ وكفّر عن اليمين، وإذا عقدها على غير ما هو من حقه كالتحريم والتحليل نقضها وعليه التكفير. قال تعالى: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة. فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتُم واحفظوا أيمانكم. كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تشكرون**﴾ (٢٤).

ويجاهد عيسى عليه السلام في تخفيف الحدَّة والعنف في نفوس القوم، وهم الخراف الضالة التي أرسل إليها فيقول لهم (سمعتم أنه قيل عين بعين وسنّ بسنٍّ. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّلْ له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخّركَ ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين، ومن سألك فأعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده) (٢٥).

ولم تتناسب مع البشرية ـ بعد أن اشتد عودها وأصبحت مهيأة لاستقبال خاتم الأنبياء ـ العين بالعين والسن بالسن، ولم تنفعها تلك الروحانية المجردة التي جاء بها عيسى، وإنما كان الخير أن يمزج بين الأمرين، وفي ذلك معلم إلى تكوين الإنسان المادي والروحي ممتزجين فاعلين وعاملين على توازن حياة الفرد توازناً لا يجور أحدهما على الآخر أو يطغى، ليكون من ذلك المؤمن القوي وهو خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير. قال تعالى: ﴿**إنّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله. وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً. ومن لم يحكمْ بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفس والعينَ بالعين والأنفَ بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص. فمن تصدّق به فهو كفارة له. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتّقين. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما**

(٢٤) المائدة: ٨٩. (٢٥) متّى ٥: ٣٨ ـ ٤٢.

أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ [٢٦] .

وخاطب الله سبحانه محمداً رسول الله ﷺ فقال له: **﴿وأنزلنا إليك الكتابَ بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله . ولا تتّبعْ أهواءَهم عما جاءك من الحق . لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾** [٢٧] .

ويقول المسيح عليه السلام لقومه: (سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكـم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم.. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأيّ أجرٍ لكم. أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك . وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا . فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل) [٢٨] .

لقد حضّتْ تعاليم عيسى عليه السلام على محبة الغريب والقريب، ولكن القوم قد لووا هذا التعليم كما لووا سواه، فقصروا الحب وإن كان شكلا ، كما قصروا حسن المعاملة على القريب منهم وأما الغريب فهو يستحق القتـل كما تنـص عليـه تعـاليم القـوم، وإنها المادية المجحفة، كما أنها الروحانية المتطرفة التي جاء بها عيسى، ولكنه جاء من خلالها بما يوازن بين هاتين الكفتين، بدين بشر به ويحض على وحدة العالم كله في إطار الدين الواحد، والأمة الإسلامية كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. وجعل الرابطة بين الأمة جميعها هو الإيمان، مع النهي عن موالاة الكفار **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾** [٢٩] . فالكفار بعضهم أولياء بعض **﴿يا أيها الذين آمنو لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياءَ بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾** [٣٠] .

أما المؤمنون بمحمد ﷺ فلهم علامات يعرفون بها معاملة وسلوكاً وخلقاً **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾** [٣١] .

---

(٢٦) المائدة: ٤٤ ـ ٤٧ . (٢٨) متّى ٥: ٤٣ ـ ٤٨ . (٣٠) المائدة: ٥١ .
(٢٧) المائدة: ٤٨ ـ ٤٩ . (٢٩) المائدة: ٥٧ . (٣١) سورة محمد: ٢ .

ومع الحض الإسلامي على وحدة الأمة الإسلامية وتعاطفها وقوتها فقد أمر بعدم البدء بالاعتداء ولكن ﴿**ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون**﴾ (٣٢). فإن دفع السيئة بالحسنة مما يرقق قلوب الأعداء ويلينها ويجعلها قابلة لتلقي الإيمان الحق ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾ (٣٣).

أما إذا استحال دفع السيئة بالحسنة ووجد المسلمون أنفسهم أمام خيار القتال فعليهم القتال: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين**﴾ (٣٤) فالقوة المادية والنفسية هي عدة أمة الله في حربها ضد أعداء الله والدين، حتى تبقى الأمة المختارة المصطفاة، وبهذه الأمة بشر عيسى عليه السلام وتمنى موسى أن يكون من أمة محمد ﷺ لما عرف من تكريم الله لها وصفاتها.

وكان عيسى يحث قومه على الدخول في طريق الله الذي يؤدي إلى الخلاص والنجاة ويقول: (ادخلوا من الباب الضيّق لأنه واسعٌ الباب ورحبٌ الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يدخلون منه. ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة. وقليلون هم الذين يجدونه) (٣٥)

وفي طريق الإيمان كثير من المدعين والمتنبئين المتنكرين في ثياب الحملان ولكنهم الذئاب الخاطفة، أولئك يبعدون المؤمنين عن طريق الله ويدخلون إلى قلوبهم الخلط والزيف والتشكيك بصورة المخلص المرتقب والهادي. يقول عيسى لقومه (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة. وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة. كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتُلقى في النار. فإذاً من ثمارهم تعرفونهم) (٣٦).

ولقد أعلم الله تعالى رسوله عيسى ضمن ما أعلمه ما سيكون عليه حال قومه من شرك حين يجعلون منه إلهاً وربّاً وابن إله، فنفى عن عيسى غير كونه عبداً رسولاً وأمه صديقة اصطفاها واختارها ربها لتكون وابنها آية للعالمين. (ليس كل من يقول لي يارب يا رب يدخل ملكوت السموات. بل الذي يفعل إرادة الذي في السموات. كثيرون سيقولون لي في ذلك يا رب يا رب. أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات

---

(٣٢) المؤمنون: ٩٦.
(٣٣) فُصِّلَتْ: ٣٤.
(٣٤) البقرة: ١٩.
(٣٥) متّى ٧: ١٣ ـ ١٤.
(٣٦) متّى ٧: ١٥ ـ ١٩.

كثيرة. فحينئذٍ أصرح لهم أني لم أعرفكم قط، اذهبوا عني يا فاعلي الشر)[٣٧].

وإن في تعاليم عيسى عليه السلام تعبيداً للطريق الجديد الآتي، وكل من يعمل بها انتظاراً للمبشّر به كمن يبني بيته على الصخر (فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبهّه برجلٍ عاقل بنى بيته على الصخر فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط، لأنه كان مؤسساً على الصخر. وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها يشبَّهُ برجلٍ جاهل بنى بيته على الرمل، فنزل المطر، وجاءت الأنهار، وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط وكان سقوطه عظيماً)[٣٨].

وليس أفدح من السقوط في حمأة الكفر والضلال، وقد جاهد عيسى عليه السلام ليمنع سقوط قومه من خلال صرخات يطلقها أمامهم مشفوعة بآيات ومعجزات، وكلها تؤكد للقوم صدق رسالته وبشارته. ولقد كان إحياء الموتى مما يعجز عنه البشر جميعاً، ومثل ذلك اشفاء المرضى الزمنى، ونفخ الروح في الطين كهيئة الطير فيصبح طيراً بإذن الله. وكان عيسى يؤمن أن الكهنة هم أشد الناس كفراً وذلك وحده كفيل بأن يمنع القوم من الإيمان به.

(ولما نزل من الجبل تبعته جموع كثيرة. وإذا أبرص قد جاء وسجد له قائلاً: يا سيد إن أردتَ تقدر أن تطهرني. فمدّ يسوع يده ولمسه قائلاً: أريد فاطهر. وللوقت طهر برصه. فقال له يسوع: انظر أن لا تقول لأحد. بل اذهب أرِ نفسك للكاهن وقدم القربان الذي أمر به موسى شهادة لهم)[٣٩].

لعل من طلبوا إلى عيسى إشفاءهم هم من أقوياء الإيمان بصدق دعوته، وإلاّ فَلِمَ لَمْ نجد كاهناً أو جباراً يطلب إلى عيسى معجزة من معجزاته إلاّ من باب التحدي والتكذيب؟ (ولما دخل يسوع كفرناحوم جاء إليه قائد مئة يطلب إليه ويقول: يا سيّد غلامي مطروح في البيت مفلوجاً متعذباً جداً. فقال له يسوع: أنا آتي وأشفيه. فأجاب قائد المئة وقال: يا سيّد لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفي. لكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامي، لأني أنا أيضاً إنسان تحت سلطان. لي جند تحت يدي. أقول لهذا اذهب فيذهب. ولآخر إيت فيأتي. ولعبدي افعلْ هذا فيفعل. فلما سمع يسوع تعجب وقال للذين يتبعون الحق أقول لكم: لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا)[٤٠].

إن مثل هذا الإيمان المطلق هو المعبد طريق الله التي يمهدها عيسى عليه السلام وهو إن لم يوجد في نفوس القوم فلأنه مقدر له أن يستقرّ في قلوب المؤمنين الموحدين المتمسكين

---

(٣٧) متّى ٧: ٣١ - ٣٣.

(٣٨) متّى ٧: ٣٤ - ٣٧.

(٣٩) متّى ٨: ١ - ٤.

(٤٠) متّى ٨: ٥ - ١٠.

بدعوة إبراهيم الحنفي. وأما بنو الملكوت الذين بُدِئت بهم دعوة التوحيد من قوم إسرائيل ولم يؤمنوا فإنهم يطرحون في الظلمة حيث لا يجدي الندم أو صرير الأسنان.

(الحق أقول لكم لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا، وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون في ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان) (٤١).

ومضى (يسوع يطوف المدن كلها والقرى، يعلم في مجامعها ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب. ولما رأى الجموع تحنّن عليهم إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعي لها. حينئذ قال لتلاميذه الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون. فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده) (٤٢).

وكان لعيسى اثنا عشر تلميذاً، حصر مهمتهم الأساسية في البشارة بملكوت الله الآتي بخاتم الأنبياء: (هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحريّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة. وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات) (٤٣).

وليست المهمة التي تولاّها عيسى وتلاميذه يسيرة، ولكنها شاقة في وسط قوم مثل قوم إسرائيل، وأخذ يهيىء تلاميذه إلى ما سيلاقونه من إيذاء القوم وتعذيبهم، ولكن اشتداد التعذيب والإيذاء إيذان يقرب مجيء المخلص. يقول لتلاميذه: (ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب. فكونوا حكماء كالحيّات وبسطاء كالحمام. ولكن احذروا من الناس لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس وفي مجامعهم يجلدونكم، وتساقون أمام ولاة وملوك من أجلي شهادة لهم وللأمم. فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون، لأنكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به.. وسيسلم الأخ أخاه إلى الموت، والأب ولده ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم. وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي. ولكن الذي يعبر إلى المنتهى فهذا يخلص. ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى. فإني الحق أقول لكم لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان) (٤٤).

ولعل عيسى عليه السلام كان يتعجل في تبليغ مهمته، ويحثّ تلاميذه على الإسراع في تبليغها دون خوف، لأن الأمر قد بات قريباً، ملكوت الله آت، وعلى القوم أن يضطربوا ويزلزلوا حتى يتهيأ لهم استقبال المخلص المرتقب، وهذا التعجيل في تبليغ الرسالة يستدعي

---

(٤١) متى ٨: ١٠ ـ ١٣.
(٤٢) متى ٩: ٢٥ ـ ٣٠.
(٤٣) متى ١٠: ١١ ـ ١٤.
(٤٤) متى ١٦ ـ ٢٣.

فرضه بالقوة التي لا يجدون معها متّسعاً للمساومة على بشارة عرفوها في التوراة والإنجيل. عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم عن ذلك. دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت. وكذلك أمهات النبيين يرين. وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام) [٤٥].

وذلك يعني أن محمداً كان كذلك في قضاء الله وتقديره قبل أن يكون أبو البشر وأول الأنبياء صلوات الله عليهم، كما أن قوم إسرائيل قد عرفوه قبل أن يخلق، فجاء عيسى ليذكرهم بما لم ينسوه ولكن تجاهلوه فكفروا به قبل أن يبعث.

ويطلب عيسى من تلاميذه ألاّ يخافوا (فلا تخافوهم لأن ليس مكتوم لن يستعلن ولا خفي لن يعرف. الذي أقوله لكم في الظلمة قولوه في النور، والذي تسمعونه في الأذن نادوا به على السطوح. ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها، بل خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم... فكل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام الذي في السموات. ولكن من ينكرني قدام الناس أنكره أنا أيضاً قدّام الذي في السموات.

لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً. فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها وأعداء الإنسان أهل بيته...) [٤٦].

وبعث عيسى تلاميذه إلى المدن ليكرزوا بالبشارة، ثم ذهب هو إلى مدنهم يكرز بها. (ابتدأ يسوع يقول للجموع ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا. أقصبة تحركها الريح. لكن ماذا خرجتم لتنظروا. إنساناً لابساً ثياباً ناعمة. هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيت الملوك. لكن ماذا خرجتم لتنظروا؟. أنبياً نعم أقول لكم وأفضل من نبي) [٤٧].

إن محمداً هو سيد الأنبياء والشهيد عليهم، وقد كان بشارة الأنبياء جميعاً إلى الكون والبشرية، وعيسى عليه السلام هو آخر المبشرين به والداعين إليه وقد أعلنها عيسى إلى قومه صراحة وعلناً فيقول: (فإن هذا هو الذي كتب عنه ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيء طريقك قدامك. الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنّا المعمدان. ولكن الأصغر في ملكوت السموات أعظم منه. ومن أيام يوحنا المعمدان إلى الآن

---

(٤٥) دلائل النبوة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ١: ٨٠ - ٨٢ - الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م - بيروت - لبنان - دار الكتب العلمية.

(٤٦) متى ١٠: ٢٦ - ٣٥.　　(٤٧) متى ١١: ٧ - ٩.

ملكوت السموات يغضب، والغا صبون يختطفونه لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا)[٤٨].

أما الأصغر في ملكوت السموات فهو محمد ﷺ وهو أعظم من يوحنا. فإن المقارنة التي أجراها عيسى هي بين يوحنا وجميع الأنبياء السابقين. وكلهم موظفون وإداريون في مملكة السماء. وحسب الترتيب الزمني فإن آخر الأنبياء سوف يكون أصغرهم جميعاً[٤٩].

وتمضي دعوة عيسى إلى قومه بين ترغيب وترهيب، وإن كانت هذه الدعوة لا تكلف القوم من العناء إذاهم آمنوا بها. فلا تكليف ولا مشقة يتحملونها كما تحملها السابقون، ولكن الإصرار يكون أشق إذا هم لجوا في عنادهم وتمادوا في ضلالهم وكفرهم (تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم لأن نيري هيّن وحملي خفيف)[٥٠].

ويعلن عيسى البشارة في صور كثيرة من خلال المثل أو الرمز، ويجعل من السبت المقدس عند قومه باباً لبشارته، فإن تقديس السبت ليس أهم من الإيمان في القلوب، لأن هناك من سيبطل للسبت قداسته الشكلية التي يتمسكون بها. (في ذلك الوقت ذهب يسوع في السبت بين الزروع. فجاء تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون. فالفريسيون لما نظروا قالوا له هوذا تلاميذك يفعلون ما لا يحلّ فعله في السبت. فقال لهم: أما قرأتم ما فعله داوود حين جاع هو والذين معه. كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذي لم يحل أكله له ولا للذين معه، بل للكهنة فقط. أوما قرأتم في التوراة أن الكهنة في السبت في الهيكل يد نّسون السبت وهم أبرياء. ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل. فلو علمتم ما هو. إني أريد رحمة لا ذبيحة لما حكمتم على الأبرياء. فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً)[٥١].

إن اليوم المقدس في دين الله الحق هو ما يجعله أهله وسيلة من وسائلهم إلى رضى الله والتقرب إليه بالعمل الصالح الذي تعلو به راية الله سبحانه لتبقى عزيزة كريمة وتظل أمة الله المختارة التي كرمها ربها بيوم الجمعة وهو سيد الأيام. وفيه قال سيد الأنام محمد ﷺ (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة. فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ)[٥٢]. وقال ﷺ في الجمعة إن (فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل

---

(٤٨) متّى ١١: ١٠-١٤.

(٤٩) محمد في الكتاب المقدس ١٧٩.

(٥٠) متّى ١١: ٢٨ - ٣٠.

(٥١) متّى ١٢: ١ - ٨.

(٥٢) رياض الصالحين ليحي بن شرف النووي جزء ٢ حديث رقم ١١٥٦ - دار العلم للملايين بيروت - ط ٦ - سنة ١٩٧٨ - تحقيق د - صبحي الصالح.

الله شيئاً إلاّ أعطاه إيّاه)[٥٣].

وفي الجمعة قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاةِ من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكرِ الله وذروا البيعَ. ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون فإذا قُضيتِ الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾[٥٤].

لقد جاهد عيسى عليه السلام على إبراز صورة المبشَّر به، وهي الصورة المألوفة لدى قوم إسرائيل من خلال التوراة، وكثيراً ما كان عيسى يؤكد لهم ذلك بمعجزاته الكثيرة التي كانت كلها بإذن الله سبحانه، ولكنه مع ذلك كان يحاول إخفاء أثر معجزاته إلاّ على الذين تنالهم هذه، من مثل إشفاء المرضى وذلك حتى لا يكون ذلك سبباً يدعو الفئة التي تؤمن بعيسى إلى تأليهه، وقد كان ذلك قد أوحي إليه به، وبقي في كتاب الله العزيز في صورة عتاب بين الخالق ورسوله عيسى يوم الحساب ﴿**وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلتَ للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ماليس لي بحقٍ إن كنت قلتُه فقد علمتَهُ تعلم ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسكَ إنك أنت علامُ الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾[٥٥].

لقد انتظر عيسى وهيّأ قومه لذلك المخلص الحبيب الذي يخبر الأمم بالحق (فلما خرج الفريسيون تشاوروا عليه لكي يهلكوه. فعلم يسوع وانصرف من هناك وتبعته جموع كثيرة فشفاهم جميعاً وأوصاهم ألاّ يظهروه لكي يتم ما قيل باشعياء النبي القائل: (هوذا فتاي الذي اخترته. حبيبي الذي سُرّتْ به نفسي أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق. لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يَقْصِفُ، وفتيلة مدخنة لا تُطفىءُ. حتى يخرج الحق إلى النصرة وعلى اسمه يكون رجاء الأمم)[٥٦].

ولعل نبياً لم يُصَدق كما صُدّق رسول الله ﷺ، بل لم يكن لهم من الهيبة والوقار والحلم ما كان لمحمد ﷺ لقوله ﷺ (ما صُدّق نبيٌّ من الأنبياء ما صُدقتُ. إن من الأنبياء من لم يصدقه من أمته إلاّ رجل واحد)[٥٧]. فهو مخرج الحق إلى الأمم، وبه كان رجاؤها وقد

---

(٥٣) رياض الصالحين ٢: ١١٥٤.

(٥٤) سورة الجمعة ٩.

(٥٥) المائدة ١١٦ - ١١٨.

(٥٦) متّى ١٢: ١٤ - ٢١.

(٥٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني - ٤: ١١٩ - المكتب الإسلامي.

أرسل إليها هادياً ومبشراً ونذيراً ﴿وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (٥٨) وهو المرسل رحمة للعالمين ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾ (٥٩).

ويصرح عيسى عليه السلام في ثنايا أحاديثه إلى قومه أنه روح الله أرسل إليهم ليخرج منهم الشياطين حتى يتهيأوا بالروح لاستقبال دين الله وملكوته (ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله. اجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيداً، واجعلوا الشجرة ردية وثمرها ردياً. لأن من الثمر تعرف الشجرة. يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار. فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم. الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يخرج الصالحات. والإنسان الشرير من الكنز الشرير يخرج الشرور) (٦٠).

وأكثر عيسى عليه السلام من الرموز والأمثال يوضح للقوم من خلالها مهمته، لعل ذلك يكون أفعل في نفوسهم وأشد تأثيراً، وهو في ذلك يصنف المؤمنين والكافرين، وكلاهما زرع ولكن من الزرع مايجف. ففي (ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر. فاجتمع إليه جموع كثيرة، حتى إنه دخل السفينة وجلس، والجمع كله واقف على الشاطىء. فكلمهم كثيراً بأمثال قائلاً: هوذا الزارع قد خرج ليزرع، وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت الطيور وأكلته. وسقط آخر على الأماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض. ولكن لما أشرقت الشمس احترق. وإذا لم يكن له أصلٌ جفّ. وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه. وسقط آخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمراً بعض مئة وآخر ستين وآخر ثلاثين. من له أذنان للسمع فليسمع) (٦١).

وهذه الأمثال لم تكن مبهمة لدى قومه، فهي أمثال عقلوها في توراتهم، وهي رموز عرفوا حلّها من كتابهم وأنبيائهم الذين بشروا جميعا بدين الإسلام. أما الذين طمس الله على قلوبهم فقد طمسوا هذه البشارة وحرفوها ولووا ألسنتهم بالكذب فيها ﴿**وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب. ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**﴾ (٦٢).

وتقدم من عيسى (التلاميذ وقالوا له: لماذا تكلمهم بأمثال؟ فأجاب وقال لهم: لأنه قد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات. وأما لأولئك فلم يعطَ. فإن من له سيعطى ويزاد. وأما من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه. من أجل هذا أكلمهم بأمثال لأنهم ـ مبصرين ـ لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون. فقد تمت فيهم نبوة إشعياء القائلة

(٥٨) سورة سبأ: ٢٨.
(٥٩) الأنبياء ـ ١٠٧.
(٦٠) متّى ١٢: ٢٨ و ٢٩ و ٣٣ و ٣٥.
(٦١) متّى ١٣: ١ ـ ٩.
(٦٢) آل عمران: ٧٨.

تسمعون سمعاً ولا تفهمون. مبصرين تبصرون ولا تنظرون. لأن قلب هذا الشعب قد غلظ وآذانهم قد ثقل سماعها. وغمضوا عيونهم لئلاّ يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشقيهم، ولكن طوبى لعيونكم لأنها تبصر، ولآذانكم لأنها تسمع. فإني الحق أقول لكم إن نبياً وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون، ولم يروا. وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا) [٦٣].

ويسوق عيسى مثلاً آخر يشبه فيه أهله بالزرع. فالزرع الذي يؤتي ثمره هو زرع الإيمان المطلق، وأمّا مايجف ويحرق ويجف فهو المزروع على الصخر أو على أرض لم تمتد فيها جذور الزرع. فييبس مع أول ريح. هكذا كان الشأن مع جميع الأنبياء والرسل. أما مع محمد ﷺ فإن الدعوة لا تحتمل غير المؤمنين الموحدين، وأما الكفار فإن حكم السماء فيهم ماض ونافذ **﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾** [٦٤]، وإن جهاد المسلمين اليهود ماضٍ إلى يوم الساعة، فهو جهاد الإيمان ضد الكفر، وهو قتال الحق للباطل. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر. فيقول الحجر والشجر: يا مسلم، هذا يهودي خلفي، تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود).

وتتوالى أمثال عيسى إلى القوم حيث (يشبه ملكوت السموات إنساناً زرع زرعاً جيّداً في حقله. وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زواناً في وسط الحنطة ومضى. فلما طلع النبات وصنع ثمراً حينئذ ظهر الزوان أيضاً، فجاء عبيد رب البيت وقالوا له: يا سيد أليس زرعاً جيدا زرعت في حقلك فمن أين له زوان؟. فقال لهم إنسان عدو فعل هذا. فقال له العبيد: أتريد أن نذهب ونجمعه. فقال لا لئلاّ تقلعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه. دعوهما ينميان كلاهما معا إلى الحصاد. وفي وقت الحصاد أقول للحصادين اجمعوا أولاً الزوان واحزموه حزماً يحرق. وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني) [٦٥].

ويتقدم من عيسى تلاميذه يستوضحونه المثل قائلين: (فسر لنا مثل زوان الحقل فأجاب وقال لهم: الزارع الزرع الجيد هو ابن الإنسان، والحقل هو العالم والزرع الجيد هو بنو الملكوت، والزوان هو بنو الشرير. والعدو الذي زرعه هو إبليس، والحصاد هو انقضاء هذا العالم. والحصادون هم الملائكة. فكما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء هذا العالم. يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاشر وفاعلي الإثم ويطرحونهم في أتون النار، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. حينئذ يضيء الأبرار

---

(٦٣) متّى ١٣: ١٠ ـ ١٧. (٦٤ التوبة ٧٣. (٦٥) متّى ١٢: ٢٤ ـ ٣٠.

كالشمس في ملكوت الله. من له أذنان للسمع فليسمع)[٦٦] .

أما الإيمان الحق فهو ينمو ويترعرع حتى ليظل تحت لوائه أنصار الله الذين ينصرون الله فينصرهم. وإن الإيمان الذي شاء الله أن يكون قوم إسرائيل نواة له هو حبة الخردل التي زرعتها الفئة القليلة منهم. ولكن هل مضت هذه الفئة في العناية بهذه الحبة التي يضرب بها عيسى المثل؟ (يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله وهي أصغر جميع البزور ولكن متى نمت فهي أكبر البقول. وتصير شجرة حتى إن طيور السماء تأتي وتتآوى في أغصانها)[٦٧] .

إن أمثال عيسى عليه السلام إلى قومه تدور كلها حول المملكة الجديدة القادمة أو ملكوت الله بدينه الحق الذي ختمت به رسالات السماء ، لكي يتم ما تنبأ به أنبياء القوم جميعاً (قال لهم مثلاً آخر. يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق ، حتى اختمر الجميع. هذا كله كلم به يسوع الجموع بأمثال وبدون مثل لم يكلمهم لكي يتم ما قيل بالنبي القائل سأفتح بأمثال فمي وأنطق بمكتومات منذ تأسيس العالم)[٦٨] .

(أيضاً يشبه ملكوت السموات كنزاً مُخفىً في حقل وجده إنسان فأخفاه ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل. أيضاً يشبه ملكوت السموات إنساناً تاجراً يطلب لآلىء حسنة. فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها. أيضا يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة في البحر وجامعة من كل نوع. فلما امتلأت أصعدوها على الشاطىء وجلسوا ، وجمعوا الجياد إلى أوعية. وأما الأردياء فطرحوها خارجاً. هكذا يكون في انقضاء العالم يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار ، ويطرحونهم في أتون النار. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.

قال لهم يسوع: أفهمتم هذا كله؟. فقالوا: نعم يا سيد. فقال لهم: من أجل ذلك كل كاتب متعلم في ملكوت السموات يشبه رجلاً رب بيت يخرج من كنزه جدداً وعُتَقاء)[٦٩] .

لقد أراد عيسى عليه السلام أن يغرس في نفوس القوم ذلك الإيمان المطلق بالله ، وبهذا الإيمان وحده يكون أصحاب عيسى مختارين معبدين طريق اليوم الآتي ، أما حين يتزعزع الإيمان ، فذلك هو الخسران المبين (وللوقت ألزم يسوع تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوه إلى العبر حتى يصرف الجموع ، وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي. ولما صار المساء كان هناك وحده. وأما السفينة فكانت قد صارت في وسط البحر معذبة من

---

(٦٦) متّى ١٢ : ٣٦ ـ ٤٣ .
(٦٧) متّى ١٣ : ٢٤ ـ ٣٠ .
(٦٨) متّى ١٣ : ٣٣ ـ ٣٥ .
(٦٩) ١٣ : ٤٤ ـ ٥١ .

الأمواج، لأن الريح كانت مضادة. وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشياً على البحر. فلما أبصره التلاميذ ماشياً على البحر اضطربوا قائلين إنه خيال من الخوف صرخوا. فللوقت كلمهم يسوع قائلاً: تشجعوا، أنا هو لا تخافوا. فأجابه بطرس وقال: يا سيد إن كنت أنت هو فمرني أن آتي إليك على الماء. فقال تعال. فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ليأتي إلى يسوع ولكن لما رأى الريح شديدة خاف. وإذ ابتدأ يغرق صرخ قائلاً: يا رب نجني. ففي الحال مد يسوع يده وأمسك به وقال له: يا قليل الإيمان لماذا شككت؟. ولما دخلا السفينة سكنت الريح)[٧٠].

أُرسل عيسى إلى خراف إسرائيل الضالّة، ولم يرسل إلى سواهم، فإن البشرية ما كان لها أن تخلص إلا بالبشير والنذير والهادي والرحيم، ولم يكن عيسى بما جاء به مهيأ لدور يفوق طاقاته وقدراته، وكان مقدراً له في علم الغيب تلك الفترة الزمنية القصيرة التي لم تتجاوز السنوات الثلاث، وتلك التي بعث فيها رسولاً. فدور عيسى عليه السلام كان محصوراً في قومه، وكان مقتصراً عليهم حتى تتحقق من خلاله تنبؤات أنبيائهم وبشارتهم بخاتم الأنبياء، وقد عرف القوم بما عرفوا من غلاظة الرقاب وقساوة القلوب وعمى البصيرة (يا مراؤون حسناً تنبأ عنكم إشعياء قائلاً: يقترب إليّ هذا الشعب بفمه، ويكرمني بشفتيه. وأمّا قلبه فمبتعد عني وباطلاً يعبدونني)[٧١].

ومما يؤكد اقتصار دعوة عيسى على قومه إسرائيل خبره مع المرأة الكنعانية التي رفض الاستجابة لها. فلقد (انصرف يسوع إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني يا سيد يا ابن داوود. ابنتي مجنونة جداً. فلم يجبها بكلمة. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال: لم أرسل إلاّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة. فأتتْ وسجدت له قائلة: يا سيد أعنّي. فأجاب وقال: ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب. فقالت: نعم يا سيد والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها. حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة. عظيم إيمانك. ليكن لك كما تريدين. فشفيت ابنتها من تلك الساعة)[٧٢].

وحرص عيسى عليه السلام على توصية تلاميذه، ومن تناهم معجزاته ألاّ يحدثوا بها، بل تبقى هذه علامة من علامات مجيء ابن الإنسان القريب الذي يبشر به عيسى أو إيليا الذي ذكرته التوراة، ولم يعلن عيسى أنّه إيليا، لأن القوم جدوا في عنادهم وإنكارهم، وكفروا بعيسى مسيحاً، فظلوا ينتظرون المسيح الذي رسمته مخيلاتهم ولا يزالون ينتظرون. وكفروا

---

(٧٠) متّى ١٤: ٢٣ ـ ٣٣. (٧١) متّى ١٥: ٧ ـ ٨. (٧٢) متّى ١٥: ٢٢ ـ ٢٨.

بعيسى رسولاً ونبياً، بل إن كفرهم بعيسى قد بلغ مبلغه حين تيقّنوا أنه ما جاء إلاّ ليبشر بمن بشّرت به توراتهم وهو محمد ﷺ، فكفروا بذلك كله، وتمادوا في صلفهم وغرورهم الذي هيألهم أن بإمكانهم جعل خاتم الأنبياء من قوم إسرائيل لا من نسل إسماعيل العربي، وذلك بتحريفهم التوراة وطمسهم معالم نبوة محمد، ولكنه النور الذي لم يستطيعوا إطفاءه لأنه نور الله. ﴿والله متمّ نوره ولو كره الكافرون﴾ [٧٣].

(وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع قائلاً: لا تُعلموا أحداً بما رأيتم حتى يقوم ابن الإنسان من الأموات. وسأله تلاميذه قائلين: فلماذا يقول الكتبة إنّ إيليا ينبغي أن يأتي أولاً؟. فأجاب يسوع وقال لهم: إن إيليا يأتي أولاً ويرد كل شيء، ولكني أقول لكم: إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه، بل عملوا به كل ما أرادوا. كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم) [٧٤].

وكما لم تُجدِ مع القوم معجزات موسى لم تُجدِ كذلك معجزات عيسى، فإن تربية عيسى تلاميذه على الإيمان المطلق لم يُؤتِ ثماره، لقد شاب إيمانهم شيء من الشك والزيغ (ولما جاؤوا إلى الجمع تقدم إليه رجل جاثياً له وقائلاً: يا سيد ارحم ابني فإنه يصرع ويتألم شديداً، ويقع كثيراً في النار وكثيراً في الماء، وأحضرته إلى تلاميذك فلم يقدروا أن يشفوه. فأجاب يسوع وقال: أيها الجيل غير المؤمن الملتوي إلى متى أكون معكم إلى متى أحتملكم؟. قدموه إليّ ههنا. فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان، فشفي الغلام من تلك الساعة. ثم تقدم التلاميذ إلى يسوع على انفراد وقالوا: لماذا لم نقدر نحن أن نخرجه. فقال لهم يسوع: لعدم إيمانكم. فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك، فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم. وأما هذا الجنس فلا يخرج إلاّ بالصلاة والصوم) [٧٥]

وكان عيسى يعمل دائماً على تقريب صورة مملكة الله الآتية إلى أذهان تلاميذه، ليكون ذلك أدعى لتبشيرهم بالبشارة الأحمدية، بل إنهم باتوا يترقبونها كترقب عيسى لها، وكانوا يسألون عيسى عنها يصوّرها لهم كما يراها بعين عقله وقلبه ووحيه (في تلك الساعة تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين: فمن هو أعظم في ملكوت السموات؟. فدعا يسوع إليه ولداً وأقامه في وسطهم وقال: الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات. لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يخلص ما هلك. ماذا تظنون. إن كان لإنسان مئة خروف وضلّ واحد منها، أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ويذهب يطلب

---

(٧٣) الصف: ٨. (٧٤) متى ١٧: ٩ - ١١. (٧٥) متى ١٧: ١٤ - ٢١.

الضال. وان اتفق أن يجده فالحق أقول لكم إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التي لم تضل)[٧٦].

إن الأنبياء جميعاً بعضهم من بعض، وهم جميعاً بناة بناء دين الله على الأرض وبمحمد ﷺ اختتم البناء فكان حجر الزاوية الذي كان البناء ينتظره ليكتمس ويشمخ في العالمين. ولقد كانت وصية رسول الله محمد ﷺ أصحابه بالرحمة والعدل والرأفة بالمسلمين ما كان لعيسى من قبله، ألم يكن غضب رسول الله محمد ﷺ شديداً على أحد بصحابته حين قتل في المعركة مسلماً اتهم في إسلامه، فوبّخه الرسول ﷺ لأن الشهادتين تعصمان دم المسلم، وقال له: لئن يهدي الله بك ضالاً خير مما طلعت عليه الشمس.

إنه الرحمة والرأفة والعدل، وهو السراج المنير الذي يضيء للبشرية دربها، ويخرجها من ظلمات شركها إلى نور الهداية. وأما المؤمنون بمحمد ﷺ فهم الذين يدينون قوم إسرائيل ومن كفر وهم من حملهم ربهم أمانة الجهاد يعزون به دين الله ويقاتلون به أعداء الدين حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمدا عبده ورسوله.

وإن محمداً ﷺ دعوة جده إبراهيم عليه السلام، وهو بشارة السماء إلى الأرض قبل خلق الكون، وبه تكون مملكة الله على الأرض وفيها ينال المؤمن الحياة الخالدة التي يسعى الموحدون إليها، جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، وعن هذه المملكة الأبدية كان بعض المؤمنين يسألون عيسى (أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية. فقال له: لماذا تدعوني صالحاً. ليس أحد صالحاً إلاّ واحد وهو الله. ولكن إن أرتَ أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا. قال له: أية الوصايا؟ فقال يسوع: لا تقتل لاتزن. لا تسرق. لا تشهد الزور. أكرم أباك وأمك، وأحب قريبك كنفسك. قال له الشاب: هذه كلها حفظتها منذ حداثتي. فماذا يعوزني بعد. قال له يسوع: إن أردتَ أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعطِ الفقراء فيكون لك كنز في السماء. وتعال اتبعني. فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة.

فقال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم إنه يَعْسُرُ أن يدخل غني إلى ملكوت السموات، وأقول لكم أيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله. فلما سمع تلاميذه بهتوا جداً قائلين إذاً من يستطيع أن يخلص؟ فنظر إليهم يسوع وقال لهم: هذا عند الناس غير مستطاع، ولكن عند الله كل شيء مستطاع)[٧٧].

كل شيء عند الله مستطاع، هداية من يشاء، وإضلال من يشاء، إعزاز من يشاء وإذلال

---

(٧٦) متّى ١٨: ١ - ٤ و ١١ - ١٣.   (٧٧) متّى ١٩: ١٦ - ٢٢.

من يشاء، ولقد كانت من نعم الله تعالى على رسوله محمد ﷺ وإكرامه له تأليف قلوب البشرية ممن آمنوا حول راية الإسلام **﴿وألف بين قلوبهم لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألفتَ بين قلوبهم ولكن اللهَ ألّفَ بينهم إنه عزيز حكيم﴾** (٧٨).

ولقد وصف القرآن الكريم أولئك المستكبرين عن آيات الله فقال فيهم سبحانه **﴿إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتح لهم أبوابُ السماء ولا يدخلون الجنةَ حتى يلجَ الجملُ في سَمِّ الخِيَاطِ وكذلك نجزي المجرمين﴾** (٧٩).

ولم يكن في مقدور عيسى أن يهدي قومه، بعد إذ يئس من ذلك كما يئس منه رسل الله وأنبياؤه إلى قوم إسرائيل، فلقد أعلن موسى يأسه حين دعا ربه أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، ولعن عيسى ابن مريم قومه كما لعنهم داوود من قبل ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، فلقد أرسل عيسى لتجديد ناموس موسى بالبشارة، والقوم هم القوم الذين لم تُجدِ معهم معجزات موسى وآيات عيسى **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقضينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس. أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم. ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون. وقالوا قلوبنا غلف. بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾** (٨٠).

كان القوم هم الأولين في شرع النبوة فأصبحوا هم الآخرين الأخسرين، وأما نسل اسماعيل فبهم ختم النبوة، وفيهم محمد ﷺ مكمل البناء إلى يوم الدين، ولقد بذل المسلمون الأرواح والأموال دفاعاً عن الدين وعن نبيهم، فلقد اشترى الله **﴿من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنةَ يقاتلون في سبيلِ الله فيقْتُلون ويُقتَلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾** (٨١).

أما تلاميذ عيسى فقد قالوا له بلسان بطرس (ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا يكون لنا؟ فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد. متى جلس ابن الإنسانِ على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضا على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر. وكل من ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف، ويرث الحياة الأبدية. ولكنْ كثيرون أولون يكونون آخرين، وآخرون أولين) (٨٢).

(٧٨) الأنفال ٦٣.
(٧٩) الأعراف ٤٠ ـ ٤١.
(٨٠) البقرة ٨٧.
(٨١) التوبة ١١١.
(٨٢) متّى ١٩: ٢٧ ـ ٣٠.

وأكد عيسى عليه السلام كثيرا على الحياة الأبدية التي لا ينالها إلاّ المؤمنون الموحدون، وكان يوضحها لهم يقربها إليهم بالأمثلة والصور التي تبين كيف أصبح الأولون آخرين، والآخرون أوّلين في مقياس النبوة وختمها فيهم.

(فإن ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لكرمه، فاتفق مع الفعلة على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرم. ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياماً في السوق بطّالين فقال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم، فأعطيكم ما يحق لكم فمضوا. وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة والتاسعة، وفعل كذلك نحو الساعة الحادية عشرة. خرج ووجد آخرين قياماً بطالين. فقال لهم: لماذا وقفتم ها هنا كل النهار بطالين؟ قالوا له: لأنه لم يستأجرنا أحد. قال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم. فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله: ادعُ الفعلة وأعطهم الأجرة مبتدئاً من الآخرين إلى الأولين فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا ديناراً ديناراً. وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت قائلين: هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة، وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر. فأجاب وقال لواحد منهم: يا صاحب ما ظلمتك. أما اتفقت معي على دينار فخذ الذي لك واذهب. فاني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. أو ما يحلّ لي أن أفعل ما أريد بمالي. أم عينك شريرة لأني أنا صالح. هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين، لأن كثيرين يُدعَوْن وقليلين ينتخبون) [٨٣].

لقد كان عيسى مسلماً يدعو إلى دين الإسلام، وليس إلى ما يدينون به اليوم، ولعله قد أوحي إليه ما سيكون عليه قومه من اختلاف حوله، من خلال ما أكده القرآن الكريم، فقال سبحانه ﴿**ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون**﴾ [٨٤]. وإن ذلك الاختلاف لهو معلَمٌ يشير إلى مضيّ صفة الاختيار وتحولها عن أولئك القوم إلى الأمة المكتوبة في علم الغيب منذ الأزل، ولقد كان عيسى كما كان الرسل والأنبياء من قبله مسلمين موحدين يدعون إلى الإسلام ويبشرون برسول الإسلام. وكان حال أولئك الأنبياء جميعاً حال من يصفهم عيسى مع قوم إسرائيل إلى أن جاء محمد ﷺ.

(اسمعوا مثلاً آخر. كان إنسان ربّ بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة، وبنى برجاً، وسلمه إلى كرّامين وسافر. ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرّامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً. ثم أرسل أيضا عبيداً آخرين أكثر من الأولين. ففعلوا بهم كذلك. فأخيراً أرسل إليهم ابنه

---

(٨٣) متى ٢٠: ١ ـ ١٦. **(٨٤) مريم ٣٤.**

قائلاً: يهابون ابني. وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا الوارث. هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين. قالوا له: أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً رديّاً، ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها. قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب. الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية. من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضّض، ومن سقط هو عليه يسحقه)(٨٥).

الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية، وقوم إسرائيل هم من رفضوا الحجر وجحدوا النبوة، وأنكروا إسماعيل بل جحدوا بنوته لإبراهيم وتوهموا أنهم الباقون مختارين أبداً مع ما كانوا عليه من كفر وشرك وعناد وقساوة قلوب وغلاظة رقاب، حتى كان فيهم حكم الله ولعنته ولعنة الأنبياء جميعاً و **﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشّرْهُم بعذابٍ أليم. أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين﴾**(٨٦).

لقد كان كهنة إسرائيل يعرفون دائماً أنهم المقصودون بامثال عيسى، وقد تصدّوا له بالكيد والدسّ ليحولوا دون إعلان البشارة بمحمد، وهي التي حاولوا طمسها في توراتهم (ولما سمع رؤساء الكهنة والفرِّيسيّون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خافوا من الجميع لأنه كان عندهم مثل نبيٍّ)(٨٧).

إن أمثال عيسى ورموزه وصوره تدور حول الكرم والعرس والكنز الذي كان لقوم إسرائيل لو آمنوا بالله الواحد الأحد، وحفظوا له العهد، ولكنهم ما حفظوا العهد، وما وفوا به، كل ذلك ليمضي فيهم حكم الله الأزلي فيتحول عنهم ظل الله ليستقر في أمة محمد ﷺ وهي خير أمة أُخرجت للناس **﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإيايَ فارهبون﴾**(٨٨)

وكانت نعم الله على قوم إسرائيل كثيرة، وإن دوامها مشروط بشرط الإيمان المطلق، ولكنهم كانوا في كل مرة يعودون إلى النقطة التي بدأوا منها، وهي الضلال المبين ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم. قلْ فلمَ تقتلون أنبياءَ الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾(٨٩). **﴿أولئك الذين اشتروا الحياةَ الدنيا**

---

(٨٥) متى ٢١: ٣٣ ـ ٤٤.
(٨٦) آل عمران ٢١ ـ ٢٢.
(٨٧) متّى ٢١: ٤٥.
(٨٨) البقرة ٤٠.
(٨٩) البقرة ٩١.

بالآخرة فلا يخفَّفُ عنهم العذاب ولاهم يُنْصَرون﴾ (٩٠).

إن مملكة الله لا تسع غير أولئك المؤمنين إيماناً لا يتجزأ، ذلك الذي يشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره. وليس ـلك مما يشق على المؤمن، ولكنه العنت على من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وهو المشقة على من لم يؤمن بالله ولا بعبيده الأنبياء فمضى فيهم تعذيباً وتقتيلاً ورجماً كما فعل قوم إسرائيل.

(وجعل عيسى يكلمهم أيضاً بأمثال قائلاً: يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه، وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس، فلم يريدوا أن يأتوا. فأرسل أيضاً عبيداً آخرين قائلاً: قولوا للمدعوين هوذا غذائي أعددته. ثيراني ومُسمّناتي قد ذُبحتْ كل شيء مُعدّ. تعالوا إلى العرس. ولكنهم تهاونوا ومضوا، واحد إلى حقله وآخر إلى تجارته. والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم. فلما سمع الملك غضب وأرسل جنوده وأهلك أولئك القاتلين وأحرق مدينتهم. ثم قال لعبيده: أما العرس فمستعد وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقّين فاذهبوا إلى مفارق الطرق وكل من وجدتموه فادعوه إلى العرس. فخرج أولئك العبيد إلى الطرق وجمعوا كل الذين وجدوهم أشراراً وصالحين. فامتلأ العرس من المتكئين. فلما دخل الملك لينظر المتكئين رأى هناك إنساناً لم يكن لابساً لباس العرس. فقال له: يا صاحب، كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس. فسكت. حينئذٍ قال الملك للخدام اربطوا رجليه ويديه وخذوه واطرحوه في الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان لأنه كثيرين يُدْعَون وقليلين ينتخبون) (٩١).

لقد اختار الخالق سبحانه وتعالى محمداً خاتم الأنبياء وسيدهم والشهيد عليهم جميعاً ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ (٩٢).

كما اختار الله تعالى أمة محمد ليكونوا شهداء على الناس وهي الأمة الوسط وخير أمة أخرجت للناس ﴿وكذلك جعلنا كم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (٩٣).

وبهذه الأمة وبرسولها أرسل عيسى ليبشر القوم، بل ليذكرهم ببشارة التوراة، وكان عيسى يجلس إلى قومه في كل مكان ويتحدث إليهم ويعيد إلى أذهانهم ما عرفوه في كتابهم وحرّفوه، ولكن بعد أن يعيده عيسى عليهم سليماً دون تحريف كما عرفه هو، وهو النبي الموحى إليه (وفيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلاً: ماذا تظنون في المسيح. ابن من هو؟. قالوا له ابن داوود. قال لهم فكيف يدعوه داوود بالروح رباً قائلاً: قال الرب لربي

(٩٠) البقرة ٨٦. (٩١) متّى ٢٢: ١ ـ ١٤. (٩٢) النساء ٤١. (٩٣) البقرة ١٤٣.

(بمعنى سيدي وهو محمد ﷺ) اجلس عن يمني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك. فإن كان داوود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه؟)[٩٤].

وعيسى هو آخر أنبياء القوم إليهم، فلقد بشّرهم، وتوعّدهم وأنذرهم بخراب البيت إلى الأبد مهما حاولوا رفع أنقاضه، إذا هم لم يؤمنوا بمن بشرهم به، ولم يتركهم عيسى قبل أن يهتك ستر نفوسهم، وحجب قلوبهم التي لم تخفَ على نبي أو رسول. وعدد عيسى مخازيهم ورذائلهم وآثامهم كما عددها القرآن الكريم من بعد، وذلك حتى يشهد عيسى ربه على تبليغ سالته وانتهاء مهمته، فيكون ذلك إيذاناً بقدوم الخلاص على يد المبارك الآتي باسم الرب.

(لكن ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيّون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام لناس فلا تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل. ولعلّةٍ تطيلون صلواتكم. لذلك تأخذون دينونة أعظم. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً. ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً. ويل لكم أيها القادة العميان القائلون مَنْ حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن من حَلَفَ بذهب الهيكل يلتزم.

أيها الجهال والعميان، أيها أعظم الذهب أم الهيكل الذي يقدس الذهب؟. ومَنْ حلف بالمذبح فليس بشيء، ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم. أيها الجهال والعميان أيما أعظم القربان أم المذبح الذي يقدس القربان. فإن من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه. ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه. ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله والجالس عليه. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيّون والمراؤون لأنكم تعشرون النعنع والشبث والكمون، وتركتم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان. كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك أيها القادة العميان الذين يُصَفّون عن البعوضة ويبلعون الجمل.

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيّون المراؤون لأنكم تنقّون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوآن اختطافاً ودعارة. أيها الفريسيّ الأعمى نقِّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجها أيضاً نقياً. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة. هكذا أنتم أيضاً من خارج تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياءً وإثماً. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين. وتقولون لو كنّا في أيام آبائنا لما شاركنا هم في دم الأنبياء. فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم

(٩٤) متى ٢٢: ٤١ - ٤٤.

أبناء قتلة الأنبياء. فاملأوا أنتم مكيال آبائكم. أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم. لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم، وتطردون من مدينة إلى مدينة. لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح الحق أقول لكم: إن هذا كله يأتي على هذا الجيل.

يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها. كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا)[٩٥].

وبعد هذا الوعيد يلقي عيسى بين أيديهم إنذار الله، وهو الخراب الأبدي للبيت، مما يؤذن باقتراب المخلص الذي يؤسس على تلك الأرض دين السماء الخالد (هوذا بيتكم يترك لكم خراباً. لأني أقول إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب)[٩٦].

ولعل تلاميذ عيسى قد داخلهم شيء من الشكّ حول خراب البيت، فأرادوا أن يُروا عيسى أبنية الهيكل التي ظنوا أنها بعيدة عن الخراب ومقاومة له، ولكن عيسى النبي يعلم ما يدور في أذهان تلاميذه فيجبههم به. (ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل، فتقدم تلاميذه لكي يروه أبنية الهيكل، فقال لهم يسوع: أما تنظرون جميع هذه. الحق أقول لكم إنه لا يترك ههنا حجر على حجر لا ينقض)[٩٧].

ويزداد الشك في قلوب التلاميذ حول ما أعلنه عيسى من خراب الهيكل مما يؤذن بمجيء المخلص، وعادوا إليه بالتساؤلات الكثيرة التي تدل على زعزعة الإيمان في قلوبهم (وفيما هو جالس على جبل الزيتون تقدم إليه التلاميذ على انفراد قائلين: قل لنا متى يكون هذا وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟ فأجاب يسوع وقال لهم: انظروا لا يُضلكم أحد. فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين: أنا هو المسيح. ويُضلّون كثيرين وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب. انظروا لا ترتاعوا، لأنه لا بد أن تكون هذه كلها ولكن ليس المنتهى بعد، لأنه تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة. وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع. حينئذ يسلمونكم إلى ضيق ويقتلونكم وتكونون مبغضين من جميع الأمم لأجل اسمي. وحينئذٍ يعثر كثيرون ويسلمون بعضهم بعضاً ويبغضون بعضهم بعضاً. ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين. ولكثرة الاثم تبرد محبة الكثيرين. ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص، ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتي المنتهى)[٩٨].

---

(٩٥) متى ٢٣. (٩٦) متّى ٢٣: ٣٨ - ٣٩. (٩٧) متى ٢٤. (٩٨) متى ٢٤: ١ - ١٤.

لقد جاء بعد المسيح مدّعون كثيرون، ومبشّرون غيروا بشارة المسيح بمحمد إلى بشارة المسيح بالمسيح نفسه، هكذا، وكان منهم من ضيّع جوهر رسالة عيسى، ومنهم من طمسها وجاء بمسيحية جديدة لا تمتّ إلى مسيحية عيسى بصلة، وقد كان بولس أو شاول اليهودي الفريسي هو مبتدع مسيحية اليوم وهو مشيد صرحها الديني، كما أنه هو وبطرس قد وضعا نظام الكنيسة العجيب كما يذكر ديو. فقد عثر بولس في خبايا الشريعة اليهودية على حلم يصور لليهود فلسفة الحشر والنشر فحرره ووسع نطاقه، وجعله عقيدة ذات قوة تستطيع أن تحرك العالم بأسره واستطاع بصبره الشبيه بصبر رجال السياسة أن يمزج مبادىء اليهود الأخلاقية بعقائد اليونان فيما وراء الطبيعة وأوجد طقوساً جديدة، ووضع مسرحية للحشر جديدة استوعبت كل ما سبقها من مسرحيات تصوّر هذه العقيدة، وأحلّ العقيدة محل العمل في اختبار الفضيلة، وكان من هذه الناحية بداية العصور الوسطى. ولسنا ننكر أن هذا كان تغييراً يُؤسف له كل الأسف. ولكن لعل الإنسانية هي التي شاءت أن يكون، ذلك أن الذين يستطيعون أن يحذوا حذو المسيح هم أقليّة من القديسيين.

وكان بولس الذي فصل المسيحية عن اليهودية من حيث الجوهر والأساس يهودياً في صرامة مبادئه[99]. ولعل ذلك ما يؤكد لنا ما ذهبنا إليه، من أن بولس قد عمل على تذويب مسيحية المسيح وطمسها من خلال يهوديته وفريسيته المتعصبة التي ترفض كل دين غير دين قوم إسرائيل الذي وضعوه بأيديهم بعد أن ضيّعوا دين موسى وتوراته.

وإن تذويب بولس العقيدة المسيحية وفصلها عن جوهر الديانة اليهودية، كان بصياغة العقائد اليهودية صياغة جديدة توائم عقلية اليونان ذوي النزعة الفلسفية، أو قل تذويب الأديان أو مسخها وقد طمس فيها صورة المسيح النبي المرسل، ونزع عنه مهمته التبشيرية الأحمدية إلى خراف بني إسرائيل الضالّة، وجعل المسيح هو المبشر بالمسيح نفسه إلى درجة جعل المسيح معها هو الخالق الأول للكون. .

ويعلق ديو على هذا فيقول: إذا نظرنا إلى المسيح هذه النظرة، كان في وسعنا أن نغفل إلى حدٍّ ما حياة الرجل يسوع اليهودية إذ نراها تذوي ويذهب سناها. أما فكرة المسيح الإله فقد هضمتها وامتصّتها تقاليد العقل الهلنستي الدينية والفلسفة. ومن ثم كان في وسع العالم الوثني، بل في وسع العالم المضاد للسامية أن يحتضنها ويرضى بها.

فالمسيحية لم تقضِ على الوثنية بل تبنّتها، ذلك أن العقل اليوناني النضر عاد إلى الحياة في صورة جديدة في لاهوت الكنيسة وطقوسها. وأصبحت اللغة اليونانية التي ظلت قروناً عدة

---

(٩٩) قصة الحضارة: ول ديورانت ١١ :٦٦٩ ـ ترجمة محمد بدران. الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.

صاحبة السلطان على السياسة أداة الآداب والطقوس المسيحية. وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة. وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف، فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس، ويوم الحساب، وأبدية الثواب والعقاب، وخلود الإنسان في هذا أو ذاك، ومنها جاءت عبادة أم الطفل.. وطمس معالم العقيدة المسيحية. ومن مصر أيضاً استمدّتْ الأديرة نشأتها، والصورة التي نسجت على منوالها، ومن فْريجيا جاءت عبادة الأم العظمى، ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث أوتيس، وربما كانت تراقيا هي التي بعثت للمسيحية بطقوس ديو نيشس، وموت الإله ونجاته. ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام، وعصور الأرض واللهب الأخير الذي سيحرقها، وثنائية الشيطان والله والظلمة والنور. فمن عهد الإنجيل الرابع يصبح المسيح نوراً (يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه). ولقد بلغ التشابه بين الطقوس المثراسية والقربان المقدس في القداس حداً جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس بأنه هو الذي ابتدعه ليضلّ به ضعاف العقول.

وقصارى القول كما يقول ديو إن المسيحية كانت آخر شيء عظيم ابتدعه العالم الوثني [١٠٠].

وأعود إلى ما ذكره المسيح عن النوازل والكوارث التي ستحلّ بأتباعه من بعده، أو ممن يتمسّحون باسمه دون الإيمان بعقيدته إيماناً مطلقاً، ولعلّ السبب في هذا كله هو ما استحالتْ إليه عقيدة المسيح المكملة ناموس موسى من وثنية لم تترك للتوحيد أثراً، أو للبشارة الأحمدية موضعاً. فقد اتفقت المصادر شرقية وغربية، دينية وغير دينية على أن المسيحيين قد نزل بهم بعد المسيح بلايا وكوارث جعلتهم يستخفون بديانتهم، ويفرّون بها أحياناً ويصمدون للمضطهدين مستشهدين أحياناً أخرى. وهم في كلا الحالين لا شوكة لهم، ولا قوة تحميهم وتحمي ديانتهم وكتبهم. وأنه في وسَط هذه الاضطهادات يذكرون أنه دُوِّنت أناجيلهم الأربعة التي يؤمنون بها ودُوّنت رسائلهم.

وأوّل اضطهاد نزل بالمسيحيين كان في عهد المسيح. ولقد نزلت من بعده الشدائد بالمسيحيين بما يتفق مع هذا الابتداء. فلقد جاء قيصران بعد طيباروس الذي عاصر المسيح. كانا شديدين على تلاميذه وقَتَلا منهم قَتْلاً ذريعاً.. ولم يكن الاضطهاد في عصر هذين القيصرين من الرومان فقط، بل كان من اليهود أيضاً، فقد كان أذاهم امكن لأنهم أعرف بالشعب من سواهم.

---

(١٠٠) قصة الحضارة ١١: ٢٧٥.

وأشدما نزل من أذى كان في عهد نيرون (سنة ٦٤ م) وتراجان سنة ١٠٦م وديسيوس (٢٤٩ - ٢٥١ م) ودقلديانوس سنة ٢٨٠ م. فنيرون هاج الشر عليهم، وأنزل البلاء بهم والعذاب، واتهمهم بأنهم الذين أحرقوا روما. فأخذهم بجريرتها. وكانت السنوات الأربع الأخيرة عذاباً أليماً لهم. فقد تفنّن هو وأشياعه في العذاب حتى لقد كانوا يضعون بعضهم في جلود الحيوانات ويطرحونهم للكلاب فتنهشهم. وصلبوا بعضهم، وألبسوا بعضهم ثياباً مطلية بالقار وجعلوهم مشاعل يستضاء بها. وكان هو نفسه يسير في ضوء تلك المشاعل البشرية.

وفي عهد تراجان نزلت بهم الآلام. لأنهم قد جرت عادتهم بالصلاة في الخفاء هرباً من الاضطهاد. وقد أمر تراجان بمنع الاجتماعات السرية، فأنزل بهم الذل والعذاب لذلك، ولأنهم مسيحيون لا يدينون بدين القيصر.

ولم ينقطع الاضطهاد بعد موت تراجان، وإن أخذت الرأفة بعض القياصرة،وخَلَفَ من بعده خلفٌ، ينزلون عذاباً مراً يزيل أثر كل رحمة سابقة حتى جاء ديسيوس فأنزل بهم من البلاء ما تقشعر من هوله الأبدان، وقد وصف ذلك بطريرك الإسكندرية حيث يقول: (لم نكد نتنفس الصعداء حتى حلق بنا الخوف، وحفّنا الخطر. عندما بُدِّل ذلك الملك الذي كان أرقّ جانباً وأقلّ شراً من غيره، وجاء مكانه ملك آخر ربما لا يجلس على كرسي المملكة حتى يوجه أنظاره نحونا، فيعمل على اضهادنا، وقد تحقق حدسنا عندما أصدر أمراً شديد الوطأة، فعمَّ الخوف الجميع وفر بعضهم. وقد أُبعد كل مسيحي من خدمة الدولة، مهما يكن ذكاؤه. وكل مسيحي يرشد عنه يُؤتى به على عجل ويقدم إلى هيكل الأوثان، ويطلب منه تقديم ذبيحة للصنم، وعقاب من يرفض تقديم الذبيحة أن يكون هو الذبيحة. بعد أن يجتهدوا في حمله بالترهيب... ومن ضعاف الإيمان من أنكر مسيحيته، واقتدى به البعض، ومنهم من تمسك بأذيال الفرار، أو من زُجَّ به في غيابات السجون).

وهكذا يقصُّ ذلك القسيس ما نزل بهم مما انتهى به الأمر إلى فراره هو، وقد كتب يعتذر عن ذلك إلى بعض من أبلوا بلاءً حسناً ولم يلوذوا بالفرار.

ولم يكن البلاء مقصوراً على مصر، بل عم جميع المسيحيين في الدولة الرومانية أينما وجدوا.

وكان أشدّ من أوقع البلاء بالمسيحين دقلديانوس الذي جاء إليهم بعد أن خف العذاب عنهم قليلاً، وقد رجوا فيه خيراً، لأن مدير خاصته مسيحي، ولكنه كان أشد من غيره على المسيحيين وخصوصاً المصريين وذلك لأن المصريين رأوا أمماً تحلّلتْ من حكم الرومان وفكّوا أغلاله، فاقتدوا بهم في طريق الحرية والاستقلال، وعقدوا الإمرة لواحد منهم، فجاء

دقلديانوس إلى مصر وأنزل بها البلاء وأزال استقلالها، وأعاد فتحها، وكانت كثرتها آنذاك مسيحية، وقد أمر بهدم الكنائس، وإحراق الكتب، وأصدر امراً بالقبض على الأساقفة والرعاة، وزجّهم في غيابات السجن، وقهر المسيحيين وحملهم على إنكار دينهم. وقد قُتِلَ عدد كبير من الأقباط تجاوزت عدّتهم أربعين ومائة ألف. وكانت ولاية دقلديانوس حادثاً ذا خطر في شأن مصر فجعلوه مبدأ تقويمهم وذلك في سنة ٢٨٤ ميلادية.

واستمر البلاء ينزل من قياصرة الروم حتى جاء عهد قسطنطين، فكان يمناً وبركة على المسيحيين لا على المسيحية[١٠١].

وأعود إلى الصابرين إلى المنتهى ممن آمنوا بعيسى نبياً ورسولا وعبداً من عبيد الله أرسله لهداية قوم إسرائيل مصدّقاً لما بين يديه من التوراة ومبشراً بالرسول أحمد. ولسوف يتزلزل القوم بما يحلّ بهم من خراب ودمار، ولعله الدمار الذي يعقبه السلام والخلاص، (فمتى نظرتم رجسة الخراب الذي قال عنها دانيال النبي قائمة في المكان المقدس، ليفهم القارىء. فحينئذ ليهب الذين في اليهودية إلى الجبال. والذي على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئاً. والذي في الحقل فلا يرجع إلى ورائه ليأخذ ثيابه، وويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام. وصلوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ولا في سبت. لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون. ولو لم تقصر تلك الأيام لم يخلص جسد ولكن لأجل المختارين تقصر الأيام.

حينئذ إن قال لكم أحد هوذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا، لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة، ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً. ها هو في المخادع فلا تصدقوا. لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب هكذا يكون مجيء ابن الإنسان لأنه حيثما تكن الجثة فهناك تجتمع النسور)[١٠٢].

ولمولد ابن الإنسان أو لمجيئه إلى العالم علامات كثيرة إذ (لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة ورأى الموبذان إبلا صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها)[١٠٣].

وقبل هذه العلامات نقرأ في الأناجيل إذ (بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس، والقمر لا يعطي ضوءه، والنجوم تسقط من السماء، وقوات السماء تتزعزع. وحينئذ تظهر علامة ابن

---

(١٠١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة ٣١ ـ طبعة سنة ١٩٦٦م.

(١٠٢) متّى ٢٤: ١٥ ـ ٢٨. (١٠٣) دلائل النبوة ١: ١٢٦.

الإنسان في السماء. وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض، ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختارين من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصائها. فمن شجرة التين تعلموا المثل متى صار غصنها رخصاً، وأخرجت أوراقها تعلمون أن الصيف قريب. هكذا أنتم أيضاً متى رأيتم هذا كله فاعلموا أنه قريب على الأبواب. الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله. السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول. وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلاّ الله وحده. لأنه كما كانوا في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك، ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع. كذلك يكون أيضاً مجيء ابن الإنسان. حينئذ يكون اثنان في الحقل يؤخذ الواحد ويترك الآخر. اثنتان تطحنان على الرحى تؤخذ الواحدة وتترك الأخرى) (١٠٤).

ويسارع عيسى عليه السلام في حث القوم على التهيؤ والاستعداد لليوم القريب الآتي بالإيمان والبر والعمل الصالح (اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم (سيدكم) واعلموا هذا أنه لو عرف رب البيت في أي هزيع يأتي السارق لسهر ولم يدع بيته ينقب. لذلك كونوا أنتم أيضاً مستعدين. لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان. فمن هو العبد الأمين الحكيم الذي أقامه سيده على خدمه ليعطيهم الطعام في حينه. طوبى لذلك العبد الذي اذا جاء سيده يجده يفعل هكذا. الحق أقول لكم إنه يقيمه على جميع أمواله. ولكن إنْ قال ذلك العبد الرديء في قلبه: سيدي يبطىء قدومه، فيبتدىء يضرب العبيد رفقاءه، ويأكل ويشرب مع السكارى. يأتي سيد ذلك العبد في يوم لا ينتظره وفي ساعة لا يعرفها. فيقطعه ويجعل نصيبه مع المرائين، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان) (١٠٥).

وإن في حث عيسى قومه ما يشير إلى اقتراب انتهاء دوره ومهمته، وهو انتهاء يؤذن ببداية العرس الأبدي، عرس البشرية وخلاصها بخير الخلق وخاتم الأنبياء، وقليلون هم المؤمنون بما جاء به عيسى وقليلون من تهيأوا لمن بشّر به عيسى (حينئذ يشبه ملكوت السموات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس. وكان خمس منهن حكيمات، وخمس جاهلات. أما الجاهلات فأخذن مصابيحهن ولم يأخذن معهن زيتاً. وأما الحكيمات فأخذن زيتاً في آنيتهن مع مصابيحهن. وفيما أبطأ العريس نعسن جميعهن ونمن. ففي نصف الليل صار صراخ هوذا العريس مقبل فاخرجن للقائه. فقامت أولئك العذارى وأصلحن

---

(١٠٤) متى ٢٤: ٢٩ ـ ٤١. (١٠٥) متى ٢٤.

مصابيحهن. فقالت الجاهلات للحكيمات أعطيننا من زيتكن فإن مصابيحنا تنطفيء. فأجابت الحكيمات قائلات لعله لا يكفي لنا ولكنّ بل اذهبن إلى الباعة وابتعن لكنّ. وفيما هن ذاهبات ليبتعن جاء العريس والمستعدات دخلن معه إلى العرس وأغلق الباب. أخيرا جاءت بقية العذارى أيضاً قائلات: يا سيد افتح لنا. فأجاب وقال: الحق أقول لكم إني ما أعرفكن فاسهروا إذاً لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها ابن الإنسان)(١٠٦).

والمؤمنون يتفاوتون في إيمانهم، وقد حدد الإسلام ذلك التفاوت في صدور أهله فقال رسول الله ﷺ (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير). وفي هذا التفاوت قال عيسى عليه السلام).

(كأنما إنسان مسافر دعا عبيده وسلمهم أمواله. فأعطى واحداً خمس وزنات، وآخر وزنتين وآخر وزنة. كل واحد على قدر طاقته، وسافر للوقت. فمضى الذي أخذ الخمس وزنات وتاجر بها فربح خمس وزنات أخر. وهكذا الذي أخذ الوزنتين ربح أيضاً وزنتين أخريين. وأما الذي أخذ الوزنة فمضى وحفر في الأرض وأخفى فضة سيده. وبعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم. فجاء الذي أخذ الخمس وزنات وقدم خمس وزنات أخر قائلا: يا سيد خمس وزنات سلمتني. هوذا خمس وزنات أخر ربحتها فوقها. فقال له سيده: نعما أيها العبد الصالح والأمين. كنت اميناً في القليل فأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيدك. ثم جاء الذي أخذ الوزنتين وقال يا سيد وزنتين سلمتني هوذا وزنتان أخريان ربحتها فوقها. قال له سيده: نعما أيها العبد الصالح والأمين. كنت أميناً في القليل فأقيمك على الكثير، ادخل إلى فرح سيدك. ثم جاء أيضاً الذي أخذ الوزنة الواحدة، وقال: يا سيد، عرفت أنك إنسان قاس تحصد حيث لم تزرع وتجمع من حيث لم تبذر فخفتُ ومضيت وأخفيت وزنتك في الأرض. هوذا الذي لك. فأجاب سيده وقال له: أيها العبد الشرير والكسلان عرفت أني أحصد حيث لم أزرع، وأجمع من حيث لم أبذر، فكان ينبغي أن تضع فضتي عند الصيارفة. فعند مجيئي كنت آخذ الذي لي مع رباً. فخذوا منه الوزنة وأعطوها للذي له وزنات لأن كل من له يُعطى فيزداد، ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه. والعبد البطال اطرحوه إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان)(١٠٧).

إن تمحيص إيمان المؤمنين يكون من خلال دين الإسلام الذي لا يتجزأ فيه إيمان المؤمن، بل لا يقبل منه غير الإيمان ولو افتدى. ومحمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء والمرسلين هو من يميز المؤمنين، ويفرزهم عمن سواهم كما يفرز الراعي الخراف عن الجداء (ومتى جاء ابن الإنسان

---

(١٠٦) متّى ٢٥: ١ - ١٣.

(١٠٧) متّى ٢٥: ١٤ - ٣٠.

في مجده وجميع الملائكة والقديسين معه فحينئذٍ يجلس على كرسي مجده، ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء. فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار، ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي الله رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم)(١٠٨).

إن الخراف هم المؤمنون الموحدون من قوم إسرائيل في أيام عيسى عليه السلام، وهم من يكونون نواة دين التوحيد خاتم الديانات إذاهم تمسّكوا بمنهج الله وشرعه، وعملوا به كما أراد الله. أما الجداء فهم اليهود غير المؤمنين الذين انضموا إلى جانب أعداء الدين الحق، فكان مقضياً عليهم بالهلاك. وتلك كانت رؤيا إينوخ حول ابن الإسنان، وأكدها عيسى عليه السلام، وأعطاها طابعاً إلهياً وحثّ خراف إسرائيل على التمسّك بإيمانها لتستقبل به خاتم الأنبياء، فتنجو بالإيمان إلى الأبد ولكن الخراف رفضت عيسى فيما بعد كما رفضته الجداء إلاّ الفئة القليلة المعدودة ممن تمسّكوا بدعوة عيسى السماوية دون تحريف.

عند ذلك يقول المختار للمؤمنين عن يمينه، (تعالوا يا مباركي الله رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم، لأني جعت فأطعمتموني عطشت فسقيتموني. كنت غريباً فآويتموني. عرياناً فكسوتموني. مريضاً فزرتموني، محبوساً فأتيتم إليّ. فيجيبه الأبرار حينئذٍ قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك. ومتى رأيناك غريباً فآويناك أو عريانا فكسوناك. ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك. فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم)(١٠٩).

أما الذين عن يساره فيقول لهم خاتم الأنبياء: (اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدّة لإبليس وملائكته لأني جعت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقوني. كنت غريباً فلم تأووني. عرياناً فلم تكسوني. مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني. حينئذٍ يجيبونه هم أيضاً قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك. فيجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا. فمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حياة أبدية)(١١٠).

وعند هذه النقطة التي وصل عيسى بها إلى مصير المؤمنين والكافرين تشارف مهمته على الانتهاء، حتى يمضي الله أمره في الخليقة التي خلقها لتسبيح الله وعبادته أبداً من خلال دين التوحيد، وبهذا يعلن أهله الموحدون خضوعهم لله وطاعتهم له ويجأرون بذلك مخبتين من خلال صوت الله وأذانه (الله أكبر الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً

---

(١٠٨) متّى ٢٥: ٣١ - ٣٩. (١٠٩) متّى ٢٥: ٣١ - ٣٩. (١١٠) متّى ٢٥: ٤١ - ٤٦.

رسول الله)، وهو النداء الذي تتزلزل به شمّ الجبال، ويتسلح به أهله في ضرّائهم وسرّائهم، ويندفعون به في وجه الموت الذي يقرّبهم من خالقهم ورسولهم محمد ﷺ.

وأعلن عيسى نقطة الانتهاء الفعلي ليكتمل ناموس الله (فكيف تكمل الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون)(١١١). وكان ذلك كشفاً لعيسى عن زيغ إيمان المؤمنين وفساد قلوبهم، إذ في تلك الساعة التي جاء فيها القوم ليقبضوا عليه قال يسوع للجموع (كأنه على لص خرجتم بسيوفٍ وعصيّ لتأخذوني. كل يوم كنت أجلس معكم، أعلّم في الهيكل ولم تمسكوني. وأما هذا كله فلقد كان لكي تكمل كتب الأنبياء. حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا)(١١٢).

ولم يتخلّ عيسى عليه السلام عن تبليغ أمانة الله حتى الرمق الأخير. فقد قبض عليه جنود الرومان لوشاية قومه به بتهم إثارة الشعب على الأمبراطورية بما يدعو إليه وبما يبشر به فمع علم القوم بشخصية عيسى ـ وهو المبشر بأحمد كما جاء في توراتهم ـ إلا أنهم حاربوه وكادوا له. لقد سأله رئيس الكهنة إذا كان هو المسيح ابن الله. فأنكر عيسى ذلك وقال: أنت تقول ذلك وليس أنا، أي أن عيسى ينكر إلصاق تهمة الكفر به بقولهم إنه ابن الله.

(سأله رئيس الكهنة وقال له: استحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله؟ قال له يسوع: أنت قلت وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء. فمزق رئيس الكهنة حينئذٍ ثيابه قائلا قد جدف)(١١٣).

ولم يتمكن القوم من عيسى كما تمنوا، وإن كانت الأناجيل تقتل عيسى بيد القوم وتصلبه فإن القرآن الكريم ينفي ذلك عنه، ويرد مقتل القوم إلى نحورهم فقال فيهم **﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلا. وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله. وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه ما لهم به من علم إلا اتّباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾**(١١٤).

وكان على التلاميذ بعد انتقال عيسى إلى ربه أن يمضوا في تبليغ الأمانة التي حُمِّلوها، تلك هي أمانة التبشير بمن بشر به عيسى، والبشاره هي أمانة الله إلى جميع أنبيائه ورسله على الأرض. نسمع بطرس وهو أحد التلاميذ يقول: (فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم له تسمعون في كل ما يكلمكم به. ويكون أن كل نفس لا

---

(١١١) متّى ٢٦: ٥٤.

(١١٢) متّى ٢٦: ٥٥ ـ ٥٦.

(١١٣) متّى ٢٦: ٦٤ ـ ٦٥.

(١١٤) النساء ١٥٥ ـ ١٥٧.

تسمع لذلك النبي تباد من الشعب. وجميع الأنبياء أيضاً من صموئيل فما بعده، جميع الذين تكلموا سبقوا وأنبأوا بهذه الأيام. أنتم أبناء الأنبياء والعهد الذي عاهد به الله آباءنا قائلاً لإبراهيم، وبنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض)[١١٥].

وبعث الله عيسى عليه السلام إلى قومه ليختم به أنبياء بنيَ إسرائيل ويعلن إليهم ذلك علناً وصراحة بالجهر والصورة والمثل والرمز، لعل القوم يتمكنون من تهيئة قلوبهم التي ران عليها كفرها لاستقبال من لا يتهاون في حق من حقوق الله وأوّلها توحيده المطلق وعبادته وحده وتسبيحه آناء الليل وأطراف النهار. (إليكم أولاً إذا أقام الله فتاه يسوع أرسله يباركّكم بردّ كلّ واحدٍ منكم عن شروره)[١١٦].

لقد كان مما وعاه التلاميذ عن نبيّهم عيسى وعيد الله بخراب الهيكل إلى الأبد، وهو علامة تبديدهم بالقتل والأسر والسبي، فلا تقوم لهم بعدها قائمة لنقضهم الميثاق والعهد. وقد اتّهم القوم التلميذ استيفانوس بالتجديف على موسى وعلى الله. أما التجديف فلأنه قال إن يسوع الناصري سينقض هذا الموضع (الهيكل) ويغيّر العوائد التي سلمنا إيّاها موسى[١١٧]. (ولم يشأ أن يدافع التلميذ عن نفسه أمام رئيس الكهنة ولكنه تركهم يستنتجون الجواب الذي استحق به الهيكل الخراب والدمار، وانحسار ظل الله عن قوم إسرائيل ليتحوّل إلى محمد وتحظى أمته بوعد الله إلى ابيها إبراهيم الحنفي بميراث النبوة وميراث الأرض التي باركها ربها. وأخذ يقصّ عليهم قصّة آثامهم وخزيهم وضلالهم منذ كانوا إلى يوم انحسار الظل عنهم إلى الأبد.

(قال رئيس الكهنة: أترى هذه الأمور هكذا هي. فقال: أيها الرجال الأخوة والآباء اسمعوا. ظهر إله المجد لأبينا إبراهيم وهو فيما بين النهرين قبلما سكن في حاران وقال له: اخرج من أرضك ومن عشيرتك وهلمّ إلى الأرض التي أريك. فخرج حينئذٍ من أرض الكلدانيين وسكن في حاران. ومن هناك نقله بعدما مات أبوه إلى هذه الأرض التي أنتم الآن ساكنون فيها. ولم يعطه فيها ميراثاً ولا وطأة قدم ولكن وعد أن يعطيها ملكاً له ولنسله من بعده، ولم يكن له بعد ولد. وتكلم الله هكذا. أن يكون نسله متغرباً في أرض غريبة. فيستعبدوه ويسيئوا إليه أربع مئة سنة. والأمة التي يُستَعبَدون لها سأدينها أنا يقول الله. وبعد ذلك يخرجون ويعبدونني في هذا المكان. وأعطاه عهد الختان، وهكذا ولد إسحق وختنه في اليوم الثامن. وإسحق ولد يعقوب ويعقوب ولد رؤساء الآباء الاثني عشر. ورؤساء الآباء حسدوا يوسف وباعوه إلى مصر وكان الله معه وأنقذه من جميع ضيقاته وأعطاه نعمة وحكمة

(١١٥) أعمال الرسل ٣: ٢٢ - ٢٦. (١١٦) أعمال الرسل ٣: ٢٦. (١١٧) أعمال الرسل ٦: ١٥.

مام فرعون ملك مصر ، فأقامه مدبراً على مصر وعلى كل بيته.

ثم أتى على كل أرض مصر وكنعان ضيق عظيم. فكان آباؤنا لا يجدون قوتاً. ولما سمع يعقوب أن في مصر قمحاً أرسل آباءنا أول مرة. وفي المرة الثانية استعرف يوسف إلى إخوته واستعلنت عشيرة يوسف لفرعون فأرسل يوسف واستدعى أباه يعقوب وجميع عشيرته خمسة وسبعين نفساً. فنزل يعقوب إلى مصر ومات هو وآباؤنا ونقلوا إلى شكيم ووضعوا في القبر الذي اشتراه إبراهيم بثمنٍ فضة. من بني حمور أبي شكيم. وكما كان يقرب وقت الموعد الذي أقسم الله عليه لإبراهيم كان ينمو الشعب ويكثر في مصر. إلى أن قام ملك آخر لم يكن يعرف يوسف. فاحتال هذا على جنسنا وأساء إلى آبائنا حتى جعلوا أطفالهم منبوذين لكي لا يعيشوا.

وفي ذلك الوقت ولد موسى وكان جميلاً جداً. فربي هذا ثلاثة أشهر في بيت أبيه. ولما نبذ اتخذته ابنة فرعون وربته لنفسها ابناً فتهذب موسى بكل حكمة المصريين، وكان مقتدراً في الأقوال والأعمال. ولما كملت له مدة أربعين سنة خطر على باله أن يفتقد إخوته بني إسرائيل. وإذ رأى واحداً مظلوماً حامى عنه وأنصف المغلوب إذ قتل المصري. فظن أن إخوته يفهمون أن الله على يده يعطيهم نجاة. وأما هم فلم يفهموا. وفي اليوم الثاني ظهر لهم وهم يتخاصمون فساقهم إلى السلامة قائلاً: أيّها الرجال أنتم إخوه. لماذا تظلمون بعضكم بعضاً. فالذي كان يظلم قريبه دفعه قائلاً من أقامك رئيساً وقاضياً علينا. أتريد أن تقتلني كما قتلتَ أمس المصري. فهرب موسى بسبب هذه الكلمة وصار غريباً في أرض مديان حيث ولد ابنين.

ولما كملت أربعون سنة ظهر له ملاك الرب في برية جبل سيناء في لهيب نار عُلّيقة. فلما رأى موسى ذلك تعجّب من المنظر. وفيما هو يتقدم ليتطلع صار إليه صوت الرب: أنا إله آبائك، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب. فارتعد موسى ولم يجسر أن يتطلع. فقال له الرب: اخلع نعل رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة. إني لقد رأيت مشقّة شعبي الذين في مصر، وسمعت أنينهم ونزلت لأنقذهم. فهلمّ الآن أرسلك إلى مصر.

هذا موسى الذي أنكروه قائلين من أقامك رئيساً وقاضياً، هذا أرسله الله رئيساً وفادياً بيد الملاك الذي ظهر له في العليقة. هذا أخرجهم صانعاً عجائب وآيات في أرض مصر وفي البحر الأحمر وفي البرية أربعين سنة.

هذا هو موسى الذي قال لبني إسرائيل نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم. له تسمعون. هذا هو الذي كان في الكنيسة في البرية مع الملاك الذي كان يكلمه في جبل سيناء ومع آبائنا. الذي قبل أقوالا حية ليعطينا إياها. الذي لم يشأ آباؤنا أن يكونوا طائعين له. بل

دفعوه ورجعوا بقلوبهم إلى مصر . قائلين لهرون: اعمل لنا آلهة تتقدم أمامنا . لأن هذا موسى الذي أخرجنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فعملوا عجلاً في تلك الأيام وأصعدوا ذبيحة للصنم وفرحوا بأعمال أيديهم. فرجع الله وأسلمهم ليعبدوا جند السماء كما هو مكتوب في كتاب الأنبياء . هل قرّبتم لي ذبائح وقرابين أربعين سنة في البرية يا بيت إسرائيل. بل حملتم خيمة مولوك ونجم إلهكم رَمْفان التماثيل التي صنعتموها لتسجدوا لها . فأنقلكم إلى ما وراء بابل .

وأما خيمة الشهادة فكانت مع آبائنا في البرية كما أمر الذي كلم موسى أن يعملها على المثال الذي كان قد رآه. التي أدخلها أيضاً آباؤنا إذ تخلّفوا عليها مع يشوع في ملك الأمم الذين طردهم الله من وجه آبائنا إلى أيام داوود . الذي وجد نعمة أمام الله والتمس أن يجد مسكناً لإله يعقوب. ولكن سليمان بنى له بيتاً. لكن العليّ لا يسكن في هياكل مصنوعات الأيادي . كما يقول النبي السماء كرسي لي ، الأرض موطىء لقدميّ. أيّ بيت تبنون لي ؟ يقول الرب ، وأيّ هو مكان راحتي ؟ . أليست يدي صنعت هذه الأشياء كلها ؟ .

يا قساة الرقاب وغير المختونين ، بالقلوب والآذان أنتم دائماً تقاومون الروح القدس. كما كان آباؤكم كذلك أنتم. أي الأنبياء لم يضطهده آباؤكم وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار الذي أنتم الآن صرتم مسلميه وقاتليه. الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه.

فلما سمعوا هذا حنقوا بقلوبهم وصرّوا بأسنانهم عليه. وأما هو فشخصَ إلى السماء وهو ممتلىء من الروح القدس. فرأى مجد الله ويسوع قائماً عن يمين الله. فقال: ها أنا أنظر السموات مفتوحة وابن الإنسان قائماً عن يمين الله. فصاحوا بصوت عظيم. وسدّوا آذانهم وهجموا عليه بنفس واحدة. وأخرجوه خارج المدينة ورجموه. والشهود خلعوا ثيابهم عند رجلي شاب يقال له شاول. فكانوا يرجمون إستفانوس. ثم جثا على ركبتيه وصرخ بصوت عظيم: يا رب لاتقم لهم هذه الخطية ، وإذ قال هذا رقد ، وكان شاول راضياً بقتله)[١١٨]

وبدأ انحراف التلاميذ عن طريق نبيهم عيسى شيئاً فشيئاً ، وأخذوا يحرّفون كلماته ووصاياه حول البشارة المحمدية التي حملها عيسى وبلغها ، كما حمّلها تلاميذه من بعده ، ولكنهم لم يحفظوا الأمانة كما أرادها عيسى وربه ، وبدأت بشارة من نوع جديد مرتد ، إنها البشارة أو الكرازة بعيسى من جديد فماذا تعني البشارة الجديدة المنحرفة؟ وكيف ينظر إليها الذين آمنوا بعيسى رباً أو إلهاً أو ابن إله ؟ بل ما موقف غير المؤمنين به من قوم إسرائيل ؟

الذين آمنوا بعيسى رباً اعتقدوا بقيامته من القبر بعد موته ، وبعودته مخلصاً إلى البشرية

---

(١١٨) أعمال الرسل ٧ .

جمعاء ومنقذاً لها. فقد أسقطوا عليه ما اختصّ به الله محمداً ﷺ، وبشر به أنبياء الله ورسله. وتجسّدَ التحريف والضلال فيما دعوا إليه بعد عيسى وذلك هو الكفر المبين **﴿لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيحُ ابن مريمَ وقال المسيحُ يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربّي وربّكم إنه من يشركْ بالله فقد حرّمَ الله عليه الجنةَ ومأواه النارُ وما للظالمين من أنصار. لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالثُ ثلاثةٍ وما من إلهٍ إلاّ إلهٌ واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليَمَسَّنّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم. ما المسيح ابن مريم إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ وأمّهُ صدّيقةٌ كانا يأكلان الطعام. انظرْ كيف نبيّن لهم الآياتِ ثم انظرْ أنّى يُؤفكون. قل يا أهلَ الكتابِ لا تَغلُوا في دينكم غيرَ الحقّ ولا تتّبعوا أهواءَ قومٍ قد ضلّوا من قبلُ وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل. لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريمَ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** (١١٩).

أمّا القوم الذين لم يؤمنوا بعيسى كما لم يؤمنوا بمن سبقه فقد أنكروه نبياً ورسولاً، وجاهدوا لإلصاق تهمة الكفر به وهم كافرون، ورأوا فيه ابن الفاحشة ـ نستغفر الله ـ فطاردوه ما استطاعوا، وأهانوه ما وسعهم الجهد حتى آل إليه أمرهم كما ذكرته أناجيلهم معه، فتجاوزوه رسولاً ونبياً وانتظروا مسيحاً رسمته خيالاتهم، وسيظلون منتظرين مسيحهم إلى أن تقوم الساعة.

ولا يستغرب عاقل على القوم انحرافهم عن نهج عيسى عليه السلام، فإن هذا الانحراف هو بعض تخلّيهم عنه في حياته، وفي كل محنة تعرض لها من قومه، وقد كان تلاميذه يفرون عنه كالشبح المذعور كما يقول القسيس المسلم عبد الأحد داوود. وانتعش في قلوب التلاميذ هوى وضلال بعد موت عيسى عليه السلام، وادعوا من السلطان الذي كان لعيسى ما زاد انحرافهم عن الطريق الحق، وما ذلك إلاّ لتضليل العقول ودفعها إلى الإيمان بيسوع ابناً لله وليس عبداً من عبيده (وفيما هما سائران (فيلبس والخصي) في الطريق أقبلا على ماء. فقال الخصي هوذا ماء ماذا يمنع أن أعتمد. فقال فيلبس: إن كنت تؤمن من كل قلبك يجوز. فأجاب وقال: أنا أومن أن يسوع المسيح هو ابن الله) (١٢٠).

وكان تحريف البشارة مقصوداً إليه ومتعمّدا من قبل قوم إسرائيل، فقد كان شاول الذي عرف فيما بعد باسم بولس إسرائيلياً فريسيّاً متعصّباً ضدّ المؤمنين بعيسى، وكان يهددهم ويتوعّدهم بالقتل والسجن، ويسطو (على الكنيسه وهو يدخل البيوت ويجرّ رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن. وكان شاول لم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ الرب. فتقدم إلى

(١١٩) المائدة ٧٢ ـ ٧٨.
(١٢٠) أعمال الرسل ٨: ٣٦.

رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً ونساءً يسوقهم موثقين إلى أورشليم)[١٢١].

ولعلّ هذا الإسرائيلي المتعصّب قد أدرك أن تهديده المؤمنين بعيسى علانية لا يجديه نفعاً، ولا يعمل على تقويض دعوة عيسى الموحدة توحيداً مطلقاً، والقائمة على أساس التبشير بخاتم الأنبياء والشهيد عليهم فلجأ إلى سبيل آخر يستطيع من خلاله هدم الدعوة الموحدة، وهو ادعاء المسيحية بعد أن خلع يهوديته وفريسيته بطريقة مسرحية، وأعلن فجأة وبقدرة يسوع أنه مسيحي مخلص.

لقد طلب بولس (شاول) من رئيس الكهنة أن يعطيه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات المؤمنة، ويكون له الحق في أن يوثق كل مؤمن يجده في الطريق ويرسله إلى أورشليم (وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق، فبغتة أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاول شاول، لماذا تضطهدني؟ فقال من أنت يا سيد؟ فقال الرب أنا يسوع الذي أنت تضطهده. فقال وهو مرتعد ومتحيّر: ماذا تريد أن أفعل؟. فقال له الرب: قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل. وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً. فنهض شاول عن الأرض وكان هو مفتوح العينين ولا يبصر أحداً وكان له ثلاثة أيام لا يبصر فلم يأكل ولم يشرب)[١٢٢].

وحتى تكتمل المسرحية الشاولية (البولسية) فقد جعل شاول الربَّ يُري تلميذ عيسى حنانيا في دمشق رؤيا يأمره الرب فيها بقوله: (قم واذهب إلى الزقاق الذي يقال له المستقيم، واطلب من بيت يهوذا رجلاً طرسوسياً اسمه شاول. اذهب لأن هذا (أي شاول) لي إناء مختار ليحمل اسمي أمام أمم وملوك بني إسرائيل، لأني سأريه كم ينبغي أن يتألم من أجل اسمي. فمضى حنانيا ودخل البيت ووضع عليه يديه وقال: أيها الأخ شاول، وقد أرسلني الرب يسوع الذي ظهر لك في الطريق الذي جئت فيه لكي تبصر وتمتلىء من الروح القدس. فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور، فأبصر في الحال وقام واعتمد وتناول طعاماً وتقوّى.. وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله. فبهت جميع الذين كانوا يسمعون وقالوا: أليس هذا هو الذي أهلك في أورشليم الذين يدعون بهذا الاسم؟. وقد جاء إلى هنا ليسوقهم موثقين إلى رؤساء الكهنة. وأما شاول فكان يزداد قوّة ويحير اليهود الساكنين في دمشق محققاً أن هذا هو المسيح)[١٢٣].

ويبدأ حبك مسيحية اليوم التي يدين بها العالم الغربي، والقائمة على مبدأ التثليث وعلى

---

(١٢١) أعمال الرسلّ ٩: ١.	(١٢٢) أعمال الرسل ٩: ٤ ـ ٨.	(١٢٣) أعمال الرسل ٩.

صلب المسيح، وهذا هو الأساس الذي نجحت اليهودية في إرساء دعائمه حتى تعمل على تقويض التوحيد وهدم مبادئه من النفوس ليتسنّى لأفعى بني إسرائيل إحكام دورتها حول العالم بعد تدمير العالم وإشاعة الفوضى فيه لإقامة أمبراطورية يهودية موهومة على رأسها ملك من نسل داوود، حتى وإن كان داوود وسليمان وغيرهما ليسوا صريحي النسب الذي يدّعيه القوم.

لقد أرسل شاءور حاخام مدينة آرل بفرنسا سنة ١٤٩٨م رسالة إلى السنهدرين اليهودي في الآستانة يستشيره في عدة مسائل تواجه يهود فرنسا آنذاك. فجاءه الرد بتوقيع أمير القسطنطينية بما يلي:

بمقتضى قولكم، إن ملك فرنسا يجبركم على اعتناق الدين المسيحي فاعتنقوه. غير أنه يجب عليكم أن تجعلوا شريعة موسى راسخة في قلوبكم.

وبمقتضى قولكم إنهم يجردونكم من أموالكم، فاجعلوا من أولادكم تجاراً كي يتمكّنوا من تجريدهم من أملاكهم رويداً رويداً.

وبمقتضى قولكم إنهم يعتدون على حياتكم فاجعلوا من أولادكم أطبّاء حتى يتمكنوا من دخول بيوتهم لتقصّي أحوالهم وإزهاق أرواحهم.

أما بمقتضى قولكم إنهم يسومونكم سوء العذاب، فعلّموا أولادكم القانون حتى يكونوا في صفّ المدعي والمدعى عليه. وبذلك تستطيعون أن تبرئوا المجرم وتدينوا البريء فتناصروا الصديق وتنتقموا من العدو (١٢٤).

واستطاع بولس من خلال المسيحية التي أرادها قومه لهذا العالم أن يعيد تزوير العهد والميثاق وتحريف البشارة الأحمدية.

لقد كان أول مظاهر افتراء بولس اليهودي بعد إعلانه المسيح ابناً لله بناء الكنائس السريع في فلسطين، بعد أن كان ذلك محظوراً على أتباع عيسى. وهذا بلا شك يسهل على أنصار بولس اليهود عملهم الهدمي من خلال سهولة الالتقاء بهم في هذه الكنائس. (وأمّا الكنائس في جميع اليهود والجليل والسامرة فكان لها سلام، وكانت تُبنى وتسير في خوف الرب وبتعزية الروح القدس كانت تتكاثر) (١٢٥).

وادّعى بولس من المعجزات ما لم تؤتَ إلاّ لعيسى. وذلك وحده ينقض دعوى بولس،

---

(١٢٤) القوى الخفية لليهودية العالمية (الماسونية) داوود عبد العفو سنقرط ص ١٧٠ ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ ـ دار الفرقان. عمان.

(١٢٥) أعمال الرسل ٩: ٢٢.

إذ إنه لم يؤمن بعيسى في حياته، ولم يؤتَ من سلطان المعجزات في أيام عيسى، فكيف تتأتى له بعد موت عيسى وانتقاله إلى ربه؟ وليس هذا فحسب، فقد بات بولس يمنح التلاميذ سلطان الشفاء وذلك ما لم يتوفّر لهم مع رسولهم عليه السلام.

فلقد أحيا بطرس التلميذة طابيثا وهو أحد تلاميذ عيسى الذين تخلوا عنه في حياته. وليس ذلك إلاّ من قبيل دجل الدجالين وادّعاء المتنبئين الذين حذّر عيسى منهم، ممن يوهمون ضعاف الإيمان أنهم أمام ميت سيحيونه باسم الرب يسوع بعد الاتفاق بالطبع مع مدّعي الموت نفسه، ومثل ذلك قد شاهدته بنفسي في قرية ميت دمسيس المصرية القريبة من القاهرة، حيث وقف القسيس في باحة الكنيسة فوق رأس امرأة ادعى صرعها واشترط أن يترك مع المصروعة منفردين وفجأة وبقدرة قادر إذا بالمصروعة تصبح من العقلاء وتتحدّث باسم الرب يسوع بعد أن نهر القسّيس الشياطين التي في جسدها، وأمرها بالخروج من الجسد فاستجابت الشياطين لسلطانه. وهكذا تتشعب طريق عيسى إلى شعب وتتفرع دربه إلى تفرعات ملتوية لم يَعُدْ يُعرف لها منفذ أو سبيل.

(لقد أخرج بطرس الجميع خارجاً، وجثا على ركبتيه وصلّى ثم التفت إلى الجسد وقال: يا طابيثا قومي. ففتحت عينيها. ولما أبصرت بطرس جلست فناولها يده وأقامها، ثم نادى القدّيسين والأرامل وأحضرها حية فصار ذلك معلوماً في يافا، فآمن كثيرون بالرب)[١٢٦].

وتمضي الأناجيل لتحكي أخبار يهود حلّ الإيمان في قلوبهم فجأة، من بعد تمرّد وعصيان وضلال. وكأن رسل الله وأنبياءه إلى القوم لم يستطيعوا التأثير فيهم، وأمّا مدعو النبوة والإيمان فهم الأشدُّ تأثيراً وغلبة على ضلال القوم وكفرهم، وهذا نفسه ما أشار إليه عيسى عليه السلام. وكان إيمان القوم بعيسى الرب والإله وابن الإله وهذا هو الكفر المبين.

وكان على كل يهوديّ يحل عليه روح القدس فجأة، أن ينتزع من أحد تلاميذ عيسى مباركته واعترافه بهذا الإيمان الجديد بالرب يسوع، وذلك يكون أفعل في نفوس المسيحيين، وفي كل مرة يكون الاعتراف نتيجة رؤيا يريها الرب يسوع لهذا التلميذ، وفيها يأمره الرب أن يبارك ذلك المؤمن الجديد بيسوع ابن الإله.

فكما رأى شاول رؤيا يؤمر فيها باستدعاء حنانيا لمباركته رأى كرنيليوس رؤيا يؤمر فيها باستدعاء بطرس إليه ليجيزه في مهمته الجديدة المرسومة إليه. (فنزل بطرس إلى الرجال الذين أُرسلوا من قبل كرنيليوس وقال: ها أنا الذي تطلبونه. ما هو السبب الذي حضرتم لأجله؟ فقالوا: إن كرنيليوس قائد مئة، رجلاً باراً وخائف الله ومشهوداً له من كل أمة

(١٢٦) أعمال الرسل ٩: ٤٠ - ٤٣.

اليهود أوحي إليه بملاك مقدس أن يستدعيك إلى بيته ويسمع منك كلاماً. فدعاهم إلى داخل وأضافهم. ثم في الغد خرج بطرس معهم وأناس من الأخوة الذين من يافا رافقوه.

وفي الغد دخلوا قيصرية، وأمّا كرنيليوس فكان ينتظرهم وقد دعا أنسباءه وأصدقاءه الأقربين. ولما دخل بطرس استقبله كرنيليوس وسجد واقعاً على قدميه. فأقامه بطرس قائلاً: قم أنا أيضاً إنسان، ثم دخل وهو يتكلم معه ووجد كثيرين مجتمعين فقال لهم: أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودي أن يلتصق بأحد أجنبي أو يأتي إليه. وأما أنا فقد أراني الله أن لا أقول عن إنسان ما إنه دنس أو نجس. فلذلك جئت من دون مناقضة إذ استدعيتموني. فأستخبركم لأي سبب استدعيتموني؟. فقال كرنيليوس: منذ أربعة أيام إلى هذه الساعة كنت صائماً. وفي الساعة التاسعة كنت أصلّي في بيتي وإذا رجل قد وقف أمامي بلباس لامع وقال: يا كرنيليوس، سمعت صلاتك وذكرت صلواتك أمام الله، فأرسل إلى يافا واستدع سمعان الملقّب بطرس. إنه نازل في بيت سمعان رجل دبّاغ عند البحر. فهو متى جاء يكلمك. فأرسلت إليه حالاً وأنت فعلت حسناً إذا جئت. والآن نحن جميعاً حاضرون أمام الله لنسمع جميع ما أمرك به الله) (١٢٧).

وبطبيعة الأمر فإن على بطرس عندئذ أن يتكلم بكلمات روحانية منتقاه ينسبها إلى الرب يسوع حتى يكون مصدقاً من القوم، ويشرع بطرس في تلقين مدّعي المسيحية ما اتفق عليه من تأليه عيسى ونسبة البشارة إليه وختم النبوة (ففتح بطرس فاه وقال: بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه بل في كل أمة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده الكلمة التي أرسلها إلى بني إسرائيل يبشر بالسلام بيسوع المسيح. هذا هو رب الكل.أنتم تعلمون الأمر الذي صار في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل بعد المعمودية التي كرز بها يوحنا. يسوع الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة، الذي جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتَسلّط عليهم إبليس، لأن الله كان معه. ونحن شهود بكل ما فعل في كورة اليهودية وفي أورشليم، الذي أيضاً قتلوه معلقين إياه على خشبة. هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأُعطِيَ أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق الله فانتخبهم. لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات. وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله دياناً للأحياء والأموات. له يشهد جميع الأنبياء أن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا.

فبينما بطرس يتكلم بهذه الأمور حلّ الروح القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة. فاندهش المؤمنون الذين من أهل الختان كل من جاء مع بطرس لأن موهبة الروح القدس قد

(١٢٧) أعمال الرسل ١٠: ٢١ - ٣٣.

انسكبت على الأمم أيضاً، لأنهم كانوا يسمعونهم يتكلمون بألسنته ويعظمون الله)[١٢٨].

إن كلمات بطرس هذه مما يؤكد يقيناً بشارة التوراة بمحمد وهو المخلص لهذه البشرية كافة، وهو الشهيد على الأنبياء، وقد أُعطي الشفاعة للمؤمنين من أمته الموحدة، وإن انتحال بطرس لهذه العلامات المحمدية ونسبتها إلى عيسى لما يجزم برغبة القوم وإصرارهم على هدم دعوة التوحيد من خلال تقويض دعوة عيسى. وادّعاء قوم إسرائيل أو المؤمنين منهم بهذه الدعوة، إنما هو أمر مرسوم سعوا إليه ولا يزالون، حين جعلوا نصب أعينهم هدف القضاء على الأديان ليسهل عليهم حكم العالم وراء قيادة الشيطان الذي جعلوه معبودهم. وأقاموا له رسمياً معابد في أنحاء الولايات المتحدة، وأطلقوا على كتابهم المقدس اسم (انجيل الشيطان) وليس توراة الشيطان. ومما جاء في هذا الإنجيل نكران وجود الله إلاّ في العقول المريضة التي خلقته من عدم. كما يصرح بأن الأنبياء والرسل كذابون، وأن لا قيامة ولا دينونة. وأن عباد الشيطان هم الغالبون الفائزون إلى الأبد. وإن الحياة مال وجنس، وأنه ليس من الواجب أن تبذل حياتك لقومك أو لدينك.. ويسخر هذا الانجيل من المسيح وأمه[١٢٩].

وتعود الأناجيل الشاولية المسيحية إلى فكرة الخلاص بعيسى وهو من سيأتي بالخلاص والتوبة إلى جميع شعب إسرائيل ويغفر لهم خطاياهم، ويقبل توبة لسانهم، وإن لم تكن قلوبهم تائبة. ويشرح بولس ذلك كله محرّفاً ومُزيّفاً ومضلّلاً، ويخاطب قومه فيقول لهم:

(أيها الرجال الإسرائيليون والذين يتقون الله اسمعوا. إله شعب إسرائيل هذا اختار آباءنا ورفع الشعب في الغربة في أرض مصر. وبذراع مرتفعة أخرجهم منها. ونحو مدة أربعين سنة احتمل عوائدهم في البرية. ثم أهلك سبع أمم في أرض كنعان وقسم لهم أرضهم بالقرعة وبعد ذلك في نحو أربعمائة وخمسين سنة أعطاهم قضاة حتى صموئيل النبي. ومن ثم طلبوا ملكاً فأعطاهم الله شاول بن قيس رجلاً من سبط بنيامين أربعين سنة. ثم عزله وأقام لهم داوود ملكاً الذي شهد له أيضاً إذ قال: وجدت داوود بن يسّ رجلاً حسب قلبي الذي سيصنع كل مشيئتي، من نسل هذا حسب الوعد، أقام الله لإسرائيل مخلصاً يسوع. إذ سبق يوحنّا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب إسرائيل. ولما صار يوحنا يكمل سعيه جعل يقول: من تظنون أني أنا؟ لست أنا إيّاه، لكن هوذا يأتي بعدي الذي لست مستحقاً أن أحلّ حذاء قدميه.

أيها الرجال الأخوة بني جنس إبراهيم، والذين بينكم يتّقون الله إليكم أُرسلت كلمة هذا الخلاص. لأن الساكنين في أورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا وأقوال الأنبياء التي تقرأ كل

---

(١٢٨) أعمال الرسل ١٠: ٣٤ ـ ٤٨. (١٢٩) القوى الخفية ١٦٠.

سبت تمموها إذ حكموا عليه. ومع أنهم لم يجدوا علةً واحدةً للموت طلبوا من بيلاطس أن يقتل. ولما تمموا كل ما كتب عنه أنزلوه عن الخشبة ووضعوه في قبر. ولكن الله أقامه من الأموات. وظهر أياماً كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى أروشليم، الذين هم شهوده عند الشعب. ونحن نبشركم بالموعد الذي صار لآبائنا. إن الله قد أكمل هذا لنا نحن أولادهم إذ أقام يسوع كما هو مكتوب أيضاً في المزمور الثاني أنت ابني أنا اليوم ولدتك.. فليكن معلوماً عندكم أيها الرجال الاخوة أنه بهذا يُنادي لكم بغفران الخطايا. وبهذا يتبرر كل من يؤمن من كل ما لم تقدروا أن تتبرروا منه بناموس موسى. فانظروا لئلا يأتي عليكم ما قيل في الأنبياء. انظروا أيها المتهاونون وتعجبوا واهلكوا لأنني عملاً أعمل في أيامكم. عملاً لا تصدقون إن أخبركم به أحد)[130].

إن المسيحية التي أرادها بولس هي مسيحية الشيطان المثلثة ولكن ما جبلوا عليه من عناد ومخالفة لكل أمر، حملهم كذلك على رفض ما رسموه لبولس (شاول)، وقد مضى هذا يحثهم على العمل بالمسيحية الجديدة، ويهددهم بأنه سيتحوّل بها إلى سواهم، اذا هم رفضوها، ولعل بولس قد ظن نفسه الإله او الرب أو ابن الإله حين جعل لنفسه حق تحويل الدعوة من هؤلاء إلى أولئك أو سواهم حتى وإن كانت دعوة شيطان رجيم.

وأخذ بولس يستثير رعاع قومه بما أوتي من حماسة وبلاغة لسان، (ولما انفضّت الجماعة تبع كثيرون من اليهود والدخلاء المتعبدين بولس وبرنابا اللذين كانا يكلمانهم ويقنعانهم أن يثبتوا في نعمة الله. وفي السبت التالي اجتمعت كل المدينة تقريباً لتسمع كلمة الله. فلما رأى اليهود الجموع امتلأوا غيرة، وجعلوا يقاومون ما قاله بولس مناقضين ومجدّفين فجاهر بولس وبرنابا وقالا: كان يجب أن تكلموا أنتم أولا بكلمة الله ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقّين للحياة الأبدية، هوذا نتوجه إلى الأمم. لأن هكذا أوصانا الرب. قد أقمتك نوراً للأمم لتكون خلاصاً إلى أقصى الأرض.. ولكن اليهود حركوا النساء المتعبدات الشريفات وجوه المدينة وأثاروا اضطهاداً على بولس وبرنابا)[131].

وهكذا شأن القوم مع كل من يرسل إليهم أو ينصبونه بأيديهم، ويكون نصيبه القتل أو الرجم أو الطرد أو إثارة الشغب عليه. (فانشق جمهور المدينة فكان بعضهم مع اليهود وبعضهم مع الرسولين. فلما حصل من الأمم واليهود مع رؤسائهم هجوم ليبغوا عليها ويرجموهما شعرا به، فهربا إلى مدينتي ليكأونية لستره ودربة وإلى الكورة المحيطة وكانا هناك يبشران)[132].

---

(١٣٠) أعمال الرسل ١٣.

(١٣١) أعمال الرسل ١٣: ٤٣ ـ ٥٠.

(١٣٢) أعمال الرسل ١٤: ٤ ـ ٧.

ولعلّ مما كان يثير القوم على بولس بعد كل وقفة تبشير لـه مخـالفتـه الأصل الذي اتفقوا عليه، فقد أرادوا أن يحصر بولس دعوته العيسوية المحرّفة في قوم إسرائيل بهدف تثبيت فكرة الاختيار فيهم والخلاص، وتحقيق الوعد المزعوم إليهم، ولكن طموح بولس ونجاحه في توسيع دعوته الجديدة قد شجعه على تغيير الطريق المرسوم والتصرف فيه بما يتناسب مع طموحاته الذاتية التي جعلت منه أبا المسيحية. وفتح للأمم جميعها باب الإيمان، مما أغضب قومه وأثارهم عليه، فجاء (يهود من أنطاكية إيقونية وأقنعوا الجموع فرجموا بولس وجرّوه خارج المدينة ظانين أنه قد مات. ولكن إذ أحاط به التلاميذ قام ودخل المدينة. وفي الغد خرج مع برنابا إلى دربه فبشرا في تلك المدينة وتلمذا كثيرين.. ويعظانهم أن يثبتوا في الإيمان وأنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله... ولما حضرا وجمعا الكنيسة أخبرا ما صنع الله معهما، وأنه فتح للأمم باب الإيمان)[١٣٣].

وبات من المحتّم على بولس أن يلوي عنق الدعوة بما يتناسب مع الأمم التي دخلت دينه الجديد المرتد، وأخذ يزيد وينقص عليه بما يسهل الأمر على معتنقي دينه، وإن هذه التسهيلات لأعظم دليل على ارتداده عن جوهر دعوة عيسى. وبدأ بولس بالختان وهو سنة ابراهيم من ربه، ومضت هذه السّنّة في القوم من خلال رسالة موسى إليهم، ولكنه أي الختان كان شاقاً على الوثنيين وكان بينهم وبين بولس وبرنابا منازعة حول ذلك، ولم يكن صعباً على بولس حل هذه المشكلة من أساسها، فألغى الختان حتى بات من صميم مسيحية اليوم. وأضحت المسيحية خليطاً من الوثنية وضلال اليهودية المحرفة التي ضيّعتْ أصل الشريعة، ووقفتْ عند الختان الذي رأت فيه السبيل الوحيد للخلاص.

(وانحدر قوم من اليهودية، وجعلوا يعلمون الأخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا. فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثة ليست بقليلة معهم رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون منهم إلى الرسل والمشايخ إلى أورشليم من أجل هذه المسألة.. ولما حضروا إلى أورشليم قبلتهم الكنيسة والرسل والمشايخ فأخبروهم بكل ما صنع الله معهم. ولكن قام أناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين وقالوا: إنه ينبغي أن يختنوا أو يوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى.

فاجتمع الرسل والمشايخ لينظروا في هذا الأمر. فبعدما حصلت مباحثة كثيرة قام بطرس وقال لهم: أيها الرجال الأخوة، أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمي يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون. والله العارف القلوب شهد لهم معطياً لهم الروح القدس كما لنا

---

(١٣٣) أعمال الرسل ١٤: ١٨.

أيضا. ولم يميّز بيننا وبينهم بشيء. إذ طهّر بالإيمان قلوبهم. فالآن لماذا يجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطعْ آباؤنا ولا نحن أن نحمله؟. لكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص كما أولئك أيضاً. لذلك أنا أرى أن لا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم. بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنا والمخنوق والدم.

حينئذٍ رأى الرسل والمشايخ مع كل الكنيسة أن يختاروا رجلين منهم فيرسلوهما إلى أنطاكية مع بولس وبرنابا: يهوذا الملقب برسابا وسيلا رجلين متقدمين في الإخوة. وكتبوا بأيديهم هكذا: الرسل والمشايخ والأخوة يهدون سلاماً إلى الأخوة الذين من الأمم في أنطاكية وسورية وكليكية. اذ قد سمعنا أن أناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس، الذين نحن لم نأمرهم، رأينا وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم مع حبيبنا برنابا وبولس. رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح. فقد أرسلنا يهوذا وسيلا وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاهاً. لأنه قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة: أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا التي إن حفظتم منها فنعما تفعلون. كونوا معافين.. فهؤلاء لما أطلقوا جاؤوا إلى أنطاكية وجمعوا الجمهور ودفعوا الرسالة فلما قرأوها فرحوا لسبب التعزية)[١٣٤].

هكذا أسقط بولس التكاليف شيئاً فشيئاً، وهو ما أدى إلى الخلاف بين برنابا وهو أحد تلاميذ عيسى وبين بولس اليهودي، فكانت بينهما الفرقة التي لا رجعة بعدها. وافترق طريقهما. (ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا: لنرجع ونفتقد إخوتنا في كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب كيف هم. فأشار برنابا أن يأخذا معهما أيضاً يوحنا الذي يدعى مرقس. وأما بولس فكان يستحسن أن الذي فارقهما من بمفيلية ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما. فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر، وبرنابا أخذ مرقس وسافر في البحر إلى قبرس. وأما بولس فاختار سيلاً وخرج مستودعاً من الأخوة إلى نعمة الله فاجتاز في سورية وكليكية يشيد الكنائس)[١٣٥].

وأوغل بولس في مسيحيته وأوردها موارد الشيطان، حين أخذ يدعو الوثنية إلى الإيمان من خلال معبوداتهم وأصنامهم، وقد أرسى بذلك دعائم التماثيل والهياكل التي تمتلىء بها كنائسهم، حتى باتت عبادتهم من خلالها وإليها، وفي هذا إقرار لعبادة الوثن وذلك هو الشرك الذي لا يغفره الله.

---

(١٣٤) أعمال الرسل ١٥. **(١٣٥) أعمال الرسل ١٥: ٢٧ - ٤١.**

وقف بولس أمام الأثينيين يدعوهم..

(أيها الرجال الأثينيون أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيراً. لأنني بينما كنت أجتاز وانظر إلى معبوداتك وجدت أيضاً مذبحاً مكتوباً عليه لإله مجهول. فالذي تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادي لكم به. الإله الذي خلق العالم وكل ما فيه، هذا إذ هو رب السماء والأرض. لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيادي، ولا يخدم بأيادي الناس كأنه محتاج إلى شيء. إذ هو يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء. وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض. وختم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه، مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً. لأبنا به نحيا ونتحرك ونوجد، كما قال بعض شعرائكم أيضاً، لأننا أيضاً ذريته. فإذا نحن ذرية الله لا ينبغي أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع إنسان. فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل، لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات) [١٣٦].

دعوة لم يستطع بولس تحديدها إلى الوثنيين، لأنها صنع يده، فأخذ يخلطها بمعبودات قومه وفيها العجل الذي جعلوه إلهاً، وأضاف إليها دعوة التثليث التي ابتكرها، فكانت الدعوى خليطاً من اوثان الوثنيين وضلال اليهود وشرك المؤمنين بدعوته الذين لم يبق لهم من المسيح غير اللفظ - لقد أمضى الله تعالى في هؤلاء حكمه، فقال فيهم سبحانه **﴿فبما نقْضِهم ميثاقَهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرّفون الكلمَ عن مواضعه ونسوا حظّاً مما ذُكِرُوا به ولا تزالُ تَطّلعُ على خائنةٍ منهم إلاّ قليلاً منهم فاعفُ عنهم واصفحْ إن الله يحب المحسنين. ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظّاً مما ذكّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. وسوف ينبّئهم الله بما كانوا يصنعون﴾** [١٣٧].

وإن مما سهل على بولس تحريفه استعداد قومه إلى ذلك بما عرفوا عنه من عناد القلوب وقَساوتها، وأوتي هذا من مهارة تزيين الباطل ما لا يستطيعه غير الشيطان نفسه، وهو يؤكد مرة أخرى أن بولس قد قصد إلى تقويض دعوة عيسى وذلك لا يستطيعه غير المتبحر في توراة القوم التي جاهرت بأصل دعوة التوحيد، وهي تدعو إلى (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) فتصدّى بولس لذلك مستعيناً بحماسه وبلاغته واندفاعه في طريق الشيطان، وهو يظن أنه الغالب على أمره **﴿من الذين هادوا يحرّفون الكلمَ عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا**

(١٣٦) أعمال الرسل ١٧: ٢١ - ٣٠. (١٣٧) المائدة ١٣ - ١٤.

واسمعْ غير مُسْمَعٍ وراعِنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين. ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمعْ وانظُرْنَا لكان خيراً لهم وأقْوَمَ. ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً. يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنّا أصحابَ السبت وكان أمرُ الله مفعولا. إن الله لا يغفر أن يُشرَك به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشركْ بالله فقد افترى إثماً مبيناً.. ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبْتِ والطاغوتِ ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لَعَنهم الله ومن يلعنِ الله فلن تجدَ له نصيراً﴾ (١٣٨).

وكان قوم بولس على علم مسبق بزيف دعوته وما يبشر به، فأخذوا يهزأون بدعوته وهم أصحابها (فشرع قوم من اليهود الطوافين المعزِّمين أن يسموا على الذين بهم الأرواح الشريرة باسم الرب يسوع قائلين: نقسم عليك بيسوع الذي يكرز به بولس) (١٣٩).

وأرسى بولس ـ ضمن ما أرسى في دعوته المرتدة ـ أسس الوساطة بين العبد وربه، وجعل القسس ورجال الدين هم الوسطاء الذين يقبلون خطايا الخطائين وذنوب المذنبين مهما عظمت ويغفرونها لهم. فهم مانحو التوبة التي شرعها لهم بولس وكيل الله على الأرض. (ومن ميليتس أرسل إلى أفسس واستدعى قسوس الكنيسة. فلما جاؤوا إليه قال لهم: أنتم تعلمون من أول يوم دخلتُ آسيا كيف كنت معكم كل الزمان أخدم الرب بكل تواضعٍ ودموع، وبتجارب أصابتني بمكايدة اليهود، كيف لم أؤخر شيئاً من الفوائد الاّ وأخبرتكم وعلمتكم به جهراً، وفي كل بيت شاهداً لليهود واليونانيين بالتوبة إلى الله والإيمان الذي بربنا يسوع المسيح والآنَ ها أنا أذهب إلى أورشليم مقيداً بالروح، لا أعلم ماذا يصادفني هناك. غير أن الروح القدس يشهد في كل مدينة قائلاً إن وُثُقاً وشدائد تنتظرني، ولكنني لست أحتسب لشيء، ولا نفسي ثمينة عندي حتى أتم بفرح سعيي والخدمة التي أخذتها من الرب يسوع، لأشهد بشارة نعمة الله. والآن ها أناأعلم أنكم لا ترون وجهي أيضاً، أنتم جميع الذين مررت بينكم كارزاً بملكوت الله) (١٤٠).

ومع تحريف بولس دعوة عيسى ـ تحت سمع قومه وبصرهم ـ فقد كان على يقين من أن قومه في أورشليم سيقاومونه على هذه الردّة الناموسية الموسوية، وكان عليهم أن يشركوا بولس في تخبّطهم وتزييفهم لجوهر التوحيد الموسوي أو العيسوي، وبدا ذلك في آراء بولس التي لم تكن تثبت على حال، وكان يتشكل في كل شكل، ولعل سبب ذلك هو عدم وجود

(١٣٨) النساء ٤٦ ـ ٤٨، ٥١ ـ ٥٢.
(١٣٩) أعمال الرسل ١٩: ١٣.
(١٤٠) أعمال الرسل ٢٠: ١٧ ـ ٢٥.

أساس ثابت ينطلق منه، وإن دعوته قد أسست على الرمال (أما الزبد فيذهب جفاءً)، وذلك يولد الحيرة والضياع والضلال **﴿قل أندعـو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرّنا ونُردُّ على أعقابنا بعد إذْ هدانا اللهُ كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران﴾** (١٤١). فهو روماني أمام قائد المئة الروماني في اليونان (فلما مدوه للسياط قال بولس لقائد المئة الواقف: أيجوز لكم أن تجلدوا إنساناً رومانياً غير مقضي عليه؟ فإذ سمع قائد المئة ذهب إلى الأمير وأخبره قائلاً: انظر ماذا أنت مزمع أن تفعل لأن هذا الرجل روماني فجاء الأمير وقال له: قل لي أنت روماني؟ فقال نعم. فأجاب الأمير أما أنا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية (الجنسية الرومانية) فقال بولس: أما أنا فقد ولدت فيها. وللوقت تنحّى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه) (١٤٢).

واستطاع بولس التأثير في القائد وإيهامه بصدقه، مما حمله على وجوب التيقن من سبب ثورة القوم علىّ بولس، وهو المخلص في الدعوة (وفي الغـد إذ كان يريد أن يعلم اليقين لماذا يشتكي اليهود عليه حله من الرباط وأمر أنْ يحضر رؤساء الكهنة وكل مجمعهم. فأحدر بولس وأقامه لديهم، فتفرس بولس في المجمع، وقال: أيها الرجال الأخوة، إني بكل ضمير صالح قد عشت لله إلى هذا اليوم. فأمر حنانيا رئيس الكهنة الواقفين عنده أن يضربوه على فمه. حينئذ قال له بولس: سيضربك الله أيها الحائط المبيض. أفأنت تحكم عليّ حسب الناموس وأنت تأمرني بضربي مخالفاً للناموس؟ فقال الواقفون أتشتم رئيس كهنة الله؟ فقال بولس: لم اكن أعرف أيها الأخوة أنه رئيس كهنة لأنه مكتوب رئيس شعبك لا تقل فيه سوءاً) (١٤٣).

إن بولس لم يجهل رئيس الكهنة، وكيف يمكن له أن يجهله مع ما للكهنة من دور في حياة القوم وفي تضليلهم وإضلالهم. ولعل في ادعاء بولس الجهل تذكيراً لرئيس الكهنة بما هو متفق عليه. وبما هو مكتوب في ناموس موسى الذي ينهى اليهودي عن إيذاء اليهودي بينما يحل له ذلك مع الغريب:

وليس ذلك فحسب، بل اندفع بولس يعلنها صريحة أمام الشهود في أنه فريسيّ ابن فريسي مهما حاول التستّر والإيهام (ولما علم بولس أن قسماً منهم صدوقيّون والآخر فريسيون، صرخ في المجتمع أيّها الرجال الأخوة أنا فريسي ابن فريسي. على رجاء قيامة الأموات أنا أحاكم. ولما قال هذا حدثت منازعة بين الفريسيين والصدوقيين وانشقت الجماعة لأن الصدوقيين يقولون إنه ليس قيامة ولا ملاك ولا روح. وأمّا الفريسيون فيقرّون بكل ذلك. فحدث صياح عظيم ونهض كتبة قسم الفريسيين، وطفقوا يخاصمون قائلين: لسنا نجد

---

(١٤١) الأنعام ٧١. (١٤٢) أعمال الرسل ٢٥. (١٤٣) أعمال الرسل ٢٣: ١ ـ ٥.

شيئاً ردياً في هذا الإنسان. وإن كان روح أو ملاك قد كلمه فلا نحاربَنَّ الله)[١٤٤].

فإلامَ يدعو بولس؟ لقد حرّف البشارة العيسوية بأحمد، وبات يبشر بالمسيح. والمسيح الذي يدعو إليه قوم إسرائيل ليس عيسى، وفي الوقت ذاته فإن بولس يدور حول الوعد ليؤكده لقومه ويثبته بهتاناً وزوراً. إذاً كيف يجمع بولس المتناقضين؟ إن الإيمان بالمسيح نبي الله ورسوله معناه الإيمان بالبشارة بمحمد، والبشارة تعني أن الوعد لأمة محمد ﷺ كما جاء في التوراة والإنجيل. والإيمان بعيسى لا ينفصل بحال عن الإيمان بالوعد الذي وعد الله به النسل الموحد لإبراهيم وهم نسل ابنه البكر إسماعيل. ولكن حين يفصل قوم إسرائيل بين الإيمانين فذلك يعني أنهم قد ضلّوا وضلّ معهم بولس، وأضلّ معه المؤمنين بدعوته من المسيحيين على مرّ العصور والأزمان. ويؤكد مرة ثانية أن بولس ما آمن بالمسيح الذي هو عيسى ولكنه آمن ودعا إلى الإيمان بالمسيح الذي يعيش القوم على وهم انتظاره وترقبه وهو من صنع خيالاتهم وأوهامهم، وبهذا الإيمان المختلق بالمخلص المزعوم الآتي يبنون على الرمال قصور أحلامهم في أنّ وعد الله كان لهم رغم كفرهم، ولكن توراة أيديهم قد حكمت عليهم بالتشتت والخزي والعار بين الأمم، وفيهم تمت كلمة الله ولعنته ولعنة أنبيائه، ولن تقوم لهم بها قائمة مَهْما ساندتهم قوى البغي والطغيان والفسق من أمريكا أو أوروبا أو العالم أجمع، أو حتى شياطين الجن والإنس.

ثورة قوم إسرائيل إذاً على بولس، كانت لشعورهم بأنه فَصَلَ بين الإيمانين، الإيمان بالمسيح والإيمان بالوعد، والمسيح البولسي هنا هو ثالث ثلاثة، ولا ماهية له أو هوية في ذهن بولس، فلقد تداخلت الصور المثلثة ببعضها، ولم يعد يدعو إلاّ إلى وثن أو صنم أجازه للـوثنيين. فإذا كان هذا حاله مع المسيح، فإن الإيمان بالوعد يبقى قائماً، فكيف يحاسبه اليهود على ذلك. أليسوا يدعون إلى تأكيد الوعد، وهو يدعو معهم إليه؟ لقد طلب الملك أغريباس الروماني من بولس أن يعرض رأيه ليعرف سبب ثورة قومه عليه. فقال بولس: (لذلك ألتمسُ منك أن تسمعني بطول الأناة. فسيرتي منذ حداثتي التي من البداءة كانت بين أمتي في أورشليم يعرفها جميع اليهود. عالمين بي من الأول إن ارادوا أن يشهدوا أني حسب مذهب عبادتنا الأضيق عشت فريسياً. والآن أنا واقف أحاكَمُ على رجاء الوعد الذي صار من الله لآبائنا، الذي أسباطنا الاثنا عشر يرجون نواله عابدين بالجهد ليلاً ونهاراً. ممن أجل هذا الرجاء أنا أحاكم من اليهود أيها الملك أغريباس)[١٤٥].

ومضى بولس يشرح لقومه عن المسيح الذي شكله لهم وجعل منه إلهاً وابن إله ورباً، وإن

---

(١٤٤) أعمال الرسل ٢٣: ٦ - ٩. (١٤٥) أعمال الرسل ٢٦: ٤ - ٧.

الصورة الجديدة للمسيح هي ما يرضى قومه، أو هكذا خُيل إليه، فإن القوم قد مالوا دائماً ويميلون إلى الإله المادي المحسوس،، حتى إنهم صنعوه من الذهب عجلاً عبدوه إلهاً في أيام موسى وهارون. وهم يعبدونه الآن في صورة دولار أمريكا ومن قبله جنيه بريطانيا العظمى، وهكذا. ولعلّ رفض القوم لهذا الإله البولسي مما أثار بولس، وحمله على سرد تاريخهم الحافل بالخزي والعار منذ وجدوا، وتنبأ لهم بهذا العار الأبدي أنبياؤهم.

(لقد اجتمع إليه القوم فجاء إليه كثيرون إلى المنزل، فطفق يشرح لهم شاهداً بملكوت الله ومقنعاً إياهم من ناموس موسى والأنبياء بأمر يسوع من الصباح إلى المساء. فاقتنع بعضهم بما قيل وبعضهم لم يؤمنوا. فانصرفوا وهم غير متفقين بعضهم مع بعض لما قال بولس كلمة واحدة: إنه حسناً كلم الروح القدس آباءنا بإشعياء النبي قائلاً: اذهب إلى هذا الشعب وقل ستسمعون سمعاً ولا تفهمون وستنظرون، نظراً ولا تبصرون. لأن قلب هذا الشعب قد غلظ، وبآذانهم سمعوا ثقيلاً وأعينهم أغمضوها. لئلاّ يبصروا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشقيهم. فليكن معلوماً عندكم أن خلاص الله قد أرسل إلى الأمم وهم سيسمعون. ولما قال هذا مضى اليهود ولهم مباحثة كثيرة فيما بينهم)[١٤٦].

وكأن سكوت القوم عن بولس كان دليلاً على رضاهم عما يدعو إليه ويسعى له من تقويض وتشويه لأصل دعوة الرسل والأنبياء جميعاً، فأعلن إلى الجميع بعدها أن (بولس عبد ليسوع المسيح المدعو رسولاً المفرز لإنجيل الله الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة عن ابنه الذي صار من نسل داوود من جهة الجسد. وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات يسوع المسيح ربنا. الذي به لأجل اسمه قبلنا نعمة ورسالة لإطاعة الإيمان في جميع الأمم الذين بينهم أنتم أيضاً مدعوو يسوع المسيح. إلى جميع الموجودين في رومية أحباء الله مدعوين قديسين. نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح. أولاً أشكر إلهي بيسوع المسيح من جهة جميعكم أن إيمانكم يُنادى به في كل العالم)[١٤٧].

وانتقل بولس بالخلاص الحقيقي بمحمد الذي بشّر به الأنبياء والرسل إلى الخلاص من الخطايا والذنوب والكفر، بل قد يكون الخلاص الذي يرمي إليه بولس هو خلاص الإنسان من إنسانيته وتجرده منها ليعود الى عالم الحيوان والبهيمة والغريزة. وأعلن أن قوة الخلاص تأتي لمن يؤمن باليهودية، أولاً ثم باليوناني الوثني بل إن الخلاص لمن يأتمّ باليهود، وفي هذا دعوة صريحة إلى تغليب دين اليهود المتحجر على كل دين، مع ما يدعو إليه من زنا وفحش وفسق وفجور وقتل وإرهاب وقانون الغاب وخمر وميسر ومحرمات باتت هي الحلال في عالم

(١٤٦) اعمال الرسل ٢٨: ٢٣ ـ ٢٨.
(١٤٧) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١: ١ ـ ٨.

الغرب والشرق البعيد على حد سواء، ومصدّرو هذه الفواحش والرذائل هم القوم الذين طمس الله على قلوبهم فأنساهم أنفسهم يقول بولس لأهل رومية:

(ثم لست أريد أن تجهلو أيها الأخوة أنني مراراً كثيرة قصدت أن آتي إليكم. ومُنِعْتُ حتى الآن. ليكون بها. ثمر فيكم أيضاً كما في سائر الأمم. إني مديون لليونانيين والبرابرة للحكماء والجهلاء. فهكذا ما هو لي مستعد لتبشيركم أنتم الذين في رومية أيضاً. لأني لست أستحي بإنجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن لليهودي أولاً ثم لليوناني. لأن فيه معلن بر الله بإيمان الإيمان كما هو مكتوب. أما البار فبالإيمان يحيا.

لأن غضب الله معلن من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم الذين يحجزون الحق بالإثم. إذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم. لأن أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتى إنهم بلا عذر. لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كإله بل حمقوا في أفكارهم وأظلم قلبهم الغبي. وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء. وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذي يفنى والطيور والدواب والزحافات. لذلك أسلمهم الله أيضاً في شهوات قلوبهم إلى النجاسة لإهانة أجسادهم بين ذواتهم. الذين استبدلوا حق الله بالكذب واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق الذي هو مبارك إلى الأبد آمين. لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان. لأن إناثهم استبدلن الاستعمال الطبيعي بالذي على خلاف الطبيعة. وكذلك الذكور أيضاً تاركين استعمال الأنثى الطبيعي. اشتعلوا بشهوتهم بعضهم لبعض، فاعلين الفحشاء ذكوراً بذكور، ونائلين في أنفسهم جزاء ضلالهم المحق. وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق، مملوئين من كل إثم وزناً وشر وطمع وخبث مشحونين حسداً وقتلاً وخصاماً ومكراً وسوءاً. نمامين مفترين مبغضين لله ثالبين متعظمين مدّعين مبتدعين شروراً غير طائعين للوالدين. بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضى ولا رحمة. الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت لا يفعلونها فقط بل أيضاً يُسرّون بالذين يعملون) (١٤٨).

لقد هيأ بولس للعالم سبل الرذيلة التي يغرق فيها اليوم، حتى استحالت الحياة إلى عالم حيوانات تعيش بالغرائز ولها، وليس تحذير بولس من هذه الرذائل إلاّ الدعوة المكشوفة إليها وكأنه بذلك قد وضع المحظورات بين أيديهم ثم قال لهم لا تقربوها. وكل ممنوع من الحرام مرغوب فيه لديهم، وكان بولس في ذلك **﴿كمثل الشيطانِ إذ قال للإنسان اكفر فلما كفرَ**

---

(١٤٨) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١ : ١٢ ـ ٣٣.

قال إني بريءٌ منك﴾[149]. **﴿ومن يتخذ الشيطانَ وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً. يَعدُهُم ويُمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً﴾**[150].

وما وعدهم بولس إلا غروراً، وما منّاهم بدعوته إلاّ ضلالاً وفسقاً، حين أعلن إليهم أن خطايا البشر السابقة واللاحقة قد غفرت لهم، لأن المسيح قدم نفسه فداء وضحية لأولئك الخطائين الخاطئين (وأما الآن فقد ظهر برّ الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء. بر الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى الذين لا يؤمنون. لأنه لا فرق إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله. متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السابقة بإمهال الله، لإظهار بره في الزمان الحاضر ليكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع)[151].

إنه جواز أبدي إلى الخطيئة حين أوهمهم بولس بأنهم أحباء الله، وهو الإدعاء نفسه الذي ادعاه اليهود من قبل عيسى، وعلامة هذا الحب في رأي بولس أنه ضحى لأجلهم بابنه يسوع (ولكن الله بين محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا، لأنه وإن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيراً ونحن مصالحون نخلص بحياته. وليس ذلك فقط بل نفتخر أيضاً بالله بربنا يسوع المسيح الذي نلنا به الآن المصالحة. لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح التبنّي الذي به نصرخ أيها الآب. الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً. ورثة الله وارثون مع المسيح)[152].

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبِكم بل أنتم بشرٌ ممن خلق يغفرُ لمن يشاء ويعذّبُ من يشاءُ ولله ملك السموات والأرض وما بينها وإليه المصير. يا أهل الكتاب قد جاءَكم رسولُنا يبيّن لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ والله على كل شيء قدير﴾[153].

بالإيمان بيسوع البولسي تغفر الخطايا، كل الخطايا التي نسمعها اليوم ونشهدها في العالم المسيحي والوثني قد تدنت بالإنسانية بل بالبشرية إلى أدنى الحيوان دركاً ومنزلة، وهي مغفورة في شرع بولس الفريسي، لأنه إذا (كان بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة. لأنه كما بمعصية

---

(١٤٩) سورة الحشر ١٦.
(١٥٠) النساء ١٢٠.
(١٥١) رسالة بولس إلى أهل رومية ٣: ٢١ ـ ٢٦.
(١٥٢) رسالة بولس إلى أهل رومية ٨: ١٤.
(١٥٣) المائدة ١٨ ـ ١٩.

الإنسان الواحد جُعِلَ الكثيرون خطاة. هكذا أيضاً بإطاعة الواحد سيُجعَلُ الكثيرون أبراراً. وأما الناموس فدخل لكي تكثر الخطية. ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً. حتى كما ملكت الخطية في الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا)[١٥٤].

إن علامات التوراة الأحمدية وشفاعته قد جعل منها بولس علامات ليسوع، ولكنها تبقى العلامات الواضحات التي وسمت بها البشرية مبشرة بأحمد، وهو مخرج البشرية من الظلمات إلى النور، وبأمته فاخر الله الأمم. وعند هذه الأمة استقر اختيار الله واصطفاؤه الذي سار في درب الخليقة الطويل، ومر بها مرور العابر إلى المستقر والمستودع في أمة الإسلام، و ﴿**إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون**﴾[١٥٥].

يقول بولس بعد تحريف علامات البشارة:

(فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا، لأن انتظار الخليقة يتوقع استعلان أبناء الله. إذا أُخضعت الخليقة للبطل. ليس طوعاً بل من أجل الذي أخضعها. على الرجاء. لأن الخليقة نفسها أيضاً ستُعتَقُ من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله. فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخّض معاً إلى الآن. وليس هكذا فقط بل نحن الذين لنا باكورة الروح نحن أنفسنا أيضاً نئن في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا. لأننا بالرجاء خلصنا. ولكن الرجاء المنظور ليس رجاءً. لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً؟. ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر. وكذلك الروح أيضاً يعين ضعفاتنا. لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي، ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا ينطق بها. ولكن الذي يفحص القلوب يعلم ما هو اهتمام الروح. لأنه بحسب مشيئة الله يشفع في القديسين. ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده. لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيّنهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين. والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضاً. والذين دعاهم فهؤلاء. بررهم أيضاً. والذين بررهم فهؤلاء مجّدهم أيضاً. فماذا نقول لهذا؟. إن كان الله معنا فمن علينا؟ الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين. كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء. من سيشتكي على مختاري الله. الله هو الذي يبرره. من هو الذي يدين. المسيح هو الذي مات بل بالحريّ قام أيضاً، الذي هو أيضاً عن يمين الله الذي أيضاً يشفع فينا. من سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عري أم خطر أم سيف؟ كما هو مكتوب إننا من أجلك نُمات كل النهار. قد حُسبنا مثل غنم للذبح. ولكننا في هذه جميعها يَعْظُم انتصارنا

---

(١٥٤) رسالة بولس إلى أهل رومية ٥ : ١٨ ـ ٢٣ . (١٥٥) البقرة ١٣٢ .

بالذي أحبّنا) (١٥٦) .

لقد جعل الله من إبراهيم الحنفي مؤمنين رحماء وكفاراً عصاة، وبالكفار العصاة من نسل إبراهيم بالجسد بُدِئَت النبوة، وذلك ليمضي حكم الله ولا راد لحكمه ويكون من بعد ذلك مسك الختام من نسل اسماعيل (فإذا هو يرحم من يشاء ويقسي من يشاء فستقول لي لماذا يلوم بعد؟ لأن من يقاوم مشيئته. بل من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله؟ ألعلّ الجبلة تقول لجابلها: لماذا صنعتني هكذا؟ أم ليس للخزّاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان. فماذا إن كان الله وهو يريد أن يظهر غضبة ويبيّن قوته احتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهيأة للهلاك. ولكي يبيّن غنى مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدّها للمجد. التي أيضاً دعانا نحن إياها ليس من اليهود فقط بل من الأمم أيضاً. كما يقول في هوشع أيضاً. سأدعو الذي ليس شعبي شعبي، والتي ليست محبوبة محبوبة. ويكون في الموضع الذي قيل لهم فيه لستم شعبي أن هناك يدعون أبناء الله الحي. وإشعياء يصرخ من جهة إسرائيل وإن كان عدد بني إسرائيل كرمل البحر فالبقيّة ستخلص. لأنه متممٌ أمر وقاض بالبر. لأن الرب يصنع أمراً مقضياً به على الأرض. وكما سبق إشعيا فقال: لولا أن رب الجنود أبقى لنا نسلاً لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة) (١٥٧).

ويقضي الله أمراً كان مفعولاً بتبديد قوم إسرائيل، فلقد عرفوه من توراتهم ومن أنبيائهم جميعاً، وذكره عيسى عليه السلام للقوم وان عليهم الانتظار بالبر والإيمان للمخلص الذي بشرت الخليقة به ومع تحريف بولس لذلك فقد بقيت البشارة تعلن نفسها بعلامات لا تختصّ بشيء سواها. يقول بولس: (فماذا نقول إن الأمم الذين لم يسعوا في أثر البر أدركوا البر، البر الذي بالإيمان. ولكن إسرائيل وهو يسعى في أثر ناموس البر لم يدرك ناموس البر. لماذا؟ لأنه فعل ذلك ليس بالإيمان بل كأنه بأعمال الناموس. فإنهم اصطدموا بحجر الصدمة كما هو مكتوب، ها أنا أضع في صهيون حجرَ صدمةٍ وصخرةَ عثرةٍ وكل من يؤمن به لا يُخزى) (١٥٨).

لقد نقض بولس حكم الله، وكذب حكم الأنبياء حين جعل من كفر قومه خلاصاً للأمم. وجعل من زلاّتهم وعصيانهم غنىً للأمم. وما ذلك إلاّ لأن الله كما ادّعى بولس ـ قد حفظ لقومه الخلاص بيد عيسى المخلص، المسيح أو المخلص في رأي بولس وقومه ليس الرسول عيسى، وإنما مسيحهم الذي ينتظرونه وهذا يعني أن بولس قد زيف أمرين، أمر

---

(١٥٦) رسالة بولس إلى أهل رومية ٨: ١٨ ـ ٢٨.

(١٥٧) رسالة بولس إلى أهل رومية ٩: ١٨ ـ ٢٩. (١٥٨) رسالة بولس إلى أهل رومية ٩: ١٨ ـ ٢٩.

عيسى النبي المبشر بمحمد، ثم أمر البشرى ذاتها، وهو حين يفعل ذلك فلكي يكون هناك في ظنهم مخلص للبشرية من بني إسرائيل، وهذا المخلص المزعوم المرتقب هو ما تدعو إليه رسائل بولس التي باتت عماد مسيحية اليوم، وهي من سيكفيها ربها حسابها في الدنيا والآخرة. **﴿ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون. يا أهلَ الكتاب قد جاءكم رسولُنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير. قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين﴾** (١٥٩)

ويقول بولس:

(فأقول ألعلّ الله رفض شعبه. حاشا لأني أنا أيضاً إسرائيلي من نسل إبراهيم من سبط بنيامين. لم يرفض الله شعبه الذي سبق فعرفه. أم لستم تعلمون ماذا يقول الكتاب في إيليا (هو المسيح كما أوضحت من التوراة) كيف يتوسل إلى الله ضد إسرائيل قائلاً قتلوا أنبياءك، وهدموا مذابحك وبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي. لكن ماذا يقول له الوحي أبقيت لنفسي سبعة آلاف رجل لم يحنوا ركبة لبعل. فكذلك في الزمان الحاضر أيضاً قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة.. ما يطلبه إسرائيل ذلك لم ينله. ولكنْ المختارون نالوه. وأمّا الباقون فتقسّوا كما هو مكتوب. أعطاهم الله روح سبات، وعيوناً حتى لا يبصروا، وآذانا حتى لا يسمعوا إلى هذا اليوم. وداوود يقول: لتصر مائدتهم فخاً وقنصاً وعثرة ومجازاة لهم. لتُظلم أعينهم كي لا يبصروا ولتحن ظهورهم في كل حين.

فأقول ألَعلّهم عثروا لكي يسقطوا؟ حاشا. بل بزلّتهم صار الخلاص للأمم لإغارتهم. فإن كانت زلّتهم غنى للعالم ونقصانهم غنى للأمم فكم بالحري ملؤهم. فإني أقول لكم أيها الأمم. بما أني أنا رسول للأمم أمجد خدمتي. لعلي أغيِّر أنسبائي وأخلص أناساً منهم. لأنه إن كان رفضهم هو مصالحة العالم فما يكون اقتبالهم إلاّ حياة من الأموات. وإن كانت الباكورة مقدسة فكذلك العجين. وإن كان الأصل مقدساً فكذلك الأغصان. فإن كان قد قطع بعض الأغصان وأنت زيتونة برية طعِّمت فيها فصرت شريكا في أصل الزيتونة ودسمها. فلا تفتخر على الأغصان. وإن افتخرت فأنت لست تحمل الأصل بل الأصل إيّاك يحمل فستقول قطعت الأغصان لأطعم أنا. حسناً من أجل عدم الإيمان قطعت، وأنت بالإيمان ثبتّ. لا تستكبر بل خفْ. لأنه إن كان الله لم يشفق على الأغصان الطبيعية فلِعَارٍ لا يشفق عليك أيضاً..

(١٥٩) المائدة ١٤ ـ ١٥.

فإني لست أريد أيها الأخوة أن تجهلوا هذا السر.. إن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملء الأمم. وهكذا سيخلص جميع إسرائيل كما هو مكتوب. سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب. وهذا هو العهد من قبلي لهم متى نزعت خطاياهم. من جهة الإنجيل هم أعداء من أجلكم. وأما من جهة الاختيار فهم أحباء من أجل الآباء. فإنه كما كنتم أنتم مرة لا تطيعون الله ولكن الآن رحمتم بعصيان هؤلاء. هكذا هؤلاء أيضاً الآن لم يطيعوا لكي يرحموا. هم أيضاً برحمتكم لأن الله أغلق على الجميع معاً في العصيان لكي يرحم الجميع) (١٦٠).

تخبط وافتراء يدور بولس في فلكه ولا يستطيع الفكاك منه، وكله دعوة للخروج على دعوة عيسى وجوهرها الموحد (لأننا جميعاً سوف نقف أمام كرسي المسيح. لأنه مكتوب أنا حيّ يقول الربّ إنه لي ستجثو كل ركبةٍ وكلّ لسان سيحمد الله) (١٦١). (لكي تمجدوا الله أبا ربنا يسوع المسيح بنفس واحدة وفم واحد) (١٦٢). كما جعل بولس من نفسه وكيل الرب يسوع على الأرض، وله ما كان ليسوع من عجائب المعجزات، ليبشر بإنجيل يسوع الذي لم يترك بولس منه إلاّ اسمه. (حتى أكون خادماً ليسوع المسيح لأجل الأمم مباشراً لإنجيل الله ككاهن ليكون قربان الأمم مقبولاً مقدساً بالروح القدس. فلي افتخاري في المسيح يسوع من جهة ما لله. لأني لا أجسر أن أتكلم عن شيء مما لم يفعله المسيح بواسطتي لأجل إطاعة الأمم بالقول والفعل. بقوة آيات وعجائب بقوة روح الله. حتى إني من أورشليم وما حولها إلى الليريكون قد أكملت التبشير بإنجيل المسيح... فأطلب إليكم أيها الأخوة بربنا يسوع المسيح وبمحبة الروح أن تجاهدوا معي في الصلوات من أجلي إلى الله لكي أنقذ من الذين هم غير مؤمنين في اليهودية. ولكي تكون خدمتي لأجل أورشليم مقبولة عند القديسين) (١٦٣).

ولم يغفل بولس وضع أساس السلام أو التحية التي يحيي المسيحيون في الغرب بها بعضهم بعضاً، وتحيتهم هي القبلة المقدسة كما يرى بولس، وإن كنا لم نقرأ في كتاب شيئاً عن القبلة المقدسة أو غير المقدسة، ولكنها على أي حال القبلة التي تفتح باب الشيطان ومن هذا الباب دخل العالم الغربي والأوروبي كله، وباتت القبلة مشاعاً جعلت من نسائهم مشاعاً ومن رجالهم سماسرة للنساء واختلط حابلهم بنابلهم، وتداخلت دماؤهم وأنسابهم إن كان هناك أنساب. وأضحت الرذيلة بعض مكونات حياتهم التي لا يرون فيها ما يضير أو يضر، وبلغ بهم السفه والفحش حداً اعتبروا معه الرذيلة تحضّراً، والفسق مدنية. نسوا أو تناسوا أن أمم الأرض

---

(١٦٠) رسالة بولس إلى أهل رومية ١١.

(١٦١) رسالة بولس إلى أهل رومية ١٤: ١٠ - ١١.

(١٦٢) رسالة بولس إلى أهل رومية ١٥: ٦.

(١٦٣) رسالة بولس إلى أهل رومية ١٥: ١٦.

التي علت وارتفعت على أعمدة الفواحش قد انهارت وانطوت في ثنايا الزمان إلى غير رجعة ولم تعد غير أسماء وتاريخ في سجل التاريخ.

فلتكن القبلة المقدسة تحيتهم حتى يكون ذلك إيذاناً بانهيارهم وإعلاناً لإبادتهم وانقراضهم. إذاً (سلموا بعضكم على بعض بقبلة مقدسة)[١٦٤].

وعودة إلى البشارة المحمدية التي كان بولس يدور حولها عن بُعْدٍ بعد تغيير ملامحها وفق هواه، ثم لا يلبث أن يقف عندها ليعيد صياغتها مع بقاء الأصل واضحاً لذي عقل، ولأنه الأصل الذي جعله الله سر الخليقة التي خلقها الله لتعبده وتسبحه. (وللقادر أن يثبتك حسب إنجيلي والكرازة بيسوع المسيح حسب إعلان السر الذي كان مكتوماً في الأزمنة الأزلية. ولكن ظهر الآن، وأعلم به جميع الأمم بالكتب السماوية حسب أمر الإله الأزلي لإطاعة الإيمان لله الحكيم وحده بيسوع المسيح. له المجد إلى الأبد آمين)[١٦٥].

وقد أكثر بولس من تفسيراته الملغّزة للبشارة، وذلك زيادة في تعميتها وتمويهها عما عرفه القوم في التوراة ولتضحي الصورة الجديدة المموهة هي الأصل في عقول قوم إسرائيل، وذلك ما حدث. وفي ذلك يقول بولس: (قولوا لي أنتم الذين تريدون أن تكونوا تحت الناموس فإن مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان: واحد من الجارية والآخر من الحرة. لكن الذي من الجارية ولد حسب الجسد. وأما من الحره فبالموعد. وكل ذلك رمز لأن هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذي هو هاجر لأن هاجر جبل سيناء في العربية. ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة. فإنها مستعبدة مع بنيها. وأما أورشليم العليا التي هي أمنا جميعاً فهي حرة لأنه مكتوب: افرحي أيتها العاقر التي لم تلد. اهتفي واصرخي أيتها التي لم تتمخض فإن أولاد الموحشة أكثر من التي لها زوج)[١٦٦].

وجعل بولس عيسى حجر الزاوية الذي ذكرته التوراة ودل على خاتم الأنبياء، كما ذكر عيسى عليه السلام ذلك، وأكد فيه على ختم بناء الدين بحجر الزاوية، وذكره محمد ﷺ، إذ به اكتمل البناء الذي شاده الأنبياء والرسل وتركوا مكان الزاوية لحجر لا يتم إلاّ بمحمد ﷺ. يقول بولس: (فلستم إذاً بعد غرباء ونزلاً بل رعيّة مع القديسين وأهل بيت الله مبنيّين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية الذي فيه كل البناء مركباً معاً،

---

(١٦٤) رسالة بولس إلى أهل رومية ١٦ : ١٦ .

(١٦٥) رسالة بولس إلى أهل رومية ١٦ : ٢٥ .

(١٦٦) رسالة بولس إلى الرسول الأولى الى أهل كورنثوس ٤ : ٢١ .

ينمو هيكلاً مقدساً في الرب. الذي فيه أنتم أيضاً مبنيّون معاً مسكناً لله في الروح)[١٦٧].

يقول رسول الرحمة محمد ﷺ (مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلّا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)[١٦٨]

لقد كان وعد الله لإبراهيم تكثير نسله الموحد الذي ترتفع به راية دين التوحيد، وكانت مشيئة الله وحكمته أن يبدأ النّبوة في نسل إسحق بـن ابراهيم، وكان ذلك مشروطاً بإقامة عهد الله والعمل بميثاقه، ولكن القوم قد خانوا العهد وأبطلوا الميثاق. فجاء بولس ليتحدث في إبطال الوصية كما يريدها هو وقومه (فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها. إذ الناموس لم يكمل شيئاً. ولكن يصير إدخال رجاء أفضل به نقترب إلى الله. وعلى قدر ما إنه ليس بدون قسم، لأن أولئك بدون قسم ولن يندم. أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق. على قدر ذلك قد صار يسوع ضامناً لعهد أفضل.. وهو الآن قد حصل على خدمة أفضل بمقدار ما هو وسيط أيضاً لعهد أعظم، قد تثبت على مواعد أفضل. فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب لما طلب موضع لثان. لأنه يقول لهم لائماً: هو ذا أيام تأتي، يقول الرب، حين أكمل مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً لا كالعهد الذي عملته مع آبائهم يوم أمسكت بيدهم لأخرجهم من أرض مصر لأنهم لم يثبتوا في عهدي، وأنا أهملتهم، يقول الرب)[١٦٩].

لقد كانت القرابين في قوم إسرائيل هي كفّارة الخطايا، وأمّا في المسيحية فقد وجد لها بولس حلاً ميسوراً حين جعل من صلب المسيح كفارة عن خطايا البشرية منذ خطيئة آدم إلى الأبد. وأما دين الإسلام فقد جعل للمسلم المؤمن الاستغفار وسيلة إلى خالقه سبحانه، وإن ذنوبه مغفورة ما استغفر الله إلا الشرك فهو غير مغفور (ثم العهد الأول كان له أيضاً فرائض خدمة والقدس العالمي لأنه نصب المسكن الأول الذي يقال له القدس الذي كان فيه المنارة والمائدة وخبز التقدمة. ووراء الحجاب الثاني المسكن الذي يقال له قدس الأقداس.. وأمّا إلى الثاني فرئيس الكهنة فقط مرة في السنة ليس بلا دم يقدمه عن نفسه وعن جهالات الشعب. وأما المسيح وهو قد جاء رئيس كهنة للخيرات العتيدة فبالمسكن الأعظم والأكمل غير المصنوع، بيدَ أن الذي ليس من هذه الخليقة وليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل مرةً واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبدياً.

---

(١٦٧) رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس ٢: ١٩ ـ ٢٢.

(١٦٨) صحيح مسلم رقم الحديث ٤٣.

(١٦٩) الرسالة إلى العبرانيين ١١: ١٧.

ولأجل هذا هو وسيط عهد جديد كلّي يكون المدعوون إذ صار موت لفداء التعديات التي في العهد الأول، ينالون وعد الميراث الأبدي. وكل كاهن يقوم كل يوم يخدم ويقدم مراراً كثيرة تلك الذبائح عينها التي لا تستطيع البتة أن تنزع الخطيئة. وأما هذا فبعد ما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة، جلس إلى الأبد عن يمين الله منتظراً بعد ذلك حتى توضع أعداؤه موطئا لقدميه. لأنه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدّسين. ويشهد لنا الروح القدس أيضا. لأنه بعد ما قال سابقاً: هذا هو العهد الذي أعهده معهم بعد تلك الأيام، يقول الرب، أجعل نواميس في قلوبهم وأكتبها في أذهانهم، ولن أذكر خطاياهم وتعدّياتهم فيما بعد، وإنما حيث تكون مغفرة لهذه لا يكون بعد قربان عن الخطيّة) (١٧٠).

عن أنس رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني إلاّ غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغتْ ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك لا أبالي. يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة) (١٧١).

بالإيمان أطاع إبراهيم ربه لما دعي إلى الخروج من أرضه إلى الأرض التي سيؤسس فيها بناء التوحيد، وإن تلك الدعوة الإلهية لإبراهيم هي جزء من قضائه الأزلي وحكمه في دين التوحيد على الأرض ليكون خاتماً لكل رسالة ورسول. (بالإيمان إبراهيم لما دعي أطاع أن يخرج إلى المكان الذي كان عتيداً أن يأخذه ميراثاً. فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي. بالإيمان تغرّب في أرض الموعد كأنها غريبة لأنه كان ينتظر المدينة التي لها الأساسات التي صانعها وبارئها الله) (١٧٢).

ولما كان قضاء الله في القوم أن ينحسر عنهم ظل الله والنبوة، ولما كان حكمه أن تحرم عليهم الأرض التي شاءها الله أساساً للتوحيد، فقد أخذ بولس يفلسف هذا التحريم المادي ويجعل منه تحريماً روحياً، فسّر من خلاله الأرض بأنها الوطن السماوي الروحي الذي يناله المؤمن بيسوع إيمان الآب والإبن والروح القدس الذي اخترعه بولس وابتدع شعائره. (في الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم ينالون المواعيد، بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيّوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض. فإن الذين يقولون مثل هذا يظهرون أنهم يطلبون وطناً. فلو ذكروا ذلك الذي خرجوا منه لكانت فرصة للرجوع. ولكن الآن يبتغون وطناً أفضل أي سماوياً. لذلك لا يستحي بهم الله أن يُدعى إلههم لأنه أعد لهم مدينة) (١٧٣).

---

(١٧٠) الرسالة إلى العبرانيين ١٠.
(١٧١) رياض الصالحين ٥٢٦.
(١٧٢) الرسالة إلى العبرانيين ١١: ٩.
(١٧٣) الرسالة إلى العبرانيين ١١ - ١٧.

هناك إذن عهد جديد كان عيسى وسيطه.. وكان محمد ﷺ هو صاحب العهد الجديد. وإن وساطة عيسى هي الحلقة المهيّئة لتجديد ناموس موسى الذي قام على التبشير بمحمد، وستجدد القدس في عهد محمد، وستضحى مدينة جديدة منها ينطلق نور الإسلام، فلقد تجدّدت القدس في صورة مكة الحرام، وأكدت ذلك توراة القوم التي أوردت رؤى انبيائها ارتفاع القدس من أرضها لتزرع في بلاد جنوبية، كما قام هيكل أكبر من الأول وأعلى، وبني فوق خرائب ذلك الصرح القديم (١٧٤). وكان عيسى هو معلن تلك العلامات التوراتية، التي حرّفها من حملوا أمانة دعوته. يقول بولس: (بل قد آتيتم إلى جبل صهيون وإلى مدينة الله الحي أورشليم السماوية وإلى ربوات هم محفل ملائكة وكنيسة أبكار مكتوبين في السموات، وإلى الله ديان الجميع، وإلى أرواح أبرار مكملين وإلى وسيط العهد الجديد يسوع. الذي صوته زعزع الأرض حينئذٍ. وأما الآن فقد وعد قائلاً إني مرة أيضاً أزلزل الأرض فقط بل السماء أيضاً. لذلك ونحن قابلون ملكوتاً لا يتزعزع ليكن عندنا شكر به) (١٧٥).

إن محمداً ﷺ كما أوردته التوراة والإنجيل هو الأول والآخر، وهو الألف والياء، إنه الأول في علم الغيب الذي خلق الكون لأجله وأرسل الأنبياء لأجل التبشير به رسولاً إلى البشرية بدين الحق والرحمة والإسلام، وهو الآخر الخاتم لهؤلاء الأنبياء والرسل. وكانت هذه علامات رآها يوحنا اللاهوتي، ولكنه نسبها إلى عيسى الذي أعلن هو نفسه أن محمداً هو الأول والآخر وهو الألف والياء، وأكد ذلك نفسه إنجيل برنابا الذي لا تعترف به المسيحية إنجيلاً.

ومما ينقضُ رؤيا يوحنا التي نسبها إلى عيسى هو أن عيسى نفسه أرى يوحنا في رؤياه ما لا بد أن يكون عن قريب. أليس القريب هو العهد الجديد الذي بشر به عيسى؟ أليس القريب هو محمد الآتي المرتقب المخلص؟

نقرأ الرؤيا تقول (إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إيّاه الله ليري عبيده ما لا بد أن يكون عن قريب، وبيّنه مرسلاً بيد ملاكه لعبده يوحنا. الذي شهد بكلمة الله وبشهادة يسوع المسيح بكلّ ما رآه. طوبى للذي يقرأ وللذين يسمعون أقوال النبوة ويحفظون ما هو مكتوب فيها لأن الوقت قريب..

هوذا يأتي مع السحاب وستنظره كل عين.. أنا الألف والياء البداية والنهاية..

أنا يوحنا أخوكم وشريككم في الضيقة.. كنت في الروح في يوم الرب، وسمعت ورائي صوتاً عظيماً كصوت بوق قائلاً: أنا هو الألف والياء الأول والآخر. فالتفتُّ لأنظر الصوت

---

(١٧٤) محمد في الكتاب المقدس ٢٦٢.   (١٧٥) الرسالة إلى العبرانيين ١١: ١٧.

الذي يتكلم معي، ولما التفتُ، رأيتُ سبع مناير من ذهب، وفي وسط السبع المناير شبه ابن إنسان متسربلاً بثوبٍ إلى الرجلين، ومتمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب. وأما رأسه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج. وعيناه كلهيب نار. ورجلاه شبه النحاس النقي، كأنهما محميتان في أتون، وصوته كصوت مياه كثيرة. ومعه في يده اليمنى سبعة كواكب، وسيف ماضٍ ذو حدّين يخرج من فمه ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها. فلما رأيته سقطتُ عند رجليه كميت، فوضع يده اليمنى عليّ قائلاً: لا تخف أنا هو الأول والآخر.. فاكتب ما رأيت وما هو كائن وما هو عتيد أن يكون بعد هذا. سر السبعة الكواكب التي رأيت على عيني والسبع المناير الذهبية. السبعة الكواكب هي ملائكة السبع الكنائس، والمناير السبع التي رأيتها هي السبع الكنائس)[١٧٦].

وأما ابن الإنسان (محمد) الذي تكلم مع يوحنا في رؤياه فقد أنبأه أنهم جميعاً قد ضلّوا من بعد عيسى، وتركوا محبتهم الأولى له، وأخذ يسرد له الضلالات التي أحياها القوم من بعد عيسى ومارسوها. نسمع ابن الإنسان يقول ليوحنا منذراً ومبشراً: (اكتب إلى ملاك كنيسة أفسس، هذا يقوله الممسك السبعة الكواكب في يمينه الماشي في وسط السبع المناير الذهبية. أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك وأنك لا تقدر أن تحتمل الأشرار، وقد جربت القائلين إنهم رسل وليسوا رسلاً فوجدتهم كاذبين. وقد احتملت ولـك صبـر وتعبت من أجل اسمي ولم تكل. لكن عندي عليك أنك تركتَ محبتك الأولى. فاذكر من أين سقطتَ وتبْ واعملْ الأعمال الأولى، وإلاّ فإني آتيك عن قريب، وأزحزح منارتك من مكانها إن لم تتب.. من له اذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس. من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس الله.

... واكتب إلى ملاك الكنيسة التي في ثياثيرا. هذا يقوله ابن الله الذي له عينان كلهيب نار، ورجلاه مثل النحاس النقي. أنا عارف أعمالك ومحبتك وخدمتك وإيمانك وصبرك وأن أعمالك الأخيرة أكثر من الأولى.. لكن عندي عليك قليل أنك تسيّب المرأة إيزابل التي تقول إنها نبية حتى تعلم وتغوي عبيدي أن يزنوا وياكلوا ما ذُبح للأوثان، وأعطيتها زماناً لكي تتوب عن زناها ولم تتب. ها أنا ألقيها في فراش والذين يزنون معها في ضيقة عظيمة إن كانوا لا يتوبون عن أعمالهم. وأولادها أقتلهم بالموت، فستعرف جميع الكنائس أني أنا هو الفاحص الكلى والقلوب. وسأعطي كل واحد منكم بحسب أعماله. ولكنني أقول لكم وللباقين في ثياثيرا كل الذين ليس لهم هذا التعليم، والذين لم يعرفوا أعماق الشيطان كما يقولون، إني

---

(١٧٦) رؤيا يوحنا اللاهوتي ١.

لا ألقي عليكم ثقلاً آخر. وإنما الذي عندكم تمسكوا به إلى أن أجيء. ومن يغلب ويحفظ أعمالي إلى النهاية فسأعطيه سلطاناً على الأمم، فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف كما أخذت أنا أيضاً من عند أبي. وأعطيه كوكب الصبح. من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس)[١٧٧].

ويمضي ابن الإنسان يتحدث إلى يوحنا ويطلب إليه أن يدعو المؤمنين بدعوة عيسى الأصيلة إلى التمسّك بها وعدم تضييعها، فان أولئك المؤمنين حقاً سيكونون نواة دين الإسلام الموحد الذي لا يغلب.

واكتب إلى ملاك الكنيسة التي في سارْدِس. هذا يقوله الذي له سبعة أرواح الله والسبعة الكواكب. **أنا عارف أعمالك أن لك اسماً أنَّك حي وأنت ميت. كن ساهراً وشددْ ما بقي الذي** هو عتيد أن يموت، لأني لم أجد أعمالك كاملة أمام الله. فاذكر كيف أخذتَ وسمعتَ، واحفظْ وتبْ، فإني إن لم تسهر أقدم عليك كلصّ ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك. عندك أسماء قليلة في ساردس لم ينجّسوا ثيابهم، فسيمشون معي في ثياب بيض لأنهم مستحقون. من يغلب فذلك سيلبس ثياباً بيضاً ولن أمحو اسمه من سفر الحياة، وسأعترف باسمه أمام أبي وأمام ملائكته.

واكتب إلى ملاك الكنيسة التي في فيلادلفيا. هذا يقوله القدوس الحق الذي له مفتاح داوود الذي يفتح ولا أحد يغلق ويغلق ولا أحد يفتح أنا عارف أعمالك. هاأنذا قد جعلت أمامك بابا مفتوحاً ولا يستطيع أحدٌ أن يغلق، لأن لك قوة يسيرة.. هاأنذا أجعل الذين من مجمع الشيطان من القائلين وأنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون هاأنذا أصيرهم يأتون ويسجدون أمام رجليك ويعرفون أني أنا أحببتك. لأنك حفظت كلمة صبري، أنا أيضاً سأحفظك من ساعة التجربة العتيدة أن تأتي على العالم كله لتجرب الساكنين على الأرض. هاأنا آتي سريعاً. تمسك بما عندك لئلاّ يأخذ أحد إكليلك. من يغلب فسأجعله عموداً في هيكل إلهي، ولا يعود يخرج إلى خارج، وأكتبُ عليه اسم إلهي واسم مدينة إلهي اورشليم الجديدة النازلة من السماء من عند إلهي واسمي الجديد)[١٧٨].

لقد كانت رؤيا يوحنا اللاهوتي تتحدث عن محمد ﷺ، وعن دوره في القضاء على وحش الوثنية، وعن توحيد الأمم المنحدرة من إبراهيم وإعادة النقاء لدين إبراهيم وعموميته التي ضاعت منه. وكان لا بد من إعادة جميع المؤمنين من الشعوب والقبائل التي انحدرت من ذلك الأب البشري الجليل إلى رحاب دين السلام الذي هو (ديناي شلاما)، أو دين الإسلام،

---

(١٧٧) رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢ .　　(١٧٨) رؤيا يوحنا اللاهوتي ٣ .

وليس شيئاً سواه. لقد كان دين موسى قومياً خاصاً، ولذلك فإن رهبانيته الوراثية وتضحياته اللاوية وطقوسه الفخمة وأيام سبته ومواسمه وأعياده وكل شرائعه وكتبه التي غيرت من بعده يجب أن تلغى ويحل محلها. كتاب من طراز جديد شامل في طابعه وقوته وديمومته وعالميته. وقد كان المسيح يهودياً ولا يسعه القيام بإنجاز واجب ضخم كهذا، لأن ذلك كان مستحيلاً من ناحية مادية بالنسبة للمسيح الذي يقول: (لم آتِ لتغيير القانون أو الأنبياء)[١٧٩]. ومن ناحية أخرى فإن الوثنية المستفحلة بكل ما فيها من ممارسات ملحدة وأساطير وشعوذة كانت منتشرة بين العرب. وهذه كلها لا بدّ من محوها، ومن إعادة عقيدة التوحيد والدين تحت راية رسول الله التي تحمل الشعار المقدس (أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله).

إن توحيد الأمم المنحدرة من إبراهيم وتوابعها كان لا بد من تحقيقه، ومن الأفكار العديدة الفاسدة الأنانية التي لا يمكن تبريرها والتي تحويها الكتب المقدسة العبرية ما يتضمن تحاملاً عشوائياً ضد الأمم غير الإسرائيلية. إنهم لا يحترمون أبناء إبراهيم الآخرين، وهذه العداوة تظهر ضد اسماعيل والأدوميين وبقية القبائل الإبراهيمية حتى عندما أصبح قوم اسرائيل أسوأ الوثنيين والكفرة.

ولقد كان محمد ﷺ ابن الإنسان المنتظر، هو مؤسس مملكة السلام (الإسلام)، ونحو أعظم رعاة البشرية اندفع طوعاً أكثر اليهود في شبه جزيرة العرب وسوريا والعراق، وهو يكيل ضرباته المخيفة لوحش الوثنية. لقد أسس محمد ﷺ أخوة شاملة وكانت نواتها بالتأكيد أسرة إبراهيم التي تحوي بين أعضائها الفرس والأتراك والصينيين والزنوج والجاويين والهنود والإنجليز... إلخ وكلهم يشكلون (أمة واحدة) (أمثادي شلاما) بالسريانية أي الأمة الإسلامية.

ثم إن استرداد الأراضي الموعودة بما في ذلك أرض كنعان وجميع الأراضي من النيل إلى الفرات، والامتداد التدريجي لمملكة الله من المحيط الهادي إلى شواطىء الأطلسي الشرقية إنْ هو إلاّ تحقيق مدهش لجميع النبوءات عن أكرم بني البشر وأعظمهم[١٨٠].

كل ذلك كان ضمن الرؤيا اللاهوتية ليوحنا، وهي مع وضوح علاماتها المحمّدية فقد حاول إدخال بعض الملامح العيسوية عليها، بغية تحريفها ونسبتها إلى سبط يهوذا ومن هذه الرؤيا أقف على أوضح العلامات لنبي الرحمة والهدى، وقد رمزت إليه الرؤيا بالخروف وإبن لإنسان راكب الفرس، وغير ذلك مما يعرفه كل مسلم عن نبي البشرية وغير المسلمين من

---

(١٧٩) متّى ٥. (١٨٠) محمد في الكتاب المقدس ٢٧١.

أهل الكتاب.

بعد هذا نظرت، وإذا باب مفتوح في السماء، والصوت الأول الذي سمعته كبوق يتكلم معي قائلاً: اصعد إلى هنا فأريك ما لا بدّ أن يصير بعد هذا، وللوقت صرت في الروح، وإذا عرش موضوع في السماء، وعلى العرش جالس. وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد... ورأيت على يمين الجالس على العرش سفراً مكتوباً من داخل ومن وراء مختوماً بسبعة ختوم. ورأيت ملاكاً قوياً ينادي بصوت عظيم من هو مستحق أن يفتح السفر ويفك ختومه. فلم يستطع أحد في السماء ولا على الأرض ولا تحت الأرض أن يفتح السفر ولا أن ينظر إليه. فصرت أنا أبكي كثيراً لأنه لم يوجد أحد مستحقاً أن يفتح السفر ويقرأه، ولا أن ينظر إليه. فقال لي واحد من الشيوخ لا تبكِ. هوذا قد غلب الأسد الذي من سبط يهوذا أصل داوود ليفتح السفر ويفك ختومه السبعة.

ورأيت فإذا في وسط العرش والحيوانات الأربعة في وسط الشيوخ خروف قائم كأنه مذبوح، له سبعة قرون وسبع أعين هي سبعة ارواح الله المرسلة إلى كل الأرض. فأتى وأخذ السفر من يمين الجالس على العرش. ولما أخذ السفر خرت الأربعة الحيوانات والأربعة والعشرون شيخاً أمام الخروف.. وهم يترنّمون ترنيمة جديدة قائلين: مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه لأنك ذبحت واشتريتنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة، وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة فسنملك على الأرض. ونظرت وسمعت صوت ملائكة كثيرين حول العرش.. وكان عددهم ربوات ربوات وألوف ألوف قائلين بصوت عظيم: مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة. وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض، وما على البحر كل ما فيها سمعتُها قائلة: للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين)(١٨١).

وليس أدل على قصة الفداء من الخروف الذي ترمز إليه الرؤيا، فلقد قال الرسول ﷺ إنه ابن الذبيحين يشير بذلك إلى أبيه اسماعيل بن ابراهيم وأبيه عبدالله.

وأرسل عمر بن عبد العزيز إلى رجل يهودي كان عنده بالشام فأسلم هذا وحسن إسلامه. وكان يرى أنه من علمائهم. فسأله عمر بن عبد العزيز عن الذبيح: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه. فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره

(١٨١) رؤيا يوحنا اللاهوتي ٥.

لما أمر به. فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق، لأن إسحق أبوهم[١٨٢].

ويقول يوحنا في رؤياه (ونظرت لما فتح الخروف واحداً من الختوم السبعة وسمعت واحداً من الأربعة الحيوانات قائلاً كصوت رعد: هلمّ وانظر. فنظرت، وإذا فرس أبيض، والجالس عليه معه قوس وقد أعطي إكليلاً وخرج غالباً ولكي يغلب.

... وبعد هذا نظرت، وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعدّه من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة واقفون أمام العرش وأمام الخروف متسربلين بثياب بيض، وفي أيديهم سعف النخل وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين: الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وللخروف. وجميع الملائكة كانوا واقفين حول العرش والشيوخ.. وخروا أمام العرش على وجوههم وسجدوا لله قائلين آمين. البركة والمجد والحكمة والشكر والكرامة والقدرة والقوة لإلهنا إلى أبد الآبدين آمين. وأجاب واحد من الشيوخ قائلاً لي: هؤلاء المتسربلون بالثياب البيض من هم ومن أين أتوا؟ فقلت له: يا سيد أنت تعلم. فقال لي: هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غسلوا ثيابهم وبيّضوا ثيابهم في دم الخروف. من أجل ذلك هم أمام عرش الله ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله، والجالس على العرش يحلّ فوقهم. لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر. لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية ويمسح الله كل دمعة من عيونهم.

... ثم وقفت على رمل البحر فرأيت وحشاً طالعاً من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون[١٨٣]. وعلى قرونه عشرة تيجان، وعلى رؤوسه اسم تجديف. والوحش الذي رأيته كان شبه نمر وقوائمه كقوائم دب، وفمه كفم أسد، وأعطاه التنين قدرته وعرشه وسلطاناً عظيماً، ورأيت واحداً من رؤوسه كأنه مذبوح للموت وجرحه المميت قد شفي، وتعجبتْ كل الأرض وراء الوحش. وسجدوا للتنين الذي أعطى السلطان للوحش وسجدوا للوحش قائلين من هو مثل الوحش؟ من يستطيع أن يحاربه؟ وأُعطي فما يتكلم بعظائم وتجاديف وأعطي سلطاناً أن يفعل اثنين وأربعين شهراً. وأعطي أن يصنع حرباً مع القديسين ويغلبهم. وأعطي سلطاناً على كل قبيلة ولسان وأمة فيسجد له جميع الساكنين على الأرض الذين ليست أسماؤهم مكتوبة منذ تأسيس العالم في سفر حياة الخروف الذي ذبح...

ثم رأيت وحشاً آخر طالعاً من الأرض وكان له قرنان شبه خروف. وكان يتكلم كتنين، ويعمل بكل سلطان الوحش الأول أمامه، ويجعل الأرض والساكنين فيها يسجدون للوحش الأول الذي شفي جرحه المميت. ويصنع آيات عظيمة حتى إنه يجعل ناراً تنزل من السماء على

---

(١٨٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير القرشي ٤ : ١٨ . (١٨٣) يشير بذلك إلى قياصرة الرومان.

الأرض قدام الناس. ويضل الساكنين على الأرض بالآيات التي أعطي أن يصنعها أمام الوحش قائلاً للساكنين على الأرض أن يصنعوا صورة للوحش الذي كان به جرح السيف وعاش. وأعطي أن يعطي روحاً لصورة الوحش حتى تتكلم صورة الوحش، ويجعل جميع الذين لا يسجدون لصورة الوحش يقتلون) (١٨٤).

وبعد أن تتحدث الرؤيا عن الوحش متعدد القرون الذي يشير به إلى قياصرة روما الذين ضلّوا وأضلوا، يصل إلى محمد ﷺ وأتباعه المسلمين المؤمنين الموحدين وهم أبناء إبراهيم الحنفي وحاملو راية (لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله) يقول:

(ثم نظرت، وإذا خروف واقف على جبل صهيون ومعه مئة وأربعة وأربعون ألفاً، لهم اسم أبيه مكتوباً على جباههم. وسمعت صوتاً من السماء كصوت مياهٍ كثيرة وكصوت رعدٍ عظيم. وسمعت صوتاً كصوت ضاربين بالقيثارة يضربون بقيثاراتهم وهم يترنمون كترنيمة جديدة أمام العرش وأمام الأربعة الحيوانات (١٨٥) والشيوخ، ولم يستطع أحدٌ أن يتعلّم الترنيمة إلاّ المئة والأربعة والأربعون ألفاً الذين اشتروا من الأرض. هؤلاء هم الذين لم يتنجسوا مع النساء لأنهم أطهار. هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب. هؤلاء اشتروا من بين الناس باكورة لله وللخروف. وفي أفواههم لم يوجد غش لأنهم بلا عيب قدام عرش الله.

ثم رأيت ملاكاً آخر طائراً في وسط السماء معه بشارة أبدية يبشر الساكنين على الأرض وكل أمة وقبيلة ولسان وشعب قائلاً بصوت عظيم: خافوا الله وأعطوه مجداً، لأنه قد جاءت ساعة دينونة واسجدوا لصانع السماء والأرض والبحر وينابيع المياه) (١٨٦).

﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابةٍ والملائكة وهم لا يستكبرون. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (١٨٧).

إن من يخافون ربهم من فوقهم هم أصحاب محمد، وهم أمته التي كانت خير أمة أخرجت للناس، وبهذه الأمة وبدينها انحسر الظلم والشرك، وهزم الضلال والباطل، وانتصر الحق والعدل بالمسلمين الذين شروا الحياة الدنيا بالآخرة، وباعوا أنفسهم رخيصة لله سبحانه **﴿إن**

---

(١٨٤) رؤيا يوحنّا اللاهوتي ٧، ١٣، ١٤.

(١٨٥) هذه الحيوانات كما ذكرتها الرؤيا اللاهوتية مملوءة عيوناً من قدّام ومن وراء. والحيوان الأول شبه أسد، والثاني شبه عجل، والثالث له وجه إنسان، والرابع شبه نسر طائر. ولكل منها ستة أجنحة حولها ومن داخلها مملوءة عيونا، ولا تزال نهاراً وليلاً قائلة قدّوس قدّوس قدّوس الرب الإله القادر على كل شيء الذي كان والكائن الذي يأتي.

(١٨٦) رؤيا يوحنا ١٤. (١٨٧) النحل ٥٠.

الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون وعداً عليه حقاً في التوراةِ والإنجيل والقرآنِ ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (١٨٨) .

وتقول رؤيا يوحنا :

(ثم تبعه ملاك آخر قائلاً : سقطتْ سقطتْ بابل المدينة العظيمة لأنها سقت جميع الأمم من خمر غضب زناها .

ثم تبعهما ملاك ثالث قائلاً بصوت عظيم : إن كان أحد يسجد للوحش ولصورته، ويقبل سمته على جبهته أو على يده فهو أيضاً يشرب من خمر غضب الله المصبوب صرفاً في كأس غضبه، ويعذب بنار وكبريت أمام الملائكة القديسين وأمام الخروف.

وسمعت صوتاً من السماء قائلاً لي : اكتب طوبى للأموات الذين يموتون في الرب منذ الآن.

ثم نظرت وإذا سحابة بيضاء وعلى السحابة جالس شبه ابن إنسان له على رأسه إكليل من ذهب، وفي يده منجل حاد. وخرج ملاك آخر من الهيكل يصرخ بصوت عظيم إلى الجالس على السحابة : أرسِلْ منجلك واحصد لأنه قد جاءت الساعة للحصاد، إذ قد يبس حصيد الأرض. فألقى الجالس على السحابة منجله على الأرض فحصدت الأرض.

ثم خرج ملاك آخر من الهيكل الذي في السماء معه أيضاً منجل حاد. وخرج ملاك آخر من المذبح له سلطان على النار وصرخ صراخاً عظيماً إلى الذي معه المنجل الحادّ قائلاً : أرسل منجلك الحاد واقطفْ عناقيد كرم الأرض لأن عنبها قد نضج. فألقى الملاك منجله إلى الأرض وقطف كرم الأرض فألقاه إلى معصرة غضب الله العظيمة، وديست المعصرة خارج المدينة، فخرج دم من المعصرة حتى إلى لجم الخيل مسافة ألف وستمئة غلوة.

ثم رأيت آية أخرى في السماء عظيمة وعجيبة. سبعة ملائكة معهم السبع الضربات الأخيرة لأن بها أكمل غضب الله. ورأيت كبحر من زجاج مختلط بنار والغالبين على الوحش (الوثنية) وصورته وعلى سمته، وعدد اسمه، واقفين على البحر الزجاجي معهم قيثاراتُ الله. وهم يرتّلون ترنيمة موسى عبد الله وترنيمة الخروف قائلين : عظيمة وعجيبة هي أعمالك أيها الرب الإله القادر على كل شيء، عادلة وحق هي طرقك يا ملك القدّيسين. من لا يخافك يا رب ويمجد اسمك لأنك وحدك قدوس لأن جميع الأمم سيأتون ويسجدون أمامك لأن أحكامك قد أظهرت) (١٨٩) .

---

(١٨٨) التوبة ١١١ .   (١٨٩) الرؤيا ١٤ : ٨ .. و ١٥ .

وتمضي الرؤيا متسلسلة زمنياً مع وثنية البشرية وعلى رأسها أعظم أمبراطوريتين وهي الرومانية والفارسية، وما كان لملوكها من سلطان تثبيت دعائم الشرك والضلال مما عمل على انهيارها، وقد أرجع عظيم المؤرخين - كما يقول ديـو سقوط الدولة الرومانية إلى المسيحية، وليس من شك في أنها مسيحية بولس وليست مسيحية المسيح - الموحدة الداعية إلى الفضائل - هي التي أسقطت دولة الرومان. ولكن المؤرخ اعتمد على ما أعلنه المسيح عليه السلام للعالم آنذاك من أن زمناً سيأتي من المخلص الآتي هو زمن الحساب والدينونة حين يقضي خاتم الأنبياء على الوثنية العالمية ويدين الوثنيين وعمل ضدهم سيف التوحيد الذي لا يقبل شركاً أو باطلاً. ويقوي في النفوس العزم ولا يوهنه.

يقول المؤرخ في هذا: (إن المسيحية كانت أهم أسباب سقوط الدولة الرومانية؛ لأن هذا الدين قد قضى على العقائد القديمة التي كانت هي الدعامة الخلقية للنفوس الرومانية، والدعامة السياسية للدولة الرومانية. ولأنه ناصـب الثقـافـة القـديمة العـداء، فحـارب العلم والفلسفة والأدب والفن، وجاء بالتصور الشرقي الموهن فأدخله في الرواقية الواقعية التي كانت من خصائص الحياة الرومانية. وحوّلَ أفكار الناس عن واجبات هذاالعالم ووجّههم إلى الاستعداد لاستقبال كارثة عالمية وهو استعداد مضعّف للعزيمة وأغراهم بالجري وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة بدل السعي للنجاة الجماعية بالإخلاص للدولة والتفاني في الدفاع، وحطم وحدة الأمبراطورية حين كان الأباطرة العسكريون يكافحون للاحتفاظ بها. وشجع أتباعه على الامتناع عن تولي المناصب العامة أو أداء الخدمة العسكرية. وكان المبدأالأخلاقي الذي يدعو إليه هو مبدأ السلام وعدم المقاومة، حين كان بقاء الأمبراطورية يتطلب تقوية الروح الحربية، وبهذا كله كان انتصار المسيح إيذانا بموت رومة [١٩٠].

ويرى ديو أن هذا الاتهام لا يخلو من بعض الحقيقة، لأن المسيحية كان لها - على الرغم منها - نصيب في فوضى العقائد التي ساعدت على إيجاد ذلك الخليط من العادات التي كان لها نصيب في انهيار رومة. وإن نمو المسيحية وانتشارها كانا نتيجة لضعف رومة أكثر مما كانا سبباً في هذا الضعف، ذلك أن تحطم قواعد الدين القديم قد بدأ قبل ظهور المسيح بزمن طويل [١٩١].

وذلك كله يؤكد ما أراه من أن لمسيحية بولس أثراً في فوضى العقائد هذا، حين أخرج مسيحيّة المسيح من نطاق قوم إسرائيل إلى عالمية لم تكن مقدرة لها، ذلك لأن دعوة عيسى المكملة لدعوة موسى ما كان في مكنتها القضاء على الفساد المستشري في العالم كله وعلى وجه

(١٩٠) قصة الحضارة ١١: ٤٠٨. (١٩١) قصة الحضارة ١١: ٤٠٩.

الخصوص في ثنايا امبراطورية الروم والفرس، فكان لها من ذلك الآثار السلبية التي حولت مسيحية المسيح إلى مسيحيّة هي خليط من عقائد شتى وثنية وفلسفية، مما سهل على المسيحية انتشارها، ما دام هذا الانتشار كان يعتمد تذويب الأصل وتضييع الجوهر.

ونستشف ذلك من رؤيا يوحنا التي لا نقطع في كونها إلهاماً أو تـأليفـاً، ولكنهـا في كلتـا الحالتين تصور زمناً آتياً هيأ له المسيح عليه السلام.

(ثم جاء واحد من السبعة الملائكة الذين معهم السبعة الجامات، وتكلم معي قائلاً: هلمّ فأريك دينونة الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التي زنى معها ملوك الأرض، وسكر سكان الأرض من خمر زناها. فمضى بي بالروح إلى برية، فرأيت امرأة جالسة على وحش قرمزي مملوء أسماء تجديف له سبعة رؤوس وعشرة قرون. والمرأة كانت متسربلة بأرجوان وقرمز ومتحلية بذهب وحجارة كريمة ولؤلؤ ومعها كأس من ذهب في يدها مملوءة رجاسات ونجاسات زناها. وعلى جبهتها اسم مكتـوب. سرّ. بـابـل العظيمـة أم الزواني ورجـاسـات الأرض. ورأيت المرأة سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء يسوع. فتعجبتُ لما رأيتها تعجباً عظيماً.

ثم قال لي الملاك: لماذا تعجبت؟ أنا أقول لك سرّ المرأة والوحش الحامل لها الذي له السبعة الرؤوس والعشرة القرون. الوحش الذي رأيت كان وليس الآن وهو عتيد أن يصعد من الهاوية ويمضي إلى الهلاك. وسيتعجب الساكنون على الأرض الذين ليست أسماؤهم مكتوبة في سفر الحياة منذ تأسيس العالم، حينما يرون الوحش أنه كان وليس الآن مع أنه كائن. هنا الذِّهن الذي له حكمه. السبعة الرؤوس هي سبعة جبال عليها المرأة جالسة. وسبعة ملوك خمسة سقطوا وواحد موجود والآخر لم يأت بعد، ومتى أتى ينبغي أن يبقى قليلاً. والوحش الذي كان وليس الآن فهو ثامن وهو من السبعة ويمضي إلى الهلاك. والعشرة القرون التي رأيت هي عشرة ملوك لم يأخذوا ملكاً بعد، لكنهم يأخذون سلطاناً كملوك ساعة واحدة مع الوحش. هؤلاء لهم رأي واحد ويعطون الوحش قدرتهم وسلطانهم. هؤلاء سيحاربون الخروف، والخروف يغلبهم لأنه رب الأرباب وملك الملوك، والذين معه مدعوون ومختارون ومؤمنون. ثم قال لي: المياه التي رأيت حيث الزانية جالسة هي شعوب وجموع وأمم وألسنة. وأما العشرة القرون التي رأيت على الوحش فهؤلاء سيبغضون الزانية وسيجعلونها خربة وعريانة، ويأكلون لحمها ويحرقونها بالنار، لأن الله وضع في قلوبهم أن يصنعوا رأياً واحداً، ويعطوا الوحش ملكهم حتى تكمل أقوال الله. والمرأة التي رأيت هي المدينة العظيمة التي لها

مُلْكٌ على ملوك الأرض)[١٩٢].

ثم لا تلبث الرؤيا أن تصل إلى نقطة إزهاق الباطل والقضاء عليه بيد خاتم الرسل والأنبياء، وهو يقود أصحابه في طريق الحق ونشر التوحيد والعدل، وقد بات قائد البشرية التي دانت بدينه ورفعت رايته، وقد ألّفها ووحّدها وما كان له ذلك لولا إرادة الله سبحانه، وهي الإرادة التي هيأت لمحمد ولم تهيّئ لسواه من الأنبياء والرسل توحيد البشرية وتأليف قلوبها على دين السماء الموحد الإسلام ﴿**وألّف بين قلوبهم. لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن اللهِ ألّفَ بينهم إنّهُ عزيزٌ حكيم**﴾[١٩٣].

وزهق الباطل (ورفع ملاك واحدٌ حجراً كرحى عظيمة، ورماه في البحر قائلاً: هكذا بدَفْعٍ ستُرمى بابل المدينة بالعظيمة، ولن توجد في ما بعد. وصوت الضاربين بالقيثارة والمغنين والمزمرين والنافخين بالبوق لن يسمع فيك في ما بعد. وكل صانع صناعة لن يوجد فيك في ما بعد. وصوت رحى لن يُسمع فيكِ في ما بعد. ونور سراج لن يُضيءَ فيكِ في ما بعد. وصوت عريسٍ وعروس لن يُسمع فيكِ في مابعد. لأن تجارك كانوا عظماء الأرض. إذ بسحرك ضلّت جميع الأمم.. وفيها وجد دم أنبياء وقديسين وجميع من قتل على الأرض.

وبعد هذا، سمعتُ صوتا عظيماً من جمع كثير في السماء قائلاً: هللويا الخلاص والمجد والكرامة والقدرة للرب إلهنا. لأن أحكامه حق وعادلة. إذ قد دان الزانية العظيمة التي أفسدت الأرض بزناها، وانتقم لدم عبيده من يدها، وقالوا ثانيةً: هللويا، ودخانها يصعد إلى أبد الآبدين. وخرَّ الأربعة والعشرون شيخاً والأربعة الحيوانات وسجدوا لله الجالس على العرش قائلين: آمين. هللويا. وخرج من العرش صوت قائلاً: سبّحوا لإلهنا يا جميع عبيده الخائفيه الصغار والكبار، وسمعت كصوت جمع كثير وكصوت مياه كثيرة وكصوت رعود شديدة قائلة: هللويا. فإنه قد ملك الرب الإله القادر على كل شيء. لنفرح ونتهلّل ونعطه المجد، لأن عرس الخروف قد جاء، وامرأته هيأت نفسها وأعطيت أن تلبس بزّاً نقياً بهيّاً لأن البزّ هو تبرّرات القديسين)[١٩٤].

هللويا (הַלְלוּיָהּ) هلّلويا. سبحوا الرب. سبحوا الرب أليست هذه هي الله أكبر، أليس هو النداء الذي استقبلت البشرية به دين الإسلام؟ أليس هو النداء الذي تزلزلت به أركان الشرك، وانهزم الباطل؟

إنه الله أكبر الذي أطاح بقوى الشرك ومعاقل الطغيان، واندكت به الحصون اليهودية قبل سواها فأين حصون خيبر المنيعة وقد تهاوت احجارها وأركانها ودعائمها براية الله

(١٩٢) الرؤيا ١٧. (١٩٣) التوبة ٦٣. (١٩٤) الرؤيا ١٩.

أكبر؟ إنها نداء البشرية منذ خلقت، وهي نداء أنبياء الله ورسله الذين تسلّموا أمانة دين (الله أكبر) للوصول به إلى خاتم الأنبياء وتسليمه، أمانة الله التي كان جوهرها.

سبحان الله والله أكبر آية انتصار دين الله على أعداء دينه. هي دعوة عيسى العلنية إلى قومه أن سبّحوا الله، والله أكبر ولا إله إلاّ هو سبحانه. وطوبى للعاملين بدعوة يسوع، وطوبى لحاملي أمانته التبشيرية بمحمد ﷺ.

ولكن أن ينحرف المنحرفون بها، فذلك كفرهم، وأن يضيّع المزيفون جوهرها فذلك هو شركهم وإن العذاب على من تولّى وكفر، وبئس مثلاً القوم الذين كذبوا بآيات الله. و ﴿**لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أنْ سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون**﴾ (١٩٥).

وإن من يؤمنون بمسيحية بولس أو شاول اليهودي اليوم يؤمنون بما آمنت به إسرائيل، وما يؤمنون، وإن إيمانهم ليس برب الكون ولكنه رب يصنعونه بأيديهم عجلاً أو وثناً أو دولاراً أو سواه، لأن دعوة يسوع المسيح هو التوحيد الذي أرسل به إلى قومه خاصة فحسب، وهو التبشير بما بشرت به توراتهم بشارة أحمدية إسلامية. ولم يستجب القوم لعيسى بل كفروا به وبما أرسل به، وليس ذلك فحسب، وإنما عملوا على تضييع جوهر دعوة عيسى أو تحريفها وتذويبها في مختلف العقائد الوثنية، حتى باتت مسيحية لا تمتّ إلى المسيح بصلة، وبتنا نسمع هذه الأيام دعوات مسيحية تعادي الصهيونية، وتشير إلى خبر أوردته صحيفة الرأي الأردنية بتاريخ ١٣ / ٥ / ١٩٨٦ يقول: (وألقت السلطات الإسبانية القبض كذلك على عشرة أشخاص يشتبه في أنهم ينتمون إلى جماعة معادية للصهيونية، تتخذ من لبنان مقراً لها وتُسمّى (دعوة يسوع المسيح). فلعل أصحاب هذه الدعوة قد عادوا إلى لعنة عيسى على اليهود (أيها الحيات أولاد الأفاعي، كيف تهربون من دينونة جهنم.. يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردتُ أن اجمع اولادكِ كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا؟ هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً) (١٩٦).

وتمضي رؤيا يوحنا في الحديث عن الخروف الذي تحدث عنه عيسى عليه السلام، ولعلّها رؤيا تسترجع ما أراده عيسى من نشر دعوته وهو تبليغها أمانة إلى قوم إسرائيل، وقد أراد أن يهيئهم التهيئة الأخيرة إلى استقبال الحياة الجديدة والدين الجديد الخالد الذي تختم به رسالات السماء، وحتى يشجع القوم على ذلك ويستثير أعماقهم فقد أعلن لهم أنه الباب الذي يدخلون منه إلى ذلك العالم المرتقب. وأما حديث عيسى عن ذلك العالم فهو تصوير له وتجسيد، ولعل العميان يفهمون.

(١٩ٵ) المائدة ٨٠. (١٩٦) متّى ٢٣: ٣٢.

الحق الحق أقول لكم إن الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص. وأمّا الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف. لهذا يفتح البوابُ والخرافُ تسمع صوته، فيدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها. ومتى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها والخراف تتبعه لأنها تعرف صوته. وأما الغريب فلا تتبعه بل تهرب منه لأنها لا تعرف صوت الغرباء. هذا المثل قاله لهم يسوع. وأما هم فلم يفهموا ما هو الذي كان يكلمهم به.

فقال لهم يسوع أيضاً: الحق الحق أقول لكم إني أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلي هم سرّاق ولصوص. ولكن الخراف لم تسمع لهم. أنا هو الباب، إن دخل بي أحد فيخلص، ويدخل ويخرج ويجد مرعى.. السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك. وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل. أنا هو الراعي الصالح. والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف. وأما الذي هو أجير وليس راعياً الذي ليست الخراف له فيرى الذئب مقبلاً ويترك الخراف ويهرب. فيخطف الذئب الخراف ويبدّدها. والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالي بالخراف. أما أنا فإني الراعي الصالح وأعرف خاصتي وخاصتي تعرفني. وأنا أضع نفسي عن الخراف. ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد) [١٩٧].

إن استعداد عيسى لاستقبال المخلص الصادق الأمين لم يحفز القوم على العمل بالبر والإيمان، مع كونه استعداداً جسّدَ لهم قرب الخلاص. نقرأ ذلك في رؤيا يوحنا وقد سمع من السماء صوتاً يقول له: آمراً (اكتب طوبى للمدعوين إلى عشاء عرس الخروف. وقال هذه هي أقوال الله الصادق. فخررت أمام رجليه لأسجد له. فقال لي: انظر لا تفعل. أنا عبد معك ومع إخوتك الذين عندهم شهادة يسوع. اسجد لله. فإن شهادة يسوع هي روح النبوة.

ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب. وعيناه كلهيب نار، وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلاّ هو.. والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزّاً أبيض ونقياً. ومن فمه يخرج سيف ماضٍ لكي يضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعصا من حديد، وهو يدوس معصرة خمر سخط وغضب الله القادر على كل شي. وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب ملك الملوك ورب الأرباب.

ورأيت ملاكاً واحداً واقفاً في الشمس، فصرخ بصوت عظيم قائلاً لجميع الطيور الطائرة

---

(١٩٧) إنجيل يوحنا ١٠: ١ - ١٦.

في وسط السماء : هلمّ اجتمعي إلى عشاء الإله العظيم لكي تأكلي لحوم ملوك ولحوم قواد ولحوم أقوياء ولحوم خيل والجالسين عليها ولحوم الكلّ، حرّاً وعبداً، صغيراً وكبيراً.

ورأيت الوحش وملوك الأرض وأجنادهم مجتمعين ليصنعوا حرباً مع الجالس على الفرس ومع جنده فقبض على الوحش والنبي الكذاب معه الصانع قدامه الآيات التي بها أضلّ الذين قبلوا سمة الوحش والذين سجدوا لصورته، وطرح الاثنان حيّين إلى بحيرة النار المتّقدة بالكبريت. والباقون قُتلوا بسيف الجالس على الفرس الخارج من فمه، وجميع الطيور شبعتْ من لحومهم) (١٩٨).

وتصبح السماء غير السماء، والأرض غير الأرض، وتبرز إلى الوجود أورشليم الجديدة في أرض الحجاز، ويصبح الآخرون أولين، وفيهم تختتم رسالات السماء وأمانتها على الأرض. وفي هذا تقول رؤيا يوحنا:

(ثم رأيت سماء جديدة أرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد في ما بعد. وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: هو ذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعباً، والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم، والموت لا يكون في ما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع في ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضتْ.

وقال الجالس على العرش ها أنا أصنع كل شيء جديداً. وقال لي: اكتب فإن هذه الأقوال صادقة وأمينة. ثم قال لي قد تم. أنا هو الألف والياء البداية والنهاية. أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً. من يغلب يرث كل شيء وأكون له إلهاً وهو يكون لي ابناً. وأما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت الذي هو الموت الثاني.

ثم جاء إليّ واحد من السبعة الملائكة الذين معهم السبعة الجامات المملوّة من السبع الضربات الأخيرة وتكلم معي قائلاً: هلمّ فأريك العروس امرأة الخروف. وذهب بي الروح إلى جبل عظيم عالٍ وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله. لها مجد الله ولمعانها شبه أكرم حجر كحجر يشب بلوري... ولم أر فيها هيكلاً لأن الرب الله القادر على كل شيء هو والخروف هيكلها. والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها، لأن مجد الله قد أنارها، والخروف سراجها. وتمشي شعوب المخلّصين بنورها، وملوك

(١٩٨) الرؤيا ١٩.

الأرض يجيئون بمجدهم وكرامتهم إليها. وأبوابها لن تغلق نهاراً، لأن ليلاً لا يكون هناك. ويجيئون بمجد الأمم وكرامتهم إليها. ولن يدخلها شيء دنس ولا ما يصنع رجساً وكذباً إلاّ المكتوبين في سفر حياة الخروف) (١٩٩).

هي مكة المكرمة وبيتها الحرام، وقد حُرّمت على المشركين **﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامهم هذا﴾** (٢٠٠). منها أشرق نور الإسلام ونور محمد ﷺ، وهي قبلة المسلمين آناء الليل وأطراف النهار، وإليها يحج المسلمون في كل عام أمة مسلمة قوية يباهي الله بها الأمم، وعلى جباههم علامة عبادة الرب وتسبيحه (سيماهم في وجوههم من أثر السجود).

ورأى يوحنا في رؤياه (نهراً صافياً من ماء حياة لامعاً كبلورٍ خارجاً من عرش الله والخروف. في وسط سوقها وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع اثنتي عشرة ثمرة وتعطي كل شهر ثمرها، وورق الشجرة لشفاء الأمم، ولا تكون لعنة ما في ما بعد. وعرش الله والخروف يكون فيها وعبيده يخدمونه. وهم سينظرون وجهه واسمه على جباههم ولا يكون ليل هناك ولا يحتاجون إلى سراج أو نور شمس لأن الرب الإله ينير عليهم وهم سيملكون إلى أبد الآبدين.

ثم قال لي هذه الأقوال أمينة وصادقة. والرب إله الأنبياء القديسين أرسل ملاكه ليري عبيده ما ينبغي أن يكون سريعاً. ها أنا آتي سريعاً. طوبى لمن يحفظ أقوال نبوة هذا الكتاب) (٢٠٠).

لقد كان أول تبرئةٍ لعيسى عليه السلام المعاتبة الرفيقة الرحيمة من الله له على ما فعل المؤمنون به من بعده، ولا يعني ذلك أن الله تعالى يجهل - وحاشا الله - موقف نبيه عيسى من الذين جعلوا منه ثالث ثلاثة ولكنه العتاب الذي حفظه القرآن الكريم شهادة داحضة ضد المشركين المؤلهين عيسى ويجعله ابناً لله **﴿وإذْ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنتَ قلتَ اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحق إن كنتُ قلته فقد علمتَهُ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب. ما قلتُ لهم إلّا ما أمرتَني به أن اعبدوا الله ربي وربّكم وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيبَ عليهم وأنت على كلّ شيءٍ شهيد. إنْ تعذّبهم فإنهم عبادك وإن تغفرْ لهم فإنك أنت العزيزُ الحكيم﴾** (٢٠٢).

إن عبادة الله الواحد الأحد الذي دعا إليها أنبياء الله ورسله تعني أن لا عبادة إلاّ لله،

---

(١٩٩) الرؤيا ٢١. (٢٠٠) التوبة ٢٨. (٢٠١) الرؤيا ٢٢. (٢٠٢) المائدة ١١٦ - ١١٨.

ولا سجود إلاّ لله، ولا تسبيح إلاّ له سبحانه ـ وكان تسبيح عيسى الذي أرسل به إلى قومه ليمهد لهم طريق الإسلام بعبادة الله وتسبيحه هي هلّلويا التي يردّدها اليهود والنصارى في مجال السرور والانشراح دون أن يربطوها بسبحان الله والحمد لله والله اكبر ولا إله إلاّ الله، لفظة مجردة من معناها كما أرادها لهم شيطانهم يقول يوحنا: (وأنا يوحنا الذي كان ينظر ويسمع هذا. وحين سمعتُ ونظرتُ خررتُ لأسجد أمام رجلي الملاك الذي كان يريني هذا. فقال لي انظر لا تفعل. لأني عبد معك ومع إخوتك الأنبياء والذين يحفظون أقوال هذا الكتاب. اسجد لله. وقال لي لا تختم على أقوال نبوة هذا الكتاب لأن الوقت قريب. من يظلم فليظلم بعد. ومن هو نجس فليتنجس بعد. ومن هو بارٌّ فليتبرر بعد. ومن هو مقدس فليتقدس بعد.

وها أنا آتي سريعاً، وأجرتي معي لأجازي كل واحد كما يكون عمله. أنا الألف والياء. البداية والنهاية. الأول والآخر. طوبى للذين يصنعون وصاياه لكي يكون سلطانهم على شجرة الحياة ويدخلوا من الأبواب إلى المدينة. لأن خارجاً الكلاب والسحرة والزناة والقتلة وعبدة الأوثان وكل من يحبّ ويصنع كذباً) (٢٠٣).

ولعل عيسى كان يعلم يقيناً ما سيؤول إليه قومه من شرك وتحريف وتزييف لأصل دعوته، فهو يحذر قومه في رؤيا يوحنا من ذلك الضلال والتحريف فيقول له: (أنا يسوع أرسلت ملاكي لأشهد لكم بهذه الأمور عن الكنائس... لأني أشهد لكل من يسمع أقوال نبوة هذا الكتاب إن كان أحد يزيد على هذا يزيد الله عليه الضربات المكتوبة في هذا الكتاب. وإن كان أحد يحذف من أقوال كتاب هذه النبوة يحذف الله نصيبه من سفر الحياة ومن المدينة المقدسة ومن المكتوب في هذا الكتاب) (٢٠٤).

وحفظ الذكر الحكيم ما تيقّنه عيسى من شرك قومه فقال سبحانه في وصف أهل الكتاب:

﴿فبما نقضهم ميثاقَهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعفُ عنهم واصفح إنّ الله يحب المحسنين. ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقَهم فنسوا حظّاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة وسوف ينبِّئهم الله بما كانوا يصنعون. يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيِّن لكم كثيراً مما كنتم تُخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مبين يهدي به اللهُ من اتّبع رضوانَهُ سبلَ السلام ويخرجُهُم من الظلماتِ إلى النورِ بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم. لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيحُ ابن مريم. قل فمن

(٢٠٣) الرؤيا ٢٣ : ١ ـ ١١. (٢٠٤) الرؤيا ٢٢ : ١٦ و١٨ ـ ١٩.

يملكُ من الله شيئاً إنْ أرادَ أن يُهلكَ المسيحَ ابن مريمَ وأمَّه ومنْ في الأرضِ جميعاً . ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء واللهُ على كل شيء قدير . وقالت اليهودُ والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذبُ من يشاء ولله ملك السمواتِ والأرضِ وما بينهما وإليه المصير . يا أهلَ الكتابِ قد جاءكم رسولُنا يبيّنُ لكم على فترةٍ من الرسلِ أن تقولوا ما جاءَنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ واللهُ على كلّ شيء قدير ﴾ (٢٠٥) .

صدق الله العظيم

(٢٠٥) المائدة ١٣ ـ ١٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قال: فإنها محرمة عليهم﴾

النمل ٧٦

ما أمسكت القلم لأكتب إلا قفزت إليه قضية الحق أو حق القضية لتكون هي أعظم ما يكتب وأقدس ما يتحدث به. تلك هي قضية الأرض التي لم يعرف التاريخ ـ منذ آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ لها مثيلاً.

هي الأرض التي هيأها الله سبحانه منذ الأزل لتكون الأرض التي بارك الله حولها. أرض النبوات والرسالات، التي حرم دخولها على كل جاحد أمانة السماء إلى الأرض، أمانة لا إله إلاّ الله الواحد الأحد الفرد الصمد. فقال تعالى **﴿فإنها محرمة عليهم﴾**.

يقول كتبة التوراة من سَبْي بابل إن فلسطين هي وعد الرب نسل ابراهيم؛ لأن هذا النسل هم الشعب المختار المتميز. وهم مختارون ليس لأن الرب اختارهم، ولكن لأنهم هم الذين اختاروا الرب كما تقول جوالد مائير كاهنة صهيون.

وقد دبج كتبة التوراة ووُضّاعها توراتهم من مزيج خيالاتهم المريضة ونفوسهم التي ضرب عليها الذلّة والمسكنة، فادّعوا وادعوا، ونسبوا كل خير إلى نسل إبراهيم من ابنه الثاني إسحق، بينما حاولوا وعملوا على طمس كل أثر لعلاقة إبراهيم بابنه البكر إسماعيل، وظنوا أنهم يخدعون المؤمنين، وما يخدعون إلاّ أنفسهم.

والتوراة نفسها هي التي تؤكد ما أرادوا طمسه. فإبراهيم هو أبو إسماعيل البكر من زوجه هاجر، بينما ولد له من سارة ابنه اسحق بعد ثلاثة عشر عاماً من أخيه البكر. كما أن التوراة والحقيقة والتاريخ والإنجيل يقول: إن نسل إبراهيم من إسماعيل قد هُيِّىء لتلقّي النبوة وتسلمها من فرع إسحق الذين لم يصونوا الأمانة، ولم يبلغوها كما شاء لها الله أن تبلغ. ويدرك كل ذي عقل هذه الحقيقة من القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفيه تفصيل كل شيء، وهو الذي **﴿يقصُّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾**[1].

وهذه الحقيقة قد أكدتها التوراة على الرغم مما داخلها من تحريف وتزييف. فقالت في هذا

---

(١) النمل ٧٦.

النسل الإسماعيلي متلقي النبوة (فتعلم جميع أشجار الحقل أني أنا الرب وضعت الشجرة الرفيعة ورفعت الشجرة الوضيعة، ويبست الشجرة الخضراء وأفرخت الشجرة اليابسة. أنا الرب تكلمت وفعلت)[٢].

باسحق بدئت النبوة، وبالبكر إسماعيل ختمت ختام المسك ومسك الختام، وإن دعوى تمسح قوم إسرائيل بإبراهيم عليه السلام مرفوضة بحكم الإيمان والتوحيد والإسلام، فالانتساب المطلوب في حكم النبوة ليس انتساب اللحم والدم، ولكنه الإيمان بلا إله إلاّ الله الذي وصّى به إبراهيم بنيه ويعقوب فقال سبحانه: ﴿**ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بَنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنّ إلاّ وأنتم مسلمون**﴾[٣].

وقطع الله تعالى على القوم كل جدل في هذا النسب، فقال سبحانه: ﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنفياً مسلماً وما كان من المشركين**﴾[٤].

وإبراهيم الذي ينسبون إليه وعد ربهم لهم قد هاجر إلى فلسطين فراراً بدينه وتوحيده من مدن أرام أو حاران الواقعة شمال بلاد ما بين النهرين داخل الحدود التركية المجاورة لسوريا، كما أن إبراهيم ـ كما تذكر التوراة ـ قد دخل فلسطين طارئا غريباً ونزيلاً على أهلها (وكلم بني حثّ قائلاً: أنا غريب ونزيل عندكم)[٥]. وطلب منهم شراء قطعة أرض يدفن فيها زوجه سارة التي وافتها منيّتها في فلسطين. وقال لأهلها: (إن كان في نفوسكم أن أدفن ميتي من أمامي فاسمعوني والتمسوا لي من عفرون بن صوحر أن يعطيني مغارة المكفيلة التي له في طرف حقله بثمن كامل يعطيني إياها في وسطكم ملك قبر)[٦].

وبسماحة النفس كلها، وبكرم الخلق العظيم الذي عرف به أهل فلسطين (أجاب عفرون الحثي إبراهيم في مسامع بني حث لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلاً: اسمعنا يا سيدي أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا ادفن ميتتك. الحقل وهبتك إياه، والمغارة التي فيه لك وهبتها لدى عيون بني شعبي وهبتك إياها. ادفن ميتتك)[٧].

وأبى إبراهيم إلاّ أن يقابل هذا الخلق بمثله ليشهد التاريخ أن الأرض هي ملك أهلها، وليس للطارىء النازل على أهلها من الحق فيها ما لأهلها. فقد صمّم إبراهيم على دفع الثمن بعد أن قام إبراهيم (وسجد لشعب الأرض لبني حث، وسجد إبراهيم أمام شعب الأرض)[٨]. (وكلمّ عفرون في مسامع شعب الأرض قائلاً: بل إن كنت أنت إيّاه فليتك تسمعني. أعطيك ثمن الحقل. خذ مني فأدفن ميتي هناك. فأجاب عفرون إبراهيم قائلاً له: يا

---

(٢) حزقيال ١٧ : ٢٤ .
(٣) البقرة ١٣٢ .
(٤) آل عمران ٦٧ .
(٥) تكوين ٢٣ : ٦ .
(٦) تكوين ٢٣ : ٨ .
(٧) السابق ٢٣ : ١١ .
(٨) نفسه ٢٣ : ١٣ .

سيدي اسمعني. أرض بأربع مئة شاقل فضة ما هي بيني وبينك. فسمع إبراهيم لعفرون، ووزن ابراهيم لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حث أربع مئة شاقل فضة جائزة عند التجار. وبعد ذلك دفن إبراهيم سارة امرأته في مغارة حقل المكفيلة أمام ممرا التي هي حبرون في أرض كنعان. فوجب الحقل والمغارة التي فيه لإبراهيم ملك قبر من بني حث)[9].

هكذا أعلن إبراهيم أبو إسماعيل عليهما السلام للتاريخ ولأهله أن المشترى أرضاً في مكان ما من المعمورة لا يصبح مالكاً للمعمورة كلها، وإلاّ فهو الاغتصاب الذي ترفضه سنة الحياة والتاريخ، وشرع السماء والذي لا يصبر عليه حر.

إن ذلك شيء يسير من بداية غربة إبراهيم عليه السلام في أرض فلسطين، وهو من يتمسّح به أعداء البشرية والإنسانية، وهو من يدّعون عليه ادعاءات، ويفترون افتراءات، دبجتها أقلام وُضّاع التوراة في الوعد الكاذب المكذوب، ولكن الله سبحانه أبطل على رب جنود بني إسرائيل خططه فقال: ﴿**فإنها محرمة عليهم**﴾[10].

---

(٩) **تكوين ٢٣: ١٤ - ١٧.** (١٠) **المائدة ٢٦.**

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قال: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾

وصلاً بما سبق أقول: إن الله سبحانه وتعالى قد حرم على بني إسرائيل فلسطين، بعد امتحانات كثيرة، وابتلاءات متعددة ابتلوا بها، وكانت النتيجة فيها دائماً الفشل والسقوط إلى الدرك الأسفل من الكفر والغضب ولعنة الله والملائكة والأنبياء والناس أجمعين.

وليس هذا فحسب؛ فقد قرن الله تعالى عقاب التحريم بعقاب آخر، يربطهما رباط نفسي مستكنّ في نفوس بني إسرائيل، وذلك يلمح إلى قوة غضب الله عليهم في تلك اللحظة التي تعمدوا فيها الفشل والضلال، مع وضوح الآيات البيّنات التي أرسل بها رسولهم موسى عليه السلام إليهم. واستحالت قلوبهم مع هذا الجحود إلى الحجارة أو أشد قسوة، فقال فيهم سبحانه: **﴿ثم قستْ قلوبُكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوةً. وإن من الحجارة لما يتفجرُ منه الأنهارُ، وإن منها لما يشقق فيخرجُ منه الماء وإن منها لَمَا يهبطُ من خشيةِ الله وما الله بغافلٍ عما تعلمون﴾** [1].

لقد خلت قلوبهم، بل تجردت من أيّ مقوم من مقومات تبليغ الرسالة، وذلك كان شرط السماح لهم بدخول الأرض دخول مبلغي دعوة، وحاملي أمانة، وناشري راية، لا دخول محتلي أرض، ولا متملكي وطن، ولا مغتصبي حق ممهور بدماء أهله منذ الأزل.

فإن قالوا: إبراهيم وُعد. قلنا: إبراهيم لم يوعد، ولكنه اشترى مدفناً لزوجه فحسب، مما لا يعطيه شرعية تملك الأرض كلها، ودفع ثمن المدفن لصاحب الأرض.

وقد يكون التاريخ كريماً بهم فيحملهم على شراء مدافن كثيرة لهم في فلسطين من أهل فلسطين، وهذه ستضحي لهم مقبرة تقول لهم ما تقوله جهنم **﴿يوم نقول لجهنّمَ هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد﴾** [2]. وهم يعلمون يقيناً أن كل تجمع لهم في فلسطين سيكون بداية قهرٍ جديد لهم وعقاب جديد وتشتت جديد.

نستمع إلى توراتهم تقول: (أنتم تقولون إن طريق الرب غير مستوية. إني أحكم على كل واحد منكم كطرقه يا بيت إسرائيل. يا ابن آدم؛ إن الساكنين في هذه الخرب في أرض

---

(١) البقرة ٧٤.   (٢) ق ٣.

إسرائيل يتكلمون قائلين: إن إبراهيم كان واحداً وقد ورث الأرض. ونحن كثيرون. لنا أعطيت الأرض ميراثاً. لذلك قل لهم: هكذا قال السيد الرب: تأكلون بالدم، وترفعون أعينكم إلى أصنامكم، وتسفكون الدم، أفترثون الأرض؟) (٣).

ستكون فلسطين من خلال توراتهم التي يؤمنون بها أولا يؤمنون مفراً لهم ومهرباً، ولكن إلى أين؟ إلى حيث (لا يهرب منهم هارب، ولا يفلت منهم ناج، إذا نقبوا إلى الهاوية فمن هناك تأخذهم يدي، وإن صعدوا إلى السماء فمن هناك أنزلهم، وإن اختبأوا في رأس الكرمل فمن هناك أفتّش وآخذهم، وإن اختفوا من أمام عيني في قعر البحر فمن هناك آمر الحية فتلدغهم، وإن مضوا في السبي أمام أعدائهم فمن هناك آمر السيف فيقتلهم وأجعل عيني عليهم للشر لا للخير) (٤).

ذلك نهاية مطافهم في التاريخ والتوراة والإنجيل والقرآن، لأنهم ما أقاموا شريعة الله، وما عملوا بمنهاجه ولكنهم هدموا الشريعة وبدلوها بأيديهم، فاستحقوا اللعنات والغضب جيلاً بعد جيل (ويفرزه الرب للشر من جميع أسباط إسرائيل حسب جميع لعنات العهد المكتوبة في كتاب الشريعة هذا. فيقول الجيل الأخير: بنوكم الذين يقومون بعدكم، ويقول جميع الأمم: لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض؟ لماذا حمو هذا الغضب العظيم؟ فيقولون: لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم الذي قطعه معهم حين أخرجهم من أرض مصر. وذهبوا وعبدوا آلهة أخرى وسجدوا لها. آلهة لم يعرفوها ولا قُسمتْ لهم. فاشتعل غضب الرب على تلك الأرض حتى جلب عليها كل تلك اللعنات المكتوبة في هذا السفر، واستأصلهم الرب من أرضهم بغضب وسخط وغيظٍ عظيم، وألقاهم إلى أرض أخرى كما في هذا اليوم) (٥).

إن في تمرد بني إسرائيل على الرب ألف لعنة وألف عقاب، تلك اللعنات التي تحيق بأجيالهم كلها، حتى لا تكاد تذرُ منهم أحداً، وهي لعنات اصدرها كتبة التوراة عن رب غاضب، في سره المكنون أن ذلك الشعب لن يبلّغ الرسالة كما يجب عليه أن يبلّغها فقال لهم:

(ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا موصيك بها اليوم، تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتدركك. ملعوناً تكون في المدينة، وملعوناً تكون في الحقل. ملعونة تكون سلتك ومعجنك. ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك، نتاج بقرك وإناث غنمك. ملعوناً تكون في دخولك، وملعوناً تكون في خروجك. يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك

---

(٣) حزقيال ٣٣: ٢١، ٢٤، ٢٥.

(٤) عاموس ٩: ١ - ٤.

(٥) أيام السبي البابلي التي كتبوا فيها توراتهم. تثنية ٢٩ و ٢٨

وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك إذ تركتني. يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التي أنت داخل إليها. يضربك الرب بالسلّ والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتّبعك حتى تفنيك، وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً والأرض تحتك حديداً.

يجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك، في طريق واحدة تخرج عليهم، وفي سبع طرق تهرب أمامهم، وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض. يضربك الرب بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء. يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب. ثمر أرضك وكل تعبك يأكله شعب لا تعرفه، فلا تكون إلاّ مظلوماً ومسحوقاً كل الأيام.

الغريب الذي في وسطك يستعلي عليك متصاعداً، وأنت تحطّ متنازلاً. هو يكون رأساً وأنت تكون ذنباً. وتأتي عليك جميع هذه اللعنات وتتّبعك وتدركك حتى تهلك لأنك لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحفظ وصاياه وفرائضه التي أوصاك بها. فتكون فيك آية وأعجوبة وفي نسلك إلى الأبد)[٦].

إنّ تلك اللعنات الماحقات غير مقتصرة على عبدة العجل في سيناء، وهي ليست مقصورة على فترة زمنية هي تلك التي عبدَ فيها ذلك العجل، وإنما هي لعنات ماضيات في أعقاب إسرائيل وفي أجيالهم المتمردة على موسى وعلى قضاته والأنبياء وعلى شرع السماء ومنهاجها، فقد مضت فيهم اللعنة حتى بات لفظ اليهودي معرة ومسبّة ومذلّة، وحتى بات كل جيل من أجيالهم مدموغاً بتلك الدمغة التي وصم بها عبدة العجل. فأضحوا شر خلفٍ لشر سلفٍ، حكم الله فيهم ما ذكرته توراتهم (وكلم الرب موسى وهارون قائلاً: حتى متى أغفر لهذا الجماعة الشريرة المتذمّرة عليّ. قل لهم: حيٌّ أنا يقول الرب لأفعلنّ بكم كما تكلّمتم في أذنيّ. في هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعداً، الذين تذمرّوا عليّ. لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأُسكننّكم فيها.. فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر. وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة، ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر. أنا الرب قد تكلمت لأفعلنّ هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة عليّ. في هذا القفر يفنون وفيه يموتون)[٧].

وقال الحق وعز من قائل في قرآنه الحكيم: **﴿قال فإنها محرمة عليهم. أربعين سنةً يتيهون في الأرض﴾**[٨]. وإن الأرض لهم بالمرصاد، وتلك هي سنة الله، وسنة الحياة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

---

(٦) تثنية ٢٨: ١٥، ٢٩، ٣٠، ٤٣، ٤٥، ٤٦. (٧) عدد ١٤: ٢٦ - ٣٤. (٨) المائدة ٢٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل إن كنتم أحباء الله...﴾

إن عقدة الاختيار والامتياز واحدة من مجموعة العقد الكثيرة التي تحكم بني صهيون، وهي عقدة يتوهمون معها أن الرب من بين الخلائق جميعاً قد اختارهم وميزهم، فَكانت جميع الرذائل التي وُصموا بها في التوراة والإنجيل والقرآن ناجمة عن هذه العقدة. بل إنهم تجاوزوا هذه الرذائل فاختلقوا رذيلة أخرى لم يخطها كتاب فقالوا: إننا شعب مختار لا لأن الرب قد اختارنا ولكن لأننا نحن الذين قد اخترنا الرب.. هكذا..

فما قصة هذا الاختيار؟ وهل هي لازمة من لوازمهم ألصقها بهم الرب حتى باتوا يُعرفون بها؟ أو أ[illegible]لوهم الكبير والكذبة الرهيبة التي كذبوها، ثم إنهم هم أنفسهم صدقوها؟

لقد كانت رسالة موسى أولى رسالات السماء المكتوبة المحررة إلى الأرض من خلال نبيها ورسولها موسى عليه السلام، وهي رسالة تؤكد الجوهر الواحد، والأصل الذي لا يتغير ولا يتخلف منذ بدأت الخليقة، ذلك هو التوحيد الذي لايشو به شرك في الظاهر أو في الباطن.

وأرسل وموسى إلى قومه في مصر، يحمل الأمانة ليبلغها القوم الذين ابتلوا في مصر ابتلاءات، وامتحنوا امتحانات، تهيئهم من خلال معاناتهم وصبرهم على الأذى والألم للدور الكبير الذي سيحملونه مع موسى.

وهيأ الله تعالى لهم الخروج من مصر إلى الصحراء، مع ما رافق هذا الخروج من اختبارات نفسية وخلقية أخفقوا فيها جميعها، ولكنه خروج أفاض الله تعالى فيه على القوم نعماً كثيرة، وآيات متعددة كانت لهم حوافز لتشحذ هممهم، ولتبعث في نفوسهم موات الأمل من بغد ذلّة ومسكنه وضعف. فأطعمهم ربهم المنّ والسلوى وفجر لهم الصخر ينابيع يستقون منها، وظلّل عليهم الغمام يقيهم حر الشمس رأفة بهم ورحمة.

ولكنهم لم يحفظوا هذا، ولم يرعوه بل جحدوا وعقّوا وكفروا وعبدوا عجلاً ذهباً صنعوه بأيديهم، وهذا وحده يسقطهم كما يسقط سواهم من حساب أي اختيار، يفترض في أهله أن يكونوا في مدارج الكمال الروحي والنفسي والجسدي.

إن ما صنعه بنو إسرائيل في خروجهم يتنافى أصلاً مع شرط الاختيار، وقد كان الأجدر بهم أن يشكروا الله ولا يكفروه على نعمة الإيمان والتوحيد بعد الضلال والكفر،

وعلى القوة من بعد الضعف وعلى العزة بالإيمان من بعد المذلة. ولكن ذلك لم يزدهم إلاّ تعنتاً وفجوراً وقساوة قلوب وغلاظة رقاب كما تحكي توراتهم.

فأين الاختيار إذاً؟

إن الاختيار الإلهي ليس مطلقاً، وإنما هو اختيار مقيد بقيد مشروط بشرط، ومرهون بأصل لا يتخلف مع فئة دون أخرى، إنه الأصل الذي خلقت لأجله الخليقة، إنه دعوة لا إله إلاّ الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

أين الاختيار مع العجل الذهب؟ وأين الاختيار مع قولهم لموسى: أرنا الله جهرة؟ وأين الاختيار مع قتلهم الأنبياء بغير حق؟ وأين الاختيار مع عبادتهم الصنم والوثن؟

لقد انتفى الشرط فانتفى الاختيار؛ لأن شرط الله لا يقبل النقض أو المساومة، بل إن نقضه يستوجب غضب الله ولعنته ولعنة الأنبياء والملائكة. فلا مغفرة مع الشرك لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

ونقض الاختيار ماض في أعقاب بني إسرائيل، فهم شر خلف لشر سلف. وأولئك لا تقبل لهم شفاعة شافع حتى وإن كان شفيعهم موسى نفسه.

نسمع توراتهم تقول بلسان إرميا أحد أنبيائهم: (ثم قال الرب لي وإن وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب. أطرحهم من أمامي فيخرجوا، ويكون اذ قالوا لك: إلى أين نخرج أنك تقول لهم: هكذا قال الرب: الذين للموت فإلى الموت، والذين للسيف فإلى السيف، والذين للجوع فإلى الجوع، والذين للسبي فإلى السبي... ويكون حين تخبر هذا الشعب بكل هذه الأمور أنهم يقولون لك: لماذا تكلم الرب علينا بكل هذا الشر العظيم. فما هو ذنبنا؟ وما هي خطيتنا التي أخطأناها إلى الرب إلهنا؟ فتقول لهم: من أجل أن آباءكم قد تركوني يقول الرب. ذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها وإياي تركوا، وشريعتي لم يحفظوها. وأنتم أسأتم في عملكم أكثر من آبائكم. وها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير، حتى لا تسمعوا لي، فأطردكم من هذه الأرض إلى أرض لم تعرفوها أنتم ولا آباؤكم فتعبدون هناك آلهة أخرى نهاراً وليلاً حيث لا أعطيكم نعمة)[1].

ولازم ادعاء الاختيار بني اسرائيل، ولا يزال، ولكن الله سبحانه نفى ذلك عنهم وعن سواهم ممن خالط إيمانهم شيء من شرْك.

فقد أرسل عيسى عليه السلام من بعد موسى إلى بني إسرائيل كما ذكرت كتب السماء. وما جاء عيسى إلاّ متمماً لما بدأه موسى، فهو ما جاء لينقض الناموس ولكن ليكمل. فإن

---

(١) إرميا ١٥ و١٦.

دين السماء واحد من خلال الرسالات الثلاث، وجوهرها كلها توحيد الخالق سبحانه. وآمن بعيسى من آمن من بني إسرائيل، ومضى الاختيار في تلك الفئة المؤمنة بدعوة عيسى الإيمان المطلق الصريح. فالفئة التي آمنت بدعوة موسى إيماناً مطلقاً كانت الفئة المختارة في حينها فحسب، وإن الفئة التي آمنت بدعوة عيسى الإيمان المطلق كان الفئة المختارة في حينها فحسب، وفي هذا الاختيار الذي مضى عن قوم موسى إلى قوم عيسى قالت الأناجيل: (وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: وهم يكونون له شعباً، والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم) [٢].

ونبحث عن الاختيار إن كان قد استقر فيمن آمنوا بعيسى فنقرأ في الأناجيل (وربنا نفسه يسوع المسيح. والله أبونا) [٣] ثم (نوصيكم أيها الأخوة باسم ربنا يسوع المسيح) [٤]. ثم تقول: (الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع كثيرة وطرق كثيرة كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء. لأنه لمن من الملائكة قال قط: أنت ابني. أنا اليوم ولدتك وأيضاً أنا أكون له أباً، وهو يكون لي ابناً) [٥].

ولقد نقض عيسى عليه السلام ذلك كله حين أعلن لقومه مضمون دعوته حتى لا يجادلوا فيما جادلوا فيه وخاضوا، فقال سبحانه بلسان عيسى: **﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم. إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النارُ وما للظالمين من أنصار﴾** [٦].

وحسم القرآن الكريم موقف المجادلة بين أولئك جميعاً حول دعوة عيسى فقال سبحانه: **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله. قال سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحق. إن كنتُ قلتُه فقد علمتَهُ، تعلمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسك إنك أنتَ علاّمُ الغيوب. ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم. فلما توفيتني كنتَ أنتَ الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾** [٧].

ومع هذا وذاك مضى قوم إسرائيل يقولون ويتقولون ويدّعون أنهم أحباب الله لأنهم أبناء إبراهيم ظناً منهم أن ذلك يشفع لهم. لكن (الذين هم من الأيمان أولئك هم بنو إبراهيم) [٨]. (الذين هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن) [٩].

---

(٢) رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢١ : ٣.
(٣) رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل تسالونيكي ٢ : ١٦.
(٤) السابق ٣ : ٦.
(٥) الرسالة إلى العبرانيين ١ : ١، ٥.
(٦) المائدة ٧٥.
(٧) المائدة ١١٥، ١١٦.
(٨و ٩) رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣ : ٧ و ٩.

إنه نسب الإيمان لا نسب اللحم والدم ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبّاؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير**﴾ (١٠).

ولم يستقرّ الاختيار في تلك الفئة العيسوية، ولكنه مضى في طريقه المقدر له منذ خلق الله الخلق. لقد قال عيسى عليه السلام: ﴿**يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد. فلما جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحرٌ مبين**﴾ (١١).

أحمد أو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب... بن.. إسماعيل بكر إبراهيم. وقد ذكرت الأناجيل ومن قبلها التوراة أحمد خاتم الأنبياء يقول يسوع في محمد المعزي (ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً) (١٢). (وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني، وليس أحد منكم يسألني أين تمضي. لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم. لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطيّة وعلى برّ وعلى دينونة) (١٣).

وكان الإسلام الختام العظيم لدين الله على الأرض، وكان محمد ﷺ الشهيد على ما أدّاه الأنبياء في سبيل هذا الدين، فكان الخاتم والماحي الذي تمحى به الذنوب، وكان الشفيع والبشير والنذير، وكان الرحمة إلى العالمين (١٤). محمد ﷺ ﴿**رسول الله وخاتم النبيين**﴾ (١٥). وقد ختم نزول وحي القرآن العظيم عليه في حجة الوداع فقال سبحانه ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممْتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً**﴾ (١٦).

وفي أمة محمد ﷺ استقرّ اختيار الله واصطفاؤه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فكانت الأمة التي يباهي بها الله تعالى الأمم، وهي الأمة المختارة الخالدة إلى أبد الآبدين و ﴿**كنتم خير أمّةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهلُ الكتاب لكان خيراً لهم. منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون**﴾ (١٧).

---

(١٠) المائدة ١٨.
(١١) المائدة ٦.
(١٢) يوحنا ١٥: ٢٦ - ٢٧.
(١٣) السابق ١٦: ٥ - ٨.
(١٤) سبأ ٢٨.
(١٥) الأحزاب ٤٠.
(١٦) المائدة ٣.
(١٧) آل عمران ١١٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وقالوا قلوبُنا غُلْفٌ بل لعنهم الله بكفرهم﴾

البقرة ٨٨

قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشرّه ».

وهذه الأركان لا يكتمل إيمان المؤمن إلاّ بها ، لأنه يؤمن بجميع الرسلات السماوية ، ولا ينكر منها إلاّ ما نسخته الشرائع النبوية نفسها لاختلاف مقتضيات الزمن . كما ينكر العقل منها ما أضافه أصحاب الديانات إلى دياناتهم من خرافات ، ومن بقايا الوثنية والعقائد الجاهلية من جيل إلى جيل (١) .

وبهذه الأركان الإيمانية يتميز المسلم عن سواه من أصحاب الديانات الأخرى التي لا يؤمن إلا بأنبيائها ، بل إن منهم من لا يؤمن بأنبيائهم ، ذلك لأنهم جرّدوا الأنبياء من قداسة السيرة وعظمة الأثر ومن شيوع الهداية ، ونسبوا إليهم من النقائص ما نزههم الله عنها ؛ فقالوا في نوح ولوط وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وموسى وداوود وسليمان وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم ما قالوا . وبهذا يخرج أولئك عن طريق الإيمان الصحيح كما أراده الله سبحانه والذي وصّى به خلقه من خلال أنبيائهم ورسلهم : **﴿قولوا آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾** (٢) . **﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ومن ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبُكيّاً. فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة واتبَعوا الشهواتِ فسوف يلقون غيّاً﴾** (٣) .

وإن إيمان أهل الكتاب ببعض الأنبياء وتكذيبهم بالبعض الآخر لما ترفضه الكتب السماوية ويشدّد عليه القرآن الكريم ، لأنها تصدر عن الأصل الواحد إلى الغاية الوحيدة ، وكلها تدعو إلى الإيمان الشامل الذي لا يتجزأ ، وإن خلف **﴿من بعدهم خلف ورثوا الكتاب**

---

(١) العقاد : التفكير فريضة إسلامية ـ ٩١ دار الهلال ـ القاهرة ٩١ .

(٢) البقرة ١٣٦ . (٣) مريم ٥٨ ـ ٥٩ .

يأخذون عرضَ هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتِهم عرضٌ مثله يأخذوه الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتّقون أفلا تعقلون﴾ (٤) .

وإن مما يدعو إلى العجب أن تكذيب المكذبين برسول العالمين محمد ﷺ هو أعظم الأدلة على صدق نبوته، وصدق ما جاء به من الدين الحق الذي سجل للعالمين حال أهل الكتاب وموقفهم من أنبياء الله ورسله؛ فقد بلغ بهم التكذيب حد القتل أو التحريض، وسجلوا ذلك كله في كتبهم المقدسة التي كتبوها بأيديهم، وألصقوا بهم من الرذائل الكثيرة مانزههم الله عنها وعن اللمم منها **﴿فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾** (٦) .

ولم يسلم نبي أو رسول من إيذاء اليهود ومكرهم وحقدهم من خلال ما وصفتهم به توراتهم، حتى إنهم لم يتركوا فاحشة أو رذيلة إلاّ نسبوها إليهم وألصقوها بهم لصوقاً يؤمن به أهل التوراة، التي أصبحت دستوراً لهم في نهجهم الذي ينتهجونه بين الأمم، مما جعلهم الفئة المنبوذة لحقدها الأسود وتقوقعها، وما تدبره لهذا العالم بجميع أممه وشعوبه من مؤامرات تنفس بها عن خبايا نفوسها التي ضرب الله عليها الذلة والمسكنة وباءت بغضب من الله، وتحالفوا مع الشيطان وأعوانه في كل زمان ومكان، ممثلاً ببريطانيا في الماضي وبأمريكا الفحش في الحاضر، في صراع مع أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في صراع مع الإيمان، وأهله: أنصار الله، وقد أنساهم شيطان كفرهم أنهم يصارعون جند الله **﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾** (٧) . لأن الله **﴿غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** (٨) . فلقد **﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾** (٩) .

هم الخاسرون لأنها الخسارة التي كتبها الله تعالى عليهم في كتابه العزيز، وهم الخاسرون يوم لا تغني عنهم أموالهم وأنفسهم وأعوانهم ـ مهما كثروا ـ وحصونهم وطائراتهم ودباباتهم من الله شيئاً؛ فهو **﴿الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاءَ لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذابُ النار. ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله. ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب. ما قطعتُم من لينةٍ أو تركتموها قائمة على**

(٤ و٥) الأعراف ١٦٩، ١٦٢.
(٦) البقرة ٧٩.
(٧) الصافات ١٧٣.
(٨) يوسف ٢١.
(٩) المجادلة ١٩.

أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾[10]. كيف لا يخزي الله قوماً قالوا **﴿قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم﴾**[11].؟ ولقد أقروا على أنفسهم بالكفر وتباهوا به **﴿وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلاّ الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلاّ قليلاً منكم وأنتم معرضون. وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررْتُم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا. ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب. وما الله بغافل عما تعملون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾**[12].

أولئكم قوم إسرائيل في كتاب الله، وهم كذلك في توراتهم، وسيصيبهم بكفرهم وتحديهم ما أصاب الأقوام السابقة البائدة التي خالفت نهج الله وتحدت قوانينه (فهكذا قال الرب السيد: لأرض إسرائيل نهاية. قد جاءت النهاية على زوايا الأرض الأربع. الآن النهاية عليك وأرسل غضبي عليك وأحكم عليك كطرقك، وأجلب عليك كل رجاساتك. فلا تشفق عيني، ولا أعفو بل أجلب عليك طرقك وتكون رجاساتك في وسطك فتعلمون أني أنا الرب)[13].

من خلال أولئك القوم يسهل تصوير الأنبياء ورب الأنبياء من خلال توراتهم. وانقل هنا بعض ملامح رب إسرائيل الذي تحكي عنه التوراة فهو رب إسرائيل ورب الجنود، وهو في اعتقادي ليس رب السموات والأرض. ولكنه رب ما أعظم ما يشبه رب إسرائيل اليوم والأمس، فهو يكاد يكون أمريكا اليوم وبريطانيا الأمس، فلهم على هذا المعبود اليوم ما كان لآبائهم وأجدادهم على رب الجنود في الزمن الغابر. فلقد عصى الأولون ربهم، وهاهم اليوم يعصون ربهم ويتمردون عليه ويفجرون، وما على الرب الذي يختارونه إلاّ أن يعفو ويغفر ويصفح، وليس ذلك إلاّ لأن الرب يهاب قوم إسرائيل كما تحكي توراة سبيهم؛ فهو مسيرهم، وهو عبد مأمور لرغباتهم ونزواتهم التي ضجت بها التوراة، وذلك وحده كفيل بنقض توراتهم التي جعلوها دستور دويلتهم الهشة التي أقاموها على جماجم أهل الأرض المجبولة بدمائهم وأشلائهم.

---

(١٠) الحشر ٢ ـ ٥.
(١١) البقرة ٨٧.
(١٢) البقرة ٨٣ ـ ٨٦.
(١٣) حزقيال أصحاح ٧: ١ ـ ٩.

إن رب التوراة هو رب عشيرة أو قبيلة تختص به وحدها من دون البشر أجمعين، مما يحمل هذه القبيلة على انتهاك كل حرمة، متغاضية بذلك عن قداسة دين السماء أورب السماء والأرض، لأن رب القبيلة هذا ملتزم أمام قبيلته بالتغاضي عن معاصيها وآثامها؛ فقد صورت لهم غلاظة رقابهم وقساوة قلوبهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، بما رسموه لهذا الرب من صور الخنوع والخضوع وانقاد لهذا الوهم والافتراء دول الغرب وعلى رأسهم دولة البغي والفسق أمريكا، وباتوا ينظرون إلى ما تصنعه هذه الفئة الممسوخة حقاً لها وعدلاً، ولكن هذا كله لن يشفع لبني إسرائيل من سخط الله وعذابه. ولقد حقت عليهم كلمة الله ولعنته ولعنة الرسل والأنبياء **﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** [١٤].

ماذا قال القوم عن أنبيائهم؟ وبم وصفوا رسل الله إلى البشرية؟ لقد بدأوا بنوح وقالوا فيه: (وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً، وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال: ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته) [١٥].

ولكن على نوح سلام الله وبركاته وعلى الذين آمنوا: **﴿يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك.. وأمم سنمتّعهم ثم يمسّهم منّا عذاب أليم﴾** [١٦].

وتكاد التوراة لا تترك نبياً دون أن تلصق به الرذيلة، وذلك ما يفسّر استباحة قوم إسرائيل كل محرم، واستحلالهم كل فاحشة لأنهم يصدرون فيها عما خطته أيديهم في التوراة، فباتوا لا يقدسون إلا صنم الرذيلة الذي يسعون إلى تنصيبه بين الأمم، ونحن نسمع ونقرأ ونشاهد ما يعقدونه من تنافس إلى اختراع الرذيلة وتوليد الفاحشة، حتى ليخيل إلى ذي العقل أن البشرية تتقهقر إلى البدائية الحيوانية التي تتحكم فيها غرائز الجنس المنفلتة من عقالها، فشاعت بينهُم الجنسية المثلية والزنى الذي بادت به أقوام وأقوام، وأخذوا يغيرون خلق الله، فنرى الرجال عندهم يتشبهون بالنساء ويتزينون زينتهن، ويلبسون لباسهن، وقل مثل ذلك في نسائهم، وهن يتشبهن بالرجال باسم المساواة الممقوتة والحرية الإباحية، فاختلطت فيهم الأنساب، وتداخلت الدماء وفسدت، وأنتجت أمراضاً خطيرة هي من باب نقمة الله وعذابه على أولئك الذين ضلت سبلهم، فضلّوا معها وخسروا بها آخرتهم قبل

---

(١٤) المائدة ٧٨. (١٥) تكوين أصحاح ٩: ٢٠. (١٦) هود ٤٨.

دنياهم، فباتوا يعيشون التيه والضياع والدمار، وكلها نذر ويلٍ وعلامات ثبور.

وتمضي التوراة في رسم صورة الأنبياء وزوجاتهم، والغريب في الأمر أنها قد سكتت عن وصف زوجات الأنبياء اللواتي خالفن أزواجهن فيما أمروا به؛ فلقد كفرت امرأة نوح وذكر القرآن الكريم ذلك، ولكن التوراة لم تجد في كفر امرأة نوح أمراً ذا بال، فقالت: (وكلم الله نوحاً قائلاً اخرج من الفُلْكِ أنت وامرأتُك وبنوك ونساء بيتك معك... فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه.. وبارك الله نوحاً وبنيه.. وكلم الله نوحاً وبنيه قائلاً: وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم)[17].

وأما علامة الميثاق بين نوح وربه فهو السحاب على الأرض بالخير والبركات وهو ميثاق مشروط بالوحدانية والتوحيد على امتداد الدهور والأزمان. (وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلك من بعدكم ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم... وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر. وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض)[18].

وحسم القرآن الكريم الأمر في امرأة نوح ومن بعدها امرأة لوط، حتى اضحت الاثنتان مثلاً للكفر **﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾**[19].

ولم تكن صورة النبي لوط بأفضل من سابقتها، فلقد زنّته التوراة وفحشته مع ابنتيه فقالت فيه التوراة: وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمراً الليلة أيضاً، فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً. وقامت الصغيرة واضطجعت معه. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم)[20].

---

(١٧) تكوين ح ٨ و ٩.

(١٨) تكوين ح ٩.

(١٩) التحريم ١٠.

(٢٠) تكوين ١٩: ٣٠ - ٣٧.

إن ما اوردته التوراة عن نبي لوط ليأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، وهو النبي الكريم المفضل على العالمين في عصره كما فضل الأنبياء جميعاً في حينهم **﴿وإسماعيل وإليَسَع ويونس ولوطاً كلاً فضّلنا على العالمين﴾** (٢١) ، **﴿وإن لوطاً لمن المرسلين﴾** (٢٢) .

وأما امرأة لوط فكان لها ما كان لامرأة نوح من العذاب بالكفر وخيانة الزوج فباتتا مثلا يضرب في الكفر « وقيل ادخلا النار مع الداخلين » (٢٣) .

وكان الصبح هو موعد عذاب الله إلى قوم لوط، وإن من البداهة ألا يجرؤ ناج من الذين آمنوا الالتفات إلى وراء لرؤية العذاب، ولقد كان ذلك أمراً من الله تعالى إلى أولئك المؤمنين **﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحدٌ إلاّ امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم. إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب.. فلما جاء أمرُنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجّيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾** (٢٤) .

ومن عجب أن التوراة أنصفت امرأة لوط، فوصفتها بما وصفها به القرآن الكريم من بعد، وتركتها على كفرها فقالت توراتهم: (ولما طلع الفجر كان الملاكـان يعجلان لوطاً قائلين: قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلاّ تهلك بإثم المدينة. ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة. وكان لما أخرجاهم إلى خارج انه قال اهرب لحياتك. لاتنظر إلى ورائك ولا تقف في كل الدائرة. اهرب إلى الجبل لئلاّ تهلك... وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء. وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض. ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح) (٢٥) .

وليس ذلك ما يثير الغرابة في التوراة، ولكن إلصاق الفحش بأنبياء إسرائيل الذين تدعي الانتساب إليهم هو الغريب في الأمر كله. ومن هؤلاء يعقوب أو إسرائيل الذي كان منه أسباطهم ولقد نسبت إليه وإلى أبيه وأمه الخديعة والمكر والمخاتلة. فلقد ولد لإسحق بـن إبراهيم توأمان من زوجه رفقة وهما عيسو ويعقوب، (فكبر الغلامان وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد إنسان البرية. ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام. فأحب إسحق عيسو لأن في فمه صيداً. وأما رفقة فكانت تحب يعقوب. وطبخ يعقوب طبيخاً فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا. فقال عيسو ليعقوب أطعمني من هذا الأحمر لأني قد أعييت. لذلك دعي اسمه

---

(٢١) الأنعام ٨٦ .
(٢٢) الصافات ١٣٣ .
(٢٣) التحريم ١٠ .
(٢٤) هود ٨١ ـ ٨٣ .
(٢٥) تكوين ١٩ .

أدوم (أحمر) فقال يعقوب بعني اليوم بكورتيك. فقال عيسو ها أنا ماض إلى الموت فلماذا لي بكورية فقال يعقوب احلف لي اليوم. فحلف له فباع بكوريته ليعقوب. فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى.

وحدث لما شاخ إسحق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له: يا ابني. فقال له: هاأنذا. فقال: إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي. فالآن خذ عدتك وجعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لي صيداً، واصنع لي أطعمة كما أحب وأتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت.

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه. فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيداً ليأتي به. وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة: إني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً: ائتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي. فالآن يا ابني اسمع لقولي في ما أنا آمرك به. اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين جيدين من المعزى فأصنعها أطعمة لأبيك كما يحب. فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته. فقال يعقوب لرفقة أمه هوذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس. ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بركة. فقالت له أمه: لعنتك عليّ يا ابني. اسمع لقولي فقط واذهب خذ لي. فذهب وأخذ وأحضر لأمه. فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب. وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر. وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جدي المعزى. وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها. فدخل إلى أبيه وقال: يا أبي. فقال: هاأنذا. من أنت يا ابني؟ فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرك. قد فعلت كما كلمتني. قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك. فقال إسحق لابنه ما هذا الذي أسرعت لتجد يا ابني؟ فقال: إن الرب إلهك قد يسّر لي. فقال إسحق ليعقوب تقدم لأجسّك يا ابني أأنت هو ابني عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه وقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو. ولم يعرفه لأنَ يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه. فباركه وقال: هل أنت هو ابني عيسو؟ فقال: أنا هو فقال قدم لي لآكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي. فقدم له فأكل وأحضر له خمراً فشرب. فقال له إسحق أبوه: تقدم وقبلني يا ابني، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه وقال: انظر، رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب، فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر. ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل. كن سيداً لإخوتك. وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين.

وبعدما فرغ إسحق من مباركة ابنه يعقوب (أن عيسو أخاه أتى من صيده. فصنع هو أيضاً أطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه: ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك. فقال له إسحق أبوه: من أنت؟ فقال: أنا ابنك بكرك عيسو. فارتعد إسحق ارتعاداً عظيماً جداً وقال: فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إليّ فأكلت من الكل قبل أن تجيء وباركته. نعم ويكون مباركاً. فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً وقال لأبيه: باركني أنا أيضاً يا أبي. فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك. فقال: ألا إن اسمه دعي يعقوب فقد تعقبني الآن مرتين: أخذ بكوريتي وهوذا الآن قد أخذ بركتي. ثم قال: أما أبقيت لي بركة؟ فأجاب إسحق وقال لعيسو: إني قد جعلته سيدا لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً وعضدته بحنطة وخمر. فماذا أصنع إليك يا ابني؟ فقال عيسو لأبيه: ألك بركة واحدة فقط يا أبي. باركني أنا أيضاً يا أبي، ورفع عيسو صوته وبكى. فأجاب إسحق أبوه وقال: هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك، وبلا ندى السماء من فوق، وبسيفك تعيش، ولأخيك تستعبد. ولكن يكون حينما تجمح أنك تكسر نيره عن عنقك.

فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التي باركه بها أبوه. وقال عيسو في قلبه: قربت أيام مناحة أبي فأقتل يعقوب أخي. فأخبرت رفقة بكلام عيسو ابنها الأكبر فأرسلت ودعت يعقوب ابنها الأصغر وقالت له: هوذا عيسو أخوك متسل من جهتك بأنه يقتلك. فالآن يا ابني اسمع لقولي وقم اهرب إلى أخي لابان إلى حاران وأقم عنده أياما قليلة حتى يرتد سخط أخيك حتى يرتد غضب أخيك عنك وينسى ما صنعت به. ثم أرسل فآخذك من هناك. لماذا أعدم اثنيكما في يوم واحد) [٢٦].

ولقد بارك رب التوراة لإسحق تآمره على ابنه البكر، مما يؤكد توراتياً أن إسحق كان شريك زوجه وابنه يعقوب في المؤامرة وذلك ما يرفضه العقل والمنطق. وأي أبوة ترفض التآمر على الابن، فكيف بأبوة النبي؟ ولكن إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على التخطيط المسبق الذي خططه كتبة التوراة لما يريدون أن ينتهجوه على مر تاريخهم من مكر وفجور وسلب ونهب وقتل وتآمر، دون رادع من ضمير أو دين أوخلق، ما دام دين التوراة هو الذي يبيح لهم ذلك ويحلله.

ولن أقف طويلا عند إسحق ويعقوب، بل أمضي إلى موسى عليه السلام، وهو كليم الله الذي اختاره لتبليغ أول كتاب سماوي محرر إلى الأرض. ولقد عانى موسى من قومه الكثير من الأذى والعقوق، كما صبر موسى على ترويض تلك الفئة الجامحة، ولم يجد صبره نفعا،

---

(٢٦) تكوين ٢٦ و ٢٧.

رغم نعم الله الكثيرة إليهم من خلال معجزاته سبحانه إلى موسى، بل إنهم لم يزدادوا معها إلا ضلالا وكفرا.

لقد كان التوحيد جوهر رسالة السماء إلى موسى على الأرض، وذلك لايؤتي ثماره في نفوس تمرست في المذلة والخضوع، فكان على موسى بناء على طلب ربه تخليص قوم إسرائيل من ظلم فرعون وإخراجهم من الظلمات إلى النور ليتسنى لهم حمل الرسالة وتبليغها. ولكن إلى أين يخرج بهم رسولهم لتطمئن نفوسهم وتهدأ قلوبهم بتوحيد الله؟ ليس أقرب إلى مصر غير أرض كنعان فلسطين مع ما فيها من خير وزرع وضرع وعمران.

وأتيت بكم إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها وخيرها، ويسهل عليهم في مثل ذلك المكان أن يحموا رسالة الله إلى الأرض، بتغليب التوحيد على الصنم والوثن في تلك الأرض التي هيئت منذ الأزل لاستقبال أعظم حدث سماوي فيما بعد وهو الإسلام، ولتبقى فلسطين موصولة بأرض مكة المباركة، فتعلن للعالمين وللبشرية وحدانية الخالق في رسالات السماء كلها.

ولم يحمِ قوم إسرائيل الرسالة بل ضيّعوها وحرّفوها وحادوا عنها إلى عبادة الصنم، والتفنن في عبادة كل وثن. وفاقوا كل عابد صنم في عبادة صنمه، وضاع مع ضلالهم كل ما قدم موسى من جهد، وكانوا بعد كل مرحلة يقطعونها في رحلتهم الطويلة ينتهون من حيث بدأوا، رقاب غليظه وقلوب قاسية، ونفوس استمرأت المذلة والعبودية بما لا يستقيم بحال مع توحيد الله سبحانه.

ونسي قوم إسرائيل او تناسوا رسولهم موسى، وأخذوا يتهمونه بما اتهموا به سواه ويتهمون، ولقد كان موسى يعلم يقيناً قومه وما هم عليه (لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة هوذا وأنا بعد حيّ معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب، فكم بالحري بعد موتي)[٢٧].

وكان جزاء موسى من قومه أن اتهموه بخيانة الرب، بل إنهم أسقطوا ما في نفوسهم على الرب الذي افتروا عليه فقالوا بلسانه: (وكلّم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلاً: اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نبو الذي في أرض موآب الذي قبالة أريحا وانظر أرض كنعان... ومُتْ في الجبل الذي تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات هرون أخوك في جبل هور، وضم إلى قومه لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قادش في برية صين إذ لم تقدساني في وسط بني إسرائيل. فإنك تنظر الأرض التي قبالتها ولكنك لا تدخل إلى هناك)[٢٨].

---

(٢٧) إرميا ٢: ٨.　　(٢٨) تثنية ٣١: ٢٧.

وأترك موسى إلى داوود في التوراة، وهذا هو من تدور حوله مملكة بني إسرائيل الخيالية التي يسعون إليها. إنها مملكة عالمية على رأسها ملك من نسل داوود، والعالم كله مسخّر لخدمة قوم إسرائيل فيها. وهذه المملكة ـ بلا شك ـ رسمتها نفوس مستعبدة، ودبجتها قلوب قاسية، ورقاب غليظة، أخذت تنفس عن مكنوناتها بما رسمت، لتعوض بذلك عما يعتمل في أعماقها من مركبات نقص، فجعلت من رسم مملكة داوود تعويضاً تسقط من خلاله على العالم كله اضطهاداً ذاقتهُ، ومذلة استمرأتها. فأخذت تدور حول شخصية داوود، وإن كنّا لا ندري أي داوود هذا الذي تتمسح به. فهل هو داوود التوراة؟ إن كان هذا من يسعون إليه فإن سعيهم باطل، لأن داوود التوراة خارج عن حلقة النسب الإسرائيلي الصراح، وهم يتشددون وَهْمًا في أن يكون المنتسب إليهم من والدين إسرائيليين أو من أم إسرائيلية. وإن كان ذلك باطلاً منذ غزوا فلسطين، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإن يهود العالم اليوم الذين يقدر عددهم بحوالي اثني عشر مليون نسمة ـ كما يقول العلامة أحمد سوسه ـ لا يتعدون كونهم طائفة دينية اجتماعية تضم شتى الأجناس واللغات والدماء، ويسكنون في مواطن متباعدة. فمنهم يهود الخزر الأتراك واليهود الألمان ذوو السحنة الجرمانية والشعر الأشقر واليهود السلاف (الروس ومن جاورهم) واليهود الإسبان والبربر، ويهود الحبشة واليهود الصينيون واليهود الزنوج والهنود وغيرهم. وكل هؤلاء لا يمتون إلى قوم موسى أو فلسطين بأية صلة غير صلة الدين. وهم متباعدون في الوطن وفي اللغة وفي الثقافة وفي الجنس. وأحسن مثال نورده في هذا الصدد ما ورد في مجلة مصر الإسرائيلية في عددها الصادر في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩١٥ حول المهاجرين اليهود الذين نزالوا منطقة الكباري في مصر فراراً من الإرهاب التركي. فقد كان هؤلاء المهاجرون الذين لم يزد عددهم على ١٦٠٠ نسمة يتكلمون أربع عشرة لغة مختلفة [٢٩].

ويؤكد هذه الحقيقة كثير من علماء الأجناس، فيقول العلامة لامبروزو إن اليهود المعاصرين أقرب إلى الجنس الآري منهم إلى الجنس السامي، وإنهم طائفة دينية تميزت بميزات اجتماعية واقتصادية، وانضم إليها عبر القرون أناس ينتمون إلى شتى الأجناس البشرية [٣٠].

وعود إلى داوود التوراة نقول: تحكي التوراة أنه (حدث في أيام حكم القضاة أنه صار جوع في الأرض. فذهب رجل من بيت لحم يهوذا ليتغرب في بلاد موآب هو وامرأته وابناه.

---

(٢٩) د ـ أحمد سوسه: مفصل العرب واليهود في التاريخ ٦٤١ ـ ط ٥ سنة ١٩٨٠م دار الحرية ـ مطبعة بغداد.

(٣٠) السابق ٥٤٢.

واسم الرجل أليمالك، واسم امرأته نعمى واسما ابنيه محلون وكليون أفراتيون من بيت لحم يهوذا. فأتوا إلى بلاد موآب وكانوا هناك. ومات أليمالك رجل نعمى وبقيت هي وابناها. فأخذت لهما امرأتين موآبيتين اسم إحداهما عرفة واسم الأخرى راعوث. وأقاما هنـاك نحو عشر سنين، ثم ماتا كلاهما محلون وكليون. فتركت المرأة من ابنيها ومن رجلها.

فقامت هي وكنتاها ورجعت من بلاد موآب لأنها سمعت في بلاد موآب أن الرب قد افتقد شعبه ليعطيهم خبزاً. وخرجت من المكان الذي كانت فيه وكنتاها معها، وسرن في الطريق للرجوع إلى أرض يهوذا. فقالت نعمى لكنتيها: اذهبا وارجعا كل واحدة إلى بيت أمها، وليصنع الرب معكما إحساناً كما صنعتما بالموتى وبي. وليعطكما الرب أن تجدا راحة كل واحدة في بيت رجلها [٣١]. فرجعت عرفة إلى بيت أمها وأما راعوث فقالت لحماتها: (لا تلحّي عليّ أن أتركك وأرجع عنك، لأنه حيثما ذهبتِ أذهب، وحيثما بتّ أبيت. شعبك شعبي وإلهك إلهي. حيثما متِّ أموت وهناك أندفن... فلما رأت أنها مشددة على الذهاب معها كفت عن الكلام إليها. فذهبتا كلتاهما حتى دخلتا بيت لحم في ابتداء حصاد الشعير.

وكان لنعمى ذوو قرابة لرجلها جبار بأس من عشيرة أليمالك اسمه بوعز.. قال بوعز للشيوخ ولجميع الشعب: أنتم شهود اليوم أني قد اشتريت كل ما لأليمالك وكل ما لكليون ومحلون من يد نعمى. وكذا راعوث الموآبية قد اشتريتها لي امرأة لأقيم اسم الميت على ميراثه ولا ينقرض اسم الميت من بين إخوته ومن باب مكانه. أنتم شهود اليوم) [٣٢].

ولم يغفل كتبة التوراة ثغرة النسب في راعوث الموآبية وفي نسلها، فقد أمر الشعب وشيوخ بوعز رب إسرائيل ليجعل راعوث إسرائيلية اللحم والدم والجنسية كراحيل وكليئة زوجتي يعقوب أو إسرائيل.

وليس لأحد أن يسأل شيئاً عن ذلك، فرب إسرائيل عبد مأمور لقبيلته وما عليه إلاّ أن يطيع حين يؤمر.

(فقال جميع الشعب الذين في الباب والشيوخ نحن شهود فليجعل الرب المرأة الداخلة إلى بيتك كراحيل وكليئة اللتين بنتا بيت اسرائيل. فاصنع ببأس في أفراتة وكن ذا اسم في بيت لحم. وليكن بيتك كبيت فارص الذي ولدته ثامار ليهوذا من النسل الذي يعطيك الرب من هذه الفتاة.

فأخذ بوعز راعوث امرأة ودخل عليها فأعطاها الرب حبلاً فولدت ابناً. فقالت النساء لنعمى: مبارك الرب الذي لم يعدمك ولياً اليوم لكي يدعى اسمه في إسرائيل، ويكون لك

(٣١) راعوث ح ١. (٣٢) راعوث ٤.

لإرجاع نفس وإعالة شيبتك لأن كنتك التي أحبتك قد ولدته وهي خير لك من سبعة بنين. فأخذت نعمى الولد ووضعته في حضنها وصارت له مربية وسمته الجارات اسماً قائلات قد ولد ابن نعمى ودعون اسمه عوبيد وهو أبو يَسّى أبي داوود) [٣٣].

فنسب داوود التوراتي ليس إسرائيلياً صريحاً وإنما هو نسب هجين أعطاه كتبة التوراة صفة الشرعية الإسرائيلية، تماماً كما تحاول قبيلة إسرائيل اليوم إضفاء صفة الشرعية الإسرائيلية على كل حق منتهب أو مغتصب، وتباركها في ذلك دولة البغي أمريكا وهي رب إسرائيل المعبود لهذه الفترة الراهنة على الأقل، فإن أرباب إسرائيل يتغيرون بتغير الزمان.

وتمضي التوراة في تشويه صورة داوود الذي تتمسح به اليوم، فقد ألصقت به تهمة الفحش وخطيئة الزنى، حين جعلته يمد عينيه إلى زوجة قائد جيشه أوريا الحثي (وكان في وقت المساء أن داوود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك. فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داوود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي. فأرسل داوود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داوود وقالت: إني حبلى. فأرسل داوود إلى يوآب يقول: أرسل إليّ أوريا الحثي، فأرسل يوآب أوريا إلى داوود. فأتى أوريا إليه فسأل داوود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب. وقال داوود لأوريا: انزل إلى بيتك واغسل رجليك. فخرج اوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك. ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داوود قائلين لم ينزل أوريا إلى بيته. فقال داوود لأوريا: أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك: فقال أوريا لداوود إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء. وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟ وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر. فقال داوود لأوريا: أقم هنا اليوم أيضاً وغداً أطلقك. فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده، ودعاه داوود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل.

وفي الصباح كتب داوود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه. فخرج رجال المدينة

---

(٣٣) راعوث ٤.

حاربوا يوآب فسقط بعض الشعب من عبيد داوود ومات أوريا الحثي أيضاً. فأرسل يوآب وأخبر داوود بجميع أمور الحرب وأوصى الرسول قائلاً: عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب. فإن اشتعل غضب الملك وقال لك: لماذا دنوتم من المدينة للقتال. أما علمتم أنهم يرمون من على السور؟ من قتل ابيمالك بـن يربّوشث؟ ألم ترمه أمرأة بقطعة رحى من على السور فمات في تاباص؟ لماذا دنوتم من السور؟ فقل قد مات عبدك أوريا الحثي.

فذهب الرسول ودخل وأخبر داوود بكل ما أرسله فيه يوآب. وقال الرسول لداوود قد تجبر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل فكنا عليهم إلى مدخل الباب. فرمى الرماة عبيدك من على السور فمات البعض من عبيد الملك ومات عبدك أوريا الحثي أيضاً. فقال داوود للرسول هكذا تقول ليوآب. لا يسوء في عينيك هذا الأمر لأن السيف يأكل هذا وذاك. شدد قتالك على المدينة واخربها وشدده.

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها. ندبت بعلها ولما مضتْ المناحة أرسل داوود وضمها إلى بيته. وصارت له امرأة وولدت له ابناً. وأما الأمر الذي فعله داوود فقبح في عيني الرب) (٣٤).

ولا تكتفي التوراة بذلك بل تصبّ على داوود من لعنات الرب وعلى بيته ما يجعل السيف والحرب والكيد لا يفارق بيته إلى الأبد نتيجة احتقار داوود لذلك الرب بما فعله بأوريا الحثي واغتصابه زوجته. وكانت أولى اللعنات أن أمات الرب ابن السفاح ذاك الذي ولدته بتشبع، ولكنها حملت ثانية بسليمان.

(فأرسل الرب ناثان إلى داوود فجاء إليه وقال له: كان رجلان في مدينة واحدة منهما غني والآخر فقير. وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً. وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعاً. تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام في حضنه. وكانت له كابنة. فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيء للضيف الذي جاء إليه. فأخذ نعجة الرجل الفقير، وهيأ للرجل الذي جاء إليه. فحمي غضب داوود على الرجل جداً وقال لناثان: حي هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ويرد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولأنه لم يشفق.

فقال ناثان لداوود: أنت هو الرجل! هكذا قال الرب إله إسرائيل أنا مسحتك ملكاً على اسرائيل. وأنقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حضنك، وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا. وإن كان ذلك قليلا كنت أزيد لك كذا وكذا. لماذا احتقرت كلام

(٣٤) صموئيل الثاني ١١.

الرب لتعمل الشر في عينيه؟ وقد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة. وإياه قتلت بسيف بني عمون. والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الابد لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة. هكذا قال الرب. هاأنذا أقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك، وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس لأنك أنت فعلت بالسر. فقال داوود لناثان: قد أخطأت إلى الرب. فقال ناثان لداوود: الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك لا تموت. غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت.

وعزّى داوود بتْشَبَع موت ابنها ودخل إليها واضطجع معها فولدت ابنا فدعوا اسمه سليمان والرب أحبه) (٣٥).

إن صورة داوود التوراتية هي صورة الإنسان الملعون المغضوب عليه، ولكنها الصورة المنعكسة عما في نفوسهم، وقد كان أولئك هم من لعنهم داوود وغضب عليهم، وحفظ القرآن الكريم للبشرية كافة هذه اللعنة فقال سبحانه: **﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئسَ ما كانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئسَ ما قدّمتْ لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾** (٣٦).

وقصّ القرآن الكريم قصة داوود نبي الله رمزاً فقال سبحانه: **﴿هل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب إذ دخلوا على داوود ففزع منهم قالوا: لا تخف. خصمان بغى بعضنا على بعضٍ فاحْكُم بيننا بالحق ولا تشطط واهدِنا إلى سواء الصراط. إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدة. فقال أكفلنيها وعـزّني في الخطاب. قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعضٍ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم. وظن داوود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأنابَ فغفرنا له ذلك. وإن له عندنا لزُلْفَى وحُسْنَ مآب﴾** (٣٧).

وقال رسول الله ﷺ في الصحيحين: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داوود وأحب الصيام إلى الله صيام داوود. كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه. وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفرّ إذا لاقى».

ومع قداسة صورة النبي داوود في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف وفي توبته وفي صلاته واستغفاره، تقابلنا قسوته التوراتية التي أراد قوم إسرائيل أن تكون رخصة لهم في

---

(٣٥) صموئيل الثاني ١٢. (٣٦) المائدة ٧٨ ـ ٨٠. (٣٧) سورة ص ٢١ ـ ٢٥.

تاريخهم الطويل تبيح لهم ما يقومون به من تقتيل وتذبيح وسفك دماء واغتصاب حقوق، وحجتهم أن التوراة هي دستورهم، وما جاء فيها نهج ينتهجونه.

ونقرأ في التوراة سلوك داوود مع أهل الأرض التي أكرمته واحتضنته (فجمع داوود كل الشعب وذهب إلى ربَّة وحاربها وأخذها.. وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد، وأمرّهم في أتون الآجر. وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون، ثم رجع داوود وجميع الشعب إلى أورشليم) [٣٨].

ومع ما ألصق قوم إسرائيل بداوود من خطايا نراهم يختمون حياته بوصية يوجهها إلى ابنه سليمان فيقول له: (احفظ شعائر الرب إلهك إذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب في شريعة موسى) [٣٩].

فمن سليمان بن داوود التوراة؟

إنه ملك من ملوك إسرائيل، ولا ترى قبيلة إسرائيل له معجزات من الله تعالى. وقد ألصقت فيه التوراة من الرذائل ما فاق بها أباه داوود، وأحطها خطيئة الكفر.

ونفت التوراة عن سليمان جميع المعجزات، ومنها تسخيره الجن والإنس والريح والطير ولكنها وجدت فيه متنفساً تنفس به عن عالمها الخيالي والذي وصفت من خلاله الهيكل، كما بالغت المبالغة كلها حين وصفتْ مملكة سليمان إلى درجة يرفضها العقل، حتى إن اكثر الباحثين معتمدين التوراة يعدونها من قبيل المبالغات التي درجت عليها دويلات تلك العصور. ولم تكن مملكة سليمان آنئذٍ أكثر من محمية مصرية مرابطة على حدود مصر قائمة على حراب أسيادها الفراعنة الذين كان من أهم أهدافهم حماية حدودهم الشرقية من غارات الطامعين بمصر مثل الأشوريين.

وأراد سليمان أن يجاري الفراعنة في البذخ والظهور بما يجاوز طاقاته وإمكاناته الاقتصادية، وذلك باغداقه على إقامة الأبنية الشاهقة والقصور الفخمة. فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب، كما أثقل كاهل خزينته بالديون المتراكمة [٤٠]. مما اضطره أن يقدم إلى حيرام ملك صور عشرين مدينة في ارض الجليل مقابل الديون التي تراكمت عليه [٤١].

وهذا يؤكد لقوم إسرائيل قبل سواهم أن أرض فلسطين كانت أرض غربة أبدية لسليمان وسواه كما كانت أرض غربة إبراهيم، وإلاّ لما فرط بشبر واحد من الأرض ناهيك بعشرين مدينة من مدنها.

---

(٣٨) صموئيل الثاني ١٢: ٣١.

(٣٩) الملوك الأول ٢: ١ ـ ٣.

(٤٠) المفصل ٥٧١.

(٤١) الملوك الأول ٩: ١١.

وكما كان سليمان بن داوود من أم حثية هي بتشبع زوجة أوريا الحثي، فقد كان نسل سليمان من زوجات كثيرات مختلفات الأجناس. وهذا بلا شك ينفي عن قوم إسرائيل نقاء الجنس الذي بات إحدى أساطير إسرائيل وأعظم كذبة اختلقتها أوهامهم.

لقد تزوج سليمان ابنة فرعون التي دفع لسليمان مهرها من دم أهل أرض فلسطين فقد (صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان)[٤٢].

وانغمس سليمان كما تحكي التوراة في المتع والملذات إلى درجة أمالت قلبه إلى الكفر وراء آلهة أخرى، فقد (أحبّ الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات. من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني اسرائيل: لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبع مائة من النساء السيدات وثلاث مائة من السراري. فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب كقلب داوود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورت إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب. ولم يتبع الرب تماماً كداوود أبيه.

حينئذٍ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولملوك رجس بني عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن. فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى. فلم يحفظ ما أوصى به الرب.

فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها، فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك. إلاّ أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داوود أبيك بل من يد ابنك أمزقها)[٤٣].

وكما استنزل كتبة التوراة غضب رب إسرائيل على داوود فقد أنزلوه على ابنه سليمان. وكما شاء رب إسرائيل أن تبقى الحرب في بيت داوود إلى الأبد، فقد حكم على مملكة سليمان بالتمزق، ليس على يد سليمان وإنما على يد ابنه. وإن في ذلك إشارة إلى حكم الله تعالى على بني إسرائيل بالضياع والتشتّت والتمزق إلى الأبد فلا تقوم لهم قائمة كما حكمت توراتهم أولاً. وكما قضى الله سبحانه في قرآنه العزيز، ولا راد لحكم الله، ولا مبدل لكلماته سبحانه.

---

(٤٢) الملوك الأول ٩: ١٦.   (٤٣) الملوك الأول ١١.

وأترك صورة سليمان التوراتية إلى صورته القرآنية التي تحيطها هالة من قداسة الأنبياء وتنزههم عن الدنايا، ونقرأ شكر سليمان ربه وهو يقول ﴿ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادِك الصالحين﴾ (٤٤).

فسليمان لم يكفر كما حكت توراة إسرائيل، ولكن قومه هم الذين انحرفوا وكفروا وضلّوا، فرأوا سليمان من خلال نفوسهم ﴿ولما جاءكم رسولٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان. وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ (٤٥).

ولسليمان عند ربه سبحانه وتعالى من المنزلة ما لأبيه داوود وإن له عند ربه لزلفى وحسنَ مآب ﴿ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد إنه أوّاب. إذ عرضَ عليه بالعشي الصافنات الجياد. فقال إني أحببت حبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارتْ بالحجاب. ردوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والاعناق. ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب. قال ربّ اغفرْ لي وهبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب. فسخرّنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب. والشياطين كل بناء وغوّاص. وآخرين مقرنين في الأصفاد. هذا عطاؤنا فامننْ أو أمسك بغير حساب. وإن له عندنا لزلفي وحسن مآب﴾ (٤٦).

وتمضي التوراة في إلصاق الكبائر بأنبيائها، ولعلّ في ذلك ما يدل على فقدان الحسّ عند القوم باختلاط الأمور عليهم، فلم يعودوا يرون في الفحش والفسق والرذيلة ما يشين، فأخذوا يزنون الأنبياء دون حساب، وأخذوا يكفرونهم دون تمييز. وليس هذا غريباً عليهم لو بقي الأمر هكذا، ولكنهم حين يجعلون الآن من هؤلاء الأنبياء قدوة، ويدعون السير إلى هدف على رأسه واحد من أنبيائهم هو داوود فذلك هو العجب. إنهم يتمسحون بداوود؛ فنسله كما يرون الآن نسل صريح، والانتساب إليه يشمل كل يهودي معتنق اليهودية بصرف النظر عن جنسه ولونه، فما أن يدخل إلى قوقعة دينهم حتى يستحيل بقدرة رب إسرائيل إلى إسرائيلي لا من نسل داوود أو موسى فحسب، وإنما من نسل يعقوب بن اسحق إبراهيم هكذا.

وما لبث هذا الخليط المتنافر الذي تظله ديانة رب إسرائيل أن أصبح المميز المختار، وهي الأسطورة التي اختلقوها، والكذبة التي ألفوها، فصدقوها ثم صدقها معهم أعوان الشيطان الممثل في أمريكا وفيمن يحذو حذوها في الغرب والشرق وتغاضى أولئك الأعوان عما تقترفه يد البطش والذبح والقتل والنهب والسلب لحقوق أهل الأرض لأن الشيطان قد طمس على

---

(٤٤) النمل ١٩. (٤٥) البقرة ١١ - ١٠٢. (٤٦) ص ٣٠ - ٤٠.

قلوبهم فهم كالأنعام أو أضلّ سبيلاً. ولكن مَثَل هؤلاء أي قوم اسرائيل وأولئك أمريكا البغي **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتها أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾** (٤٧). وهم ـ مجتمعين ـ قد تشكل منهم الخبث والخبيث الذي حكم فيه سبحانه وتعالى فقال: **﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾** (٤٨).

ونمضي مع التوراة إلى أحد أنبياء بني إسرائيل، لنجد الرب الإسرائيلي في سفر هوشع يأمر نبيه هذا بالزنى، وهو أول طلب طلبه الرب من هذا النبي اذ إن (أوّل ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع: اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى، لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب. فذهب وأخذ جومر بنت دِبْلايم فحبلت وولدت له ابنا. فقال له الرب ادع اسمه يزرعيل لأنني بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت إسرائيل. ويكون في ذلك اليوم أني أكسر قوس إسرائيل في وادي يزرعيل.

ثم حبلت أيضاً وولدت بنتاً فقال له: ادع اسمها لورُحامة لأني لا أعود أرحم بيت إسرائيل أيضاً بل أنزعهم نزعاً.. ثم فطمت لورحامة وحبلت فولدت ابناً فقال: ادع اسمه لوعمّي لأنكم لستم شعبي وأنا لا أكون لكم) (٤٩).

وتمضي قصة هوشع وكأن ربّ إسرائيل قد أمسك بيد نبيه، وبات يدله على كل طريق للخطيئة، وشبه الرب حب هوشع للخطيئة بحب الرب لشعب إسرائيل، وعجباً لذلك ا لحب الذي لا ينتج غير الخطيئة، ولكنه ترخيص لأولئك القوم إلى الزنى والفاحشة والخطيئة التي لا تقف دون مآربهم وغاياتهم، من انتهاك الحرمات والمقدسات وسلب الحقوق وإزهاق الأرواح، والتمرد على القوانين السماوية والأرضية والأخلاق والأعراف، لأن دليلهم في هذا هو رب إسرائيل وهو رب الحرب والقتل والجنود.

يقول هوشع: (وقال الرب لي: أذهب أيضاً أحببْ امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب لبني إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب. فاشتريتها لنفسي بخمسة عشر شاقل فضة وبحومر ولَثَك شعير. وقلت لها: تقعدين أياماً كثيرة. لا تزني ولا تكوني لرجلٍ، وأنا كذلك لأن بني إسرائيل سيقعدون أياماً كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تمثال وبلا أفود وترافيم) (٥٠).

ليس من رائحة تفوح من ثنايا التوراة أشد من رائحة الفاحشة، فقد عمت جميع أنبيائهم وجميع شعبهم (الزنى والخمر والسلافة تخلب القلب. شعبي يسأل خشبة وعصاه تخبره. لأن

---

(٤٧) الحشر ١٦ ـ ١٧. (٤٨) الأنفال ٣٧. (٤٩) هوشع ١. (٥٠) هوشع ٣.

روح الزنى قد أضلهم فزنوا من تحت إلهم. يذبحون على رؤوس الجبال، وتبخـرون على التلال تحت البلوط واللبنى والبطم. لأن ظلها حسن. لذلك تزني بناتكم وتفسق كناتكم. لا أعاقب بناتكم لأنهن يزنين ولا كناتكم لأنهن يفسقن لأنهم يعتزلون مع الزانيات ويذبحون مع الناذرات الزنى. وشعب لا يعقل يصرع)(٥١).

إن مما يتباهى به قوم إسرائيل الفاحشة الكبرى، ولم يجد تقريع بعض الأنبياء إليهم سبيلاً. فالفاحشة جزء من تكوينهم النفسي، الذي تمرّس المذلة والعبودية، والخطيئة هي ما يسعى إليه القوم على مر عصورهم لنشره في العـالم، وفي نفـوس الشبـاب، فيسهـل بـذلـك تدميرهم وقيادهم، ويضمنون تحقيق مآربهم الهدامة المدمرة بتسخير العالم كله، بعد القضاء على الديانتين الإسلامية والمسيحية كما ورد في بروتوكولاتهم.

فليس غريباً بعد ذلك أن يعمل القوم على إغاظة الرب كما يقول النبي إشعياء (لأن أورشليم عثرت ويهوذا سقطت. لأن لسانها وأفعالها ضد الرب لإغاظة عيني مجده. نظر وجوههم يشهد عليهم، وهم يخبرون بخطيتهم كسدوم. لا يخفونها. ويل لنفوسهم لأنهم يصنعون لأنفسهم شراً... ويل للأمة الخاطئة الشعب الثقيل الإثم نسل فاعلي الشر أولاد مفسدين. تركوا الرب استهانوا بقدوس إسرائيل. ارتدوا إلى وراء. على م تضربون بعد؟ تزدادون زيغانا. كل الرأس مريض وكل القلب سقيم. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة. بل جرح وأحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تصب ولم تليّن بالزيت. بلادكم خربة. مدنكم محرقة بالنار. أرضكم تأكلها غرباء قدامكم. اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم. أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة)(٥٢).

لقد كانت محصلة حياة قوم إسرائيل مع الرب فجوراً وعصياناً وكفراً، فماذا بعد الفجور والكفر إلاّ الغضب الذي لا يرحم «لأن الفجور يحرق كالنار. تأكل الشوك والحسك وتشعل غاب الوعر فتلتف عمود دخان. بسخط رب الجنود تحرق الأرض ويكون الشعب كمأكل النار».

وزاغ القوم فأزاغ الله قلوبهم بما افتروا على شريعة السماء إذ (أنتم تقولون إن طريق الرب غير مستوية. إني أحكم على كل واحد منكم كطرقه كبيت إسرائيل)(٥٣). وبما قالوا على الرب وبما نسبوا إليه من شر (فلقد أتعبتم الرب بكلامكم وقلتم: بمَ أتعبناه؟ بقولكم كل من يفعل الشر فهو صالح في عيني الرب وهو يسر بهم أو أين إله العدل)(٥٤).

---

(٥١) هوشع ٤: ١١ - ١٤.
(٥٢) إشعياء ٣ و ١.
(٥٣) حزقيال ٣٣ ٢٠.
(٥٤) ملاخي ٢: ١٠.

وهذا الرب يقف أمام قوم إسرائيل يجادلونه ويشاقّونه وهو يبسط أمامهم حجته يدافع بها عن نفسه ـ تباً لهم ـ يقول ذلك الرب: (من أيام آبائكم حدتم عن فرائضي ولم تحفظوها. ارجعوا إليّ أرجع إليكم، قال رب الجنود. فقلتم بماذا نرجع؟ أيسلب الإنسان الله؟ فإنكم سلبتموني. فقلتم بم سلبناك؟ في العشور، والتقدمة؟ قد لعنتم لعناً وإياي أنتم سالبون هذه الأمة كلها.. هاتوا جميع العشور إلى الخزنة ليكون في بيتي طعام، وجربوني، بهذا قال رب الجنود، إن كنت لا أفتح لكم كوى السموات وأفيض عليكم بركة حتى لا توسع. أقوالكم اشتدت علي قال الرب. وقلتم: ماذا قلنا عليك؟ قلتم عبادة الله باطلة. وما المنفعة من أننا قلنا حفظنا شعائره وأننا سلكنا بالحزن قدام رب الجنود. والآن نحن مطوبون المستكبرين وأيضاً فاعلو الشر يبنون بل جربوا الله ونجوا)[٥٥].

ولعن الذين كفروا من بني إسرائيل فلقد ﴿سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾[٥٦].

---

(٥٥) ملاخي ٣.   (٥٦) آل عمران ١٨٠ ـ ١٨١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلهِهِمُ الأملُ فسوف يعلمون﴾

الحجر ٣

قال تعالى: ﴿**ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين**﴾ [(١)].

إنه الإجمال الدقيق الشامل لسنّة الله سبحانه وتعالى في الخلق، وهي العلاقة البينة على مسار هذا الكون منذ وجد، مما يؤكد ما بين السماء والأرض من علاقة هي الدليل على وجود الخالق ووحدانيته، وهي في الوقت ذاته تؤكد لنا الفطرة الواحدة التي خلق الكون بها، وإليها تسعى الكائنات والموجودات، تلك هي فطرة لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، ﴿**وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون**﴾ [(٢)].

وجاء الرسل جميعاً لتأكيد هذه الفطرة على الأرض،ولتبيـان العلاقة بين السماء والأرض، وإنّ أي حيدة عنها تؤثر آثاراً محققة على الفطرة الكونية. وهي آثار تصيب أولئك الذين حادوا عن النهج، يحيدون عنه، بعد أن يمدّ الله تعالى لهم من الأرض مداً، ويوسع عليهم من الرزق توسعة تدهش لها العقول، وتسخر لهم الأرض تسخيراً يظنون معه أنهم مخلدون على هذه الأرض، بما يشيدون من بنيان، وما يجتازون من آفاق، وما يخترقون من حجب الفضاء، وما تخترعه عقولهم من مخترعات تحير الألباب، حتى ليتملكهم سعار التسلط والتجبر والفجور والظلم، بما بلغوا في الحياة الدنيا ولكن ﴿**ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلهِهم الأمل فسوف يعلمون**﴾ [(٣)].

وجاء نوح عليه السلام أول نبيٍّ إلى الناس، ليؤكد صلة السماء بالأرض من خلال رزق الله الذي قدّره لعباده امتحاناً لهم وابتلاء، بمقدار استقامة ذلك الإنسان على جادة الإسلام الذي هو دعوة الأنبياء والرسل جميعاً. فقال لقومه: ﴿**استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً.. والله أنبتكم من الأرض نباتاً، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً**﴾ [(٤)].

---

(١) الأنعام ٦. (٢) الذاريات ٥٦. (٣) الحجر ٣. (٤) نوح ١٠ ـ ١٢ و١٧ و١٨.

تلك هي الصلة بين الأمن الغذائي للإنسان وبين خطاياه ومخالفاته التي يقترفها ضد إرادة الله، وهي الخطايا التي تقف عائقاً للرزق وللأمن الغذائي وغير الغذائي في حياة البشر: **﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾** [٥].

فالإيمان بالله إيمانا مطلقاً هو مفتاح الرزق الدائم، وإن اليقين المطلق به سبحانه هو باب الخير المبارك: **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون... أو لم يهدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾** [٦].

إن خطايا الإنسان، وإن ابتعاده عن نهج السماء القويم مما يؤثر في مصادر الحياة الإنسانية بنقصانها أو الحرمان منها، كما أن استقامته تؤثر بالنماء والزيادة. وهذا الأثر مرتبط كل الارتباط بأسبابه التي جعلها الله سبحانه علامات يدركها الإنسان حتى يسلك بها إلى رب الكون لا ليقف عندها من دون الله.

فالله سبحانه لا يقتلع الزرع ولا يقضي على الضرع في لمحة عين بسبب الخطايا، وإنما يجعل الأسباب تتأثر بتلك الخطايا، فتكف السماء عن المطر، ومن هنا يجف الزرع والضرع بأسباب الجفاف المتدرج حتى يصبح الزرع هشيماً.

فحين يجمع القوم على تحدي رسالة السماء ونهجها القويم، فإن ذلك يعني الانتكاس الكامل في الفطرة، والتحدي السافر لها، مما ينبيء بأخذ الله لهم عن طريق انتكاس الأسباب، وتغيير وظائفها الأصيلة التي فطرت عليها، لفترة محددة من الزمن، ثم تعود بعدها إلى طبيعتها.

ولعل ذلك ما يفسّر قضاء الله تعالى على الأمم السابقة بمثل طرفة العين بفعل كوارث كونية، أوردها في القرآن الكريم باسم الطوفان، والصواعق، والرجف والخسف، والريح العقيم، وعذاب الظلّة إلى آخر ما جاء من كوارث أبادت حضارات شامخة، وقضت على أقوامها قضاء لم يقم لهم بعدها قائمة.

وتتفتح عيون الخليقة على أول كارثة كونية تلحق بمن استحبوا العمى على الهدى، وبمن حادوا عن طريق الحق، مع علامات الله وآياته البينات وبتسلّم نوح عليه السلام زمام البشرية التي فطرت على البحث عن الخالق الواحد والإيمان به، ولكن قوم نوح تحدوا هذه الفطرة وخالفوها بكل وسيلة تمكنوا منها مع طول مجادلة نوح لهم، لهدايتهم إلى طريق الله ولكنهم **﴿قالوا: يا نوح جادلتنا فأكثرتَ جدالنا فأتنا بما تَعدُنا إن كنتَ من الصادقين. قال إنما يأتيكم**

---

(٥) الكهف ١٠٤ ـ ١٠٥.   (٦) الأعراف ٩٦، ٩٩.

به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين، ولا ينفعكم نصحي إنْ أردتُ أن أنصح لكم إن كان الله يريدُ أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون... وأوحيَ إلى نوح أنه لن يُؤْمِنَ من قومِك إلاّ من آمن فلا تبتئسْ بما كانوا يفعلون﴾ (٧).

وتبدأ علامات الله التي سيقضى بها على قوم نوح، ويأمر الله نوحاً أن يصنع الفلك ليكون وسيلة نجاته مع من آمن **﴿واصنع الفلْكَ بأعيُنِنا ووَحْيِنَا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرَقون. ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منّا فإنا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلّ عليه عذابٌ مقيم. حتى إذا جاء أمرُنا وفار التنور قلنا احملْ فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن، وما آمن معه إلاّ قليل. وقال اركبوا بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربي لغفور رحيم. وهي تجري بهم في موج كالجبال. ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماءُ وقضي الأمرُ واستوتْ على الجوديّ وقيل بُعداً للقوم الظالمين﴾** (٨).

وانتهى قوم نوح بهذه الكارثة التي ما لبثت أسبابها الكونية أن عادت إلى مجراها الطبيعي بعد إبادتهم جميعاً فقد ﴿كانوا قوم سوءٍ فأغرقناهم أجمعين﴾ (٩).

ويأتي قوم عاد **﴿إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾** (١٠). وقد خالف أولئك القوم فطرة الله التي فطروا عليها، فكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، ولكن الله مدَّ لهم، وأعطاهم في الجسم بسطةوجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وجعل لهم من الجنات والعيون والزرع ما أطمعهم بالحياة الدنيا، ومضوا في تكذيب نبيهم هود، وتمادوا في بطشهم وجبروتهم، وأنكروا أن يصيبهم عذاب الله. فقال لهم هود: **﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتّخذون مصانعَ لعلكم تخلدون، وإذا بطشْتُم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون. أمدّكم بأنعامٍ وبنين وجناتٍ وعيون. إني أخاف عليكم عذابَ يومٍ عظيم. قالوا سواء علينا أو عظْتَ أم لم تكن من الواعظين. إنْ هذا إلاّ خلقُ الأولين. وما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم﴾** (١١).

لقد بطشت عاد وبغت واغترت بقوتها التي ساقها الله لهم ابتلاء فقالوا: **﴿من أشدُّ منّا قوة. ألم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾** (١٢).

(٧و٨) هود ٣٢ ـ ٣٤ و٣٦ و٣٧ ـ ٤٤. (١٠) الفجر ٧ ـ ٨. (١٢) فصلت ١٥.
(٩) الأنبياء ٩٩. (١١) الشعراء ١٢٨ ـ ١٢٩.

وكان عذاب الله لهم أسرع مما طرفت عيونهم «فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولَعذابُ الآخرة أخزى وهم لا يُنصرون»[13]. ولم تُبق عليهم الريح الصرصر العقيم باقيةً وقد أحرقتهم وجففت أجسادهم كأنهم أعجاز نخل منقعر. **﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتتْ عليه إلاّ جعلته كالرميم﴾**[14]. واستمرت هذه الكارثة الكونية التي قضت عليهم «سبع ليال وثمانية أيام حسوماً. فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية»[15]. وباد القوم الذين كذبوا، ولم يبق منهم غير ذكر في القرآن الكريم للاعتبار والاتّعاظ وإن في ذلك لآية **﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾**[16].

وبعد عاد جاء قوم ثمود، وقد كان لهذه ضرب رهيب من الحضارات التي توصلوا معها إلى نحت البيوت في صخور الجبال على أسس دقيقة من هندسة النحت والتعمير، وما زالت هذه قائمة إلى هذا اليوم في الحجر بين المدينة وتبوك من الجزيرة العربية. ووصف القرآن الكريم حالهم ذلك الذي امتحنهم الله تعالى به. ولكن **﴿كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين. أتتركون في ما ها هنا آمنين. في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين. فاتقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾**[17].

وتحدى قوم ثمود نهج الله سبحانه، وعقروا الناقة التي أرسلها لهم فتنة واختباراً، وهم بذلك قد وصلوا إلى نقطة العناد الذي لا رجوع عنه فقال لهم نبيهم صالح: **﴿تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منّا ومن خزي يومئذٍ إن ربك هو القوي العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألاَ بُعداً لثمود﴾**[18].

وانتهت ثمود بالصيحة من السماء والرجفة من الأرض فأصبحوا في دارهم جاثمين بما مكروا، ولعلّ في ذلك عبرة للعالمين **﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنّ في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**[19]

وبعد نوح وعاد وثمود نصل إلى قوم لوط في مدينة سدوم وما حولها، وقد كان أهلها من

---

(١٣) فصلت ١٦. (١٥) الحاقة ٦ ـ ٨. (١٧) الشعراء ١٥٢. (١٩) النمل ٥١ ـ ٥٣.
(١٤) الذاريات ٤١. (١٦) القمر ١٧. (١٨) هود ٦٥ ـ ٦٨.

أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سيرة وسريرة، فقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، وهي إتيان الذكران من العالمين. وكانوا يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. **﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين. أئنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون. وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾** [٢٠].

وبلغ التحدي بقوم لوط ذروته إقراراً بمفاسدهم ورذائلهم **﴿أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر. فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين. قال ربّ انصرني على القوم المفسدين﴾** [٢١].

وتلك هي النقطة التي يأتي بعدها العذاب، ولكن بعد أن ينجي لوطاً وأهله إلاّ امرأته. ولقد قال رسل الله: **﴿يا لوط إنّا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلاّ امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إنّ موعدهم الصبحُ أليس الصبح بقريب، فلما جاء أمرُنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارةً من سجّيل منضود. مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾** [٢٢].

وترك الله سبحانه في مكان ديار لوط البحرة المالحة التي لا ينتفع بمائها، وانقضى أمرهم ولم يعد لهم غير آثارهم في تلك الديار، ولتبقى قصتهم عبرة للألباء من البشر و **﴿إن في ذلك لآيات للمتوسّمين﴾** [٢٣]. ولتكون شاهداً على أولئك المتفحشين في الغرب، وقد أنتجت فاحشتهم اللواطية بينهم الأمراض الجديدة الفتاكة التي تستأصل شأفتهم، ولعل في ذلك نذر ويلٍ وثبور على أن أجل الله آتٍ، و **﴿لكل أمةٍ أجلٌ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعةً﴾** [٢٤]. ولقد أوهمهم عمى بصائرهم أنهم قادة العالم مع موبقاتهم وأنهم مخلدون بما يبنون ولكن زين لهم الشيطان أعمالهم.

وبعد قوم لوط يأتي قوم مدين، وقد خالفوا نهج الله وتحدوا فطرته بخطايا اختلفت عما سبقها، فقد كانوا يتعاملون بالربا وينقصون الكيل والوزن، ويبخسون الناس أشياءهم، ويعيثون في الأرض فساداً. وكان لهم نبيهم شعيب الذي أرسل إليهم من بينهم وبدأ معهم بمثل ما بدأ به الأنبياء السابقون من دعوة إلى الله بالحسنى، والنهي عما هم عليه من رذائل وموبقات **﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا**

---

(٢٠) الأعراف ٨٠ ـ ٨٢.
(٢١) العنكبوت ٢٩ ـ ٣١.
(٢٢) هود ٨١ ـ ٨٣.
(٢٣) الحجر ٧٥.
(٢٤) يونس ٤٩.

المكيال والميزان إني أراكم بخيرٍ وإني أخاف عليكم عذابَ يوم محيط. ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ. قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد. قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيّنةٍ من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت. وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ (٢٥).

واستحب قوم مدين العمى على الهدى و ﴿**قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول**﴾ (٢٦). ﴿**فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين**﴾ (٢٧). وهذا هو قمة تحديهم الرسول والفطرة والنهج القويم، وحل بهم في مثل خطف أبصارهم ﴿**عذاب يوم الظلّة انه كان عذاب يوم عظيم**﴾ (٢٨). فلقد أصابهم حرٌّ شديد وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء فقضتْ عليهم قضاء لم يبق منهم شيئاً ﴿**فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذّبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين**﴾ (٢٩). ﴿**وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ألاَ بعداً لمدين كما بعدت ثمود**﴾ (٣٠).

وإن في تلك الأقوام لعبرة لمن يعتبر، إن كان هناك من يعتبر.. وقد جاء من بعدها أقوام وأقوام وكلها كفرت بالله وتحدت الفطرة وخالفت النهج الحق مع علامات الله البينات التي ازدادوا معها ضلالاً.

ومن أولئك بنو إسرائيل، وهم أول قوم أرسلت إليهم رسالة السماء محررة مكتوبة بيد نبيهم موسى عليه السلام، ولقد بلغوا من الفجور والضلال والعناد ما فاقوا به الأقوام السابقة مجتمعة. فقد صنعوا العجل الذهب معبوداً لهم بعدما أرسلت إليهم معجزات الله ولكن ﴿**الذين اتخذوا العجلَ سَيَنَالُهم غضبٌ من ربهم وذلّةٌ في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين**﴾ (٣١).

وأما قمة الإرتكاس عن الفطرة السليمة فحين جعلوا رؤية الله شرطاً لإيمانهم ﴿**وإذ قلتم**

(٢٥ و٢٦) هود ٨٤ ـ ٨٩، ٩١. (٢٩) الأعراف ٩١ ـ ٩٢. (٣١) الأعراف ١٥٢.
(٢٧ و٢٨) الشعراء ١٨٧، ١٨٩. (٣٠) هود ٩٤ ـ ٩٥.

يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ [٣٢] . وتلك هي النقطة التي يحلّ عندها عذاب الله **﴿فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾** [٣٣] .

ولكن موسى يدعو ربه ويرغب إليه أن يعفو عنهم فقال **﴿رب لو شئتَ أهلكتهم جميعاً من قبل وإياي. أتهلكنا بما فعل السفهاء منا . إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خيرُ الغافرين . واكتبْ لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنَّا هدنا إليك. قال عذابي أصيبُ به من أشاء ورحمتي وسعتْ كل شيء . فسأكتبها للذين يتّقون ويُؤتون الزكاةَ والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾** [٣٤] .

أما العذاب فهو متجدد في بني إسرائيل في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة خزي. ولعل في تشتت القوم الذي كتب عليهم في القرآن والإنجيل والتوراة عنوان عذابهم، وإن في نفور البشر منهم، أو نفورهم من البشر ما يجدد في نفوسهم الذليلة علامات الهوان والخنوع، وذلك أمر مقدر في دستور العالمين كتاب الله ، ولا ينسخه أو يغيّره أن يقيموا في فلسطين من السنين العشرات المعدودة.

فإن الذين ستصيبهم رحمة الله تعالى حين دعا موسى ربه ليس قوم إسرائيل، وإنما هم المفلحون المؤمنون **﴿الذين يتّبعون الرسولَ النبيّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيباتِ ويحرم عليهم الخبائثَ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾** [٣٥] .

أولئك هم المفلحون، قوم محمد رسول الله ﷺ الذين يتبعون الفطرة ويهتدون بهدي رسول العالمين المذكور في ألواح موسى وفي إنجيل عيسى، وذلك بشرى الله تعالى إلى البشرية باهتداء أمة رسول الله إلى الفطرة وتمسكها بالمنهج السماوي الذي يجعل منها الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وعند هذه الأمة ترتفع راية السماء الموحدة على الأرض إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. وجاء قرآن الله إلى هذه الأمة، مؤكداً لها انتصارها الأبدي وهي تنصر الله بتمسكها بكتابه ، والإيمان به ، الإيمان المطلق ظاهراً وباطناً ، بنبذ كل ما نهى عنه خالق السموات والأرض، والعمل بما أمر به سبحانه. **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبتْ أقدامكم﴾** [٣٦] . وذلك هو الانتصار الذي لا يقدر عليه شركٌ أو باطلٌ أو طغيان و **﴿إن ينصركم الله فلا غالبَ لكم﴾** [٣٧] .

(٣٢ و٣٣) البقرة ٥٥ .
(٣٤ و٣٥) الأعراف ١٥٥ ـ ١٥٧
(٣٦) محمد ٧ .
(٣٧) آل عمران ١٦٠ .

تلك هي الأمة التي أفلحت في كتب السماء وفلاحها ثابت، وهي تعلم أن ولاءها لله لا يكون إلاّ بالصلاة، وأن تكافلها لا يكون إلاّ بالزكاة، وأن مجابهتها المنكر يكون بكل سلاح، وذلك يعني انسجام الأمة مع الظواهر الكونية الأخرى في الخضوع لله حتى تنسجم معهم تلك الظواهر فلا تضطرب باضطرابهم، ولا تنفعل بانفعالهم **﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لهم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾** (٣٨).

وإن في هذا لدليلاً على أن رغد العيش وثراء الأمم وإفاضة الأموال عليها ليس علامة على استحقاقها ذلك لاستقامة أمرها، ولكنها النعمة التي تبتلى بها الأمم ويمتحن بها الأفراد. فالثروة لا تعتبر جزاءً وفاقاً على استقامة الأمة إلاّ إذا اقترنت بطاعة المنهاج الإلهي وحده. أما إذا اقترنت بالترف والفجور والعصيان والتجبر فإنما هو استدراج **﴿وأمم سنمتّعهم ثم يمسّهم منّا عذاب أليم﴾** (٣٩).

وهذا الترف المستدرج لهم إنما هو قصير في مقياس الله مهما طال زمنه في مقياس البشر إذ **﴿نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾** (٤٠). والحياة لم تخلق عبثاً؛ فالأرض لم تمهد، والإنسان لم يستخلف على الأرض، ولم يوهب من العلم لمجرد الرفاهية والترف والانقطاع عن خط الفطرة الذي يمتدّ إلى عالم الغيب المتمثل في اليوم الآخر والدار اللآخرة الخالدة. **﴿وما خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما لاعبين﴾** (٤١). و**﴿ما خلقْنا السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وأجل مسمّى﴾** (٤٢).

وتبقى رحمة الله التي وسعت كل شيء لتسع أولئك الموصولين بحبل الله، الذين يتقون الله ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله، ولتتعدى من سواهم. أما تلك الرحمة التي وسعت كل شيء فقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي » فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتّبعون الرسول النبي الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.. إلى آخر هذه الآية. مما يؤكد أن التبشير بمحمد ﷺ وبأمته كان مما ناجى به الله رسوله موسى وأعلمه به وأطلعه عليه.

قال قتادة: قال موسى: يا ربّ إني أجد في الألواح أمة هي خير أمة أُخرجتْ للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ربّ اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

---

(٣٨) الأنعام ٥ ـ ٦.
(٣٩) هود ٤٨.
(٤٠) لقمان ٢٤.
(٤١) الدخان ٧٨
(٤٢) الأحقاف ٣.

قال: ربّ إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون في الخلق، السابقون في دخول الجنة. رب اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إني أجد في يالألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها. وكان مَن قبلهم يقرأون كتابهم نظراً. حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه. وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم. قال ربّ اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: ربّ إني أجد في الألواح أمةً يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فضول الضلالة، حتى يقاتلوا الأعور الكذاب. فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب. إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها. وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقه فقبلت منه بعث الله عليهم ناراً فأكلتها وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم. قال: ربّ فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب فإني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنةٍ ثم لم يعملها، كتبت له بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال: رب اجعلهم أمتي.قال: تلك أمّة أحمد.

قال: رب إني أجد في الألواح أمةً هم المشفعون المشفوع لهم. فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال قتادة: فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال: اللهمّ اجعلني من أمة أحمد [٤٣].

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إلٓه إلاّ هو يُحيي ويُميت. فآمنوا بالله ورسوله النبيِّ الأميِّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون﴾

---

(٤٣) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٥٩ - ٢٦٠.

الخاتمة

وبمثل ما بدأت أختتم: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد بتّ أشد يقيناً في أنّ الله سبحانه ما خلق الخلق ولا أرسل عبيده الأنبياء والرسل الاّ لأجل التمهيد لاستقبال خاتم الأنبياء والمرسلين، المرسل رحمة للعالمين، وهو البشير والنذير، محمد ﷺ.

بل إن هذا اليقين كان يزداد كلما توغلت في دراسة التوراة توغل باحثٍ عن نور الحق اليقين الذي أرسل به موسى. ومع أن توراة قوم إسرائيل يدينون بها اليوم ويتخذونها دستوراً لهم هي من صُنْع أيديهم، إلاّ أنها تضمّ في ثناياها نور البشارة الأحمدية، حتى إنّ صفاته لتبرز بروزاً جليّاً من خلال رؤى أنبيائهم الكثر الذين أُرسلوا إلى القوم.

وإن هذه البشارة الخالدة كانت نسطع سطوعاً لا يشكّ فيه واحد من القوم - وإن كابروا -، ولعلّ حارُ القوم وتقلّبهم السريع بين الكفر والإيمان، وبين الضلال والهداية هو ما كان يجلّي تلك البشارة. فلقد كان انبياؤهم يتعجلون الخلاص على يد المخلِّص المرتقب الآتي، لعل ذلك يُخرج القوم مما هم فيه: كفر وشرك وغلاظة رقاب وقساوة قلوب، وعناد، كان هو سلاحهم إزاء كل دعوة إلى الطريق الحق.

ولم أعُد أجد فيما يُسطِّره القوم عن أنفسهم من غضب الله عليهم ولعنته لهم وكفرهم شيئاً جديدا؛ فإن التوراة كلها تنضح بمثل تلك الرذائل التي غرق فيها القوم وأغرقوا فيها سواهم، إلى يومنا هذا، حتى إن إشاعة الفسق والرذيلة والضلال والكفر هو بَنْد من بنود بروتوكولاتهم التي يتعثرون بظلالها، حتى إنهم أنزلوا الخالق من عليائه وجعلوه ربّاً لجنودهم، وداعياً إلى فسقهم وزناهم، ومشجعاً على القتل والذبح وسفك الدماء.

وأما الأنبياء فهم في توراتهم بشر بل دون البشر في خطايا وآثام نسبوها إليهم وألصقوها بهم، ولم يتركوا نبيّاً دون أن يدمغوه بخطيئة أو فاحشة، بعضها الكفر والشرك، ولا تستثني التوراة أحداً، بدءاً بابراهيم الذي يتمسّحون به أباً لهم، وإن كان القرآن الكريم قد أعلنها للعالمين صراحةً كَوْن إبراهيم حنيفاً مسلماً وليس يهودياً أو نصرانياً. وانتهاء بعيسى الذي جعلوا منه ابن زنى وأمة زانية، وجاء القرآن الرحيم ليعطي عيسى ابن مريم وأمه المكانة

المقدسة التي لا يتجادل فيها مسلمان.

ويمضي القوم في غلوائهم مع أنبيائهم ورسلهم الذين مضوا بعد أن صبّوا على القوم لعناتهم، وتبرّأ موسى منهم بعد أن أصرّ القوم على الكفر مع ما أوتوا من نعم الله وآياته ومعجزاته، ووقفوا مع من تلا موسى من أنبياء كما وقفوا مع موسى، وفضح القرآن الكريم خبايا نفوسهم، حين أبان أن القوم كانوا يلجأون إلى قتْل كل رسول لا تهواه أنفسهم، أو يطردونه، أو يعلنون عليه الحرب التي لا تقبل الفصال.

وجاء عيسى عليه السلام ليُعْلن عليهم الحرب بمثلها حين شهَ ف وجوههم قوله: ما جئتُ لألقي سلاماً على الأرض ولكن لأحمل سيفاً. فلقد كان عيسى على يقين بعد طول تاريخ القوم مع أنبياء الله السابقين، أنّ السلام لا يجدي مع مَنْ بُدِئتْ بهم الرسالة السماوية لأنهم قَتَلة الأنبياء وراجمو المرسلين وهم أولاد الأفاعي، وأكّد لهم الحقيقة التي فصّلها القرآن فيما بعد، وهي أن تمسّحهم بإبراهيم وانتسابهم إليه باطل، لأن النسب هو نسب الإيمان، وإلاّ فإن في مقدور إبراهيم أن يتّخذ من الحجارة أولاداً له.

النسب هو نسب الإيمان الذي أعلنه عيسى وهبأ به لدين محمد ﷺ. وأطلق صرخته بين الناس وفي الأسواق، وفي المجامع، وفي كل مكان، أنه ما جاء لينقض ناموس موسى ولكن ليكمله، والناموس هو: لا إله الاّ الله وأن محمداً رسول الله.

وذلك يعني أن غضب الله على القوم ليس آنياً، ولكنه أبَديّ متّصل. فقد حاربوا عيسى ووقفوا له في كل سبيل، وجاهدوا ليصدوا الناس عن دعوته الموحدة المبشرة بمحمد ﷺ. وذلك يجدّد غضب الله عليهم ولعنة الملائكة والرسل أجمعين على بني إسرائيل، الذين هم شرّ خَلَفٍ لشرّ سَلَف. وأعلن عيسى عليه السلام يأسه من القوم، ولَصَق بهم غضب الله إلى يوم يُبعثون، ولن يغيّر من قَدَر الله عليهم ومشيئته فيهم أن تمدّهم دولة البغي والفسق أمريكا بالقوة المادية. إلى حين، ولكن من سبقهم كانوا أشد بأساً وقوة وغنى وثروة، فأبادهم الله كأن لم يكونوا، ولم يبق منهم غير ذكر في قرآن البشر العظيم شهادة إلى يوم الدين. (قلْ هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنَهُ اللهُ وغضبَ عليه وجعلَ منهم القردةَ والخنازيرَ وعبد الطاغوت. أولئك شرّ مكاناً وأضلّ عن سواء السبيل).

وانتقل عيسى إلى ربه بعد أن هيأ السبيل لمحمد ﷺ تهيئة صريحة علنية، وإن كان الله سبحانه قد هتك سرّ من زيّفوا دعوة عيسى وحرّفوها وثلّثوا إلهها، وضلّوا وأشركوا، وجعلوا البشارة المحمدية بشارة بعيسى الذي جعلوه إلهاً مرّة وإبن إله أخرى. وتبقى الدعوة العيسوية أمانة في ذمم حامليها، فإمّا أن يتّبعوا ما اتبع عيسى، وإما أن يفترقوا عنه، وذلك

هو الكفر المبين.

ويبقى الخلاف والاختلاف بين من دعاهم عيسى وهم قومه، وبين من آمنوا بعيسى وحرّفوا دعوته ومسخوها (وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاقٍ بعيد). (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء).

ويخلد كتاب الله المحفوظ محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين، البشير والنذير والرحمة إلى العالمين، والنور إلى البشر كافة، وهو بشرى آدم وإبراهيم والأنبياء أجمعين، وعند محمد عليه السلام يصرّ القوم على العناد والحسد والبُغْض (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملّتهم قل إن الهدى هو الهدى).

وإن الإسلام هو الهدى وإن محمداً ﷺ هو رسول الهدى و (إن الدّين عند الله الإسلام).

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الكتاب المقدس: التوراة والإنجيل.

٣ ـ د ـ أحمد سوسة: مفصل العرب واليهود في التاريخ. ط ٥ سنة ١٩٨٠م دار الحرية للطباعة. بغداد.

٤ ـ الألباني (محمد ناصر الدين): سلسلة الأحاديث الصحيحة. المكتب الإسلامي.

٥ ـ البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين): دلائل النبوة. ط ١ سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م دار الكتب العلمية. بيروت ـ لبنان.

٦ ـ داوود عبد العفو سنقرط: القوى الخفية لليهودية العالمية ـ ط: ١ سنة ١٩٨٣. دار الفرقان عمان.

٧ ـ ديورانت (ول): قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية.

٨ ـ أبو زهرة (محمد): محاضرات في النصرانية ط سنة ١٩٦٦ م.

٩ ـ د ـ عبد الأحد داوود: محمد في الكتاب المقدس. ط ١ سنة ١٩٨٥ قطر.

١٠ ـ القرشي (ابن كثير): ١ ـ تفسير القرآن العظيم. ٢ ـ قصص الأنبياء.

١١ ـ النووي (يحي بن شرف): رياض الصالحين. ط: ٦ سنة ١٩٧٨م تحقيق د ـ صبحي الصالح. دار العلم للملايين بيروت.

الفهرس